اتحاد الدول العربية

هو العلاج الوحيد والملح

محمد عزة دروزة

عادت الأصوات تتعالى وتتوالى في هذه الأيام بالوحدة على أنها العلاج الملح الوحيد للنكسة التي ألمت بالأمة العربية . لأن في نطاقها فقط يمكن تجميع قوة العرب وطاقاتهم البشرية والاقتصادية والعسكرية ، والصمود إزاء قوى الشر الصهيونية والاستعمارية التي تتآمر عليهم لبسط هيمنتها عليهم بعد ان استطاعوا أن ينفلتوا من اساويها التقليدي القديم .

وهذا حق كل الحق . فالوحدة — التي كانت وما تزال مطلب الشعب العربي ومناط أمله وعزته وقوته وتكامله وازدهاره وحل قضاياه في غير ظرف نكبة طاحنة مثل النكبة التي ألمت به والتي تتوفر كل أسبابها

في الوطن العربي والشعب العربي بأوسع مقياس توفرت به عند أية أمة اخرى من امم الأرض حتى غدا عدم تحقيقها وصمة عار في جبينهم وصاروا بذلك مثار سخرية الأمم التي لم يبق غير متحد منها غيرهم — هي الآن أشد الحاحاً وضرورة من أي وقت لأنها العلاج الملح الوحيد لتلك النكبة الطاحنة . ولا نريد أن نبحث في الأسباب والظروف المتنوعة التي حالت دون قيام الوحدة والتي اقتصرت الآن على الداخلي منها المتمثل بالدرجة الأولى في اختلاف النظم السياسية والاقتصادية ، وفي قوة جذور الاقليمية التي غرسها المستعمر ، وفي شدة الحرص على الاحتفاظ بالشخصية . وكل هذا مما تنفذ منه دسائس الاستعمار وتجعل التغلب عليه عسيراً .

ومع ذلك فاننا نعتقد أن هذه الحالات يمكن أن تعالج بالاتحاد بدلاً من الوحدة .

وللاتحاد اسلوبان : اسلوب الدولة المتحدة واسلوب الدول المتحدة . وفي حالتنا ، في ضوء الأسباب والظروف التي نعيشها ، يكون الاسلوب الثاني هو الاكثر امكانا بحيث تحتفظ كل دولة من الدول العربية بشخصيتها ونظام حكمها وشؤون اقليمها وثرواتها المحلية وتتنازل عن سيادتها في الشؤون العسكرية والسياسية والاقتصادية والمواصلات العامة والجمارك لحكومة اتحادية . على أن تحل مشكلة اختلاف النظام الاقتصادي المحلي أي الرأسمالي الذي يسير عليه بعض الدول والاشتراكي الذي يسير عليه بعض آخر باحتفاظ كل فريق باسلوبه دون أن يكون لحكومة الاتحاد تدخل فيه .

ولقد اتفقت بعض الدول العربية فيما بينها على اقامة وحدة اقتصادية وسوق عربية مشتركة ، برغم ما بينها من تغاير في السير الاقتصادي ، ويعتبر هذا دليلاً على سواغ ما قلناه .

ولقد كنت رسمت خطوطاً دستورية لمثل هذا الاتحاد . وما زلت أراها اجمالاً صالحة للتطبيق ومجيبة للحاجة الملحة لمعالجة النكبة الطاحنة، ومواجهة التحدي الذي يفرض علينا والتغلب عليه، اذا قبلت الحكومات العربية بها أو بمايشابهها وأقدمت على تنفيذها . وليس من محنة ونكبة وتحدّ يمكن أن يلم بالعرب أشد مما هم واقعون فيه وواقفون أمامه الآن فاذا لم ينفذوا مثل هذه الخطة التي هي أضعف الإيمان في سبيل توحيــد طاقاتهم البشرية والاقتصادية والعسكرية والسياسية فأخشى ما يخشى ان لا يستطيعوا شيئاً مما يقولونه ويعلنونه . ويكونون قد تحملوا اعظم مسؤولية قومية أمام الله والتاريخ والوطن .

وقد يكون وزراء خارجية العرب على أحسن الفروض قد اتفقوا على توحيد الخطط والقيادة العسكرية والسياسية والاقتصادية، وقد يوافق مؤتمر الملوك والرؤساء المزمع عقده على ذلك على أحسن الفروض ايضاً . ولكنه سيظل معرضاً للعثرات والنكسات ما لم تتنازل الدول العربية كما قلنا عن سيادتها في هــذه الشؤون، وتوضع في عهدة جهاز اتحادي قادر على التنفيذ والتجاوز عن الاعتبارات والأسباب المتنوعة التي تنشأ عنها العثرات والنكسات . وأمامنا جامعة الدول العربية التي سجلت مئات القرارات والاتفاقات الإجماعية في مختلف الشؤون العسكرية والسياسية والاقتصادية والثقافية ثم بقيت حبراً على ورق لأن التنفيذ ظل في يد الدول التي تحتفظ بسيادتها على هذه الشؤون، ولم تنفذ الدول ما وافقت عليه لاعتبارات اقليمية وسياسية بل وشخصية . ونخص بالذكر معاهدة الدفاع المشترك والتعاون الاقتصادي التي جاءت صيغتها مستوفاة . بل وأمامنا من قريب مؤتمرات القمة التي تقررت فيها قرارات مهمة مثل انشاء القيادة الموحدة، وهيئة تحويل الروافد، ومنظمة التحرير، والتجنيد الاجباري، واستكمال التسلح، والوقوف

من الدول الاجنبية حسب مواقفها من قضايانا عامة وقضية فلسطين خاصة . فقد تعثر بعضها وجمد بعضها لنفس الأسباب ، وليس لهذا علاج غير خطة اتحادية دستورية مثل الخطة المقترحة . ولا سيما أن التحدي ـ الذي تواجهه الأمة العربية ويظل يستنفد قواها وجهودها ويكون لها هماً مقيماً مقعداً ـ لن يقف حتى ولو تحقق سلمياً المطلب العاجل ؛ وهو انسحاب القوات الاسرائيلية الى ما وراء خطوط الهدنة ، مادامت جرثومة الشر باقية في أرضنا والاستعمار يحاول عبرها بسط هيمنته على بلادنا واستغلال ثرواتنا . وما دمنا نتطلع الى تحقيق اهداف امتنا في الحرية والكرامة والعزة والوحدة الشاملة والتكامل والإزدهار . لأن كل هذا يفرض علينا ان نستمر في الاستعداد للمعركة والتضامن فيها حتى نقتلع جرثومة الشر ونقضي على آمال الاستعمار ونحقق اهداف أمتنا مهما طال الزمن وعظمت التضحيات . وهذه هي الخطوط الدستورية المقترحة :

اولاً اختصاص الاتحاد :

يختص اتحاد الدول العربية بالشؤون الآتية :

آ ـ شؤون الدفاع والحرب والصلح :

وتكون جميع القوات الحربية في الدول العربية موحدة نظماً وادارة وتابعة لقيادة واحدة ووزارة دفاع اتحادية فقط .

ب ـ الشؤون الخارجية :

ويشمل ذلك التمثيل الخارجي والسياسة الخارجية والمعاهدات[1]

---

(١) من الممكن مع ذلك ان تحتفظ الدول المتحدة بوزارات خارجيتها الخاصة لضمان بقاء تمثيلها في المجالس الدولية على نحو ما في بعض جمهوريات الاتحاد السوفياتي مثل اوكرانيا وروسيا البيضاء من غير أن يكون هناك تمثيل خارجي متعدد وعمل خارجي متعدد.

الخارجية ويكون هناك وزارة خارجية اتحادية واحدة .

ت – الشؤون الاقتصادية في النطاق التالي :

١ – وحدة جمركية نظاما وإدارة وجباية
٢ – وحدة نقد وادارة
٣ – تنظيم وتوجيه السياسة الاقتصادية الخارجية
٤ – الطوابع المالية (التمغة) نظاما وادارة وجباية
٥ – الاستقراض الداخلي والخارجي
٦ – وحدة سوق عربية مشتركة .

وتقسم هذه الاختصاصات بين وزارتين اتحاديتين أولاها الوزارة المالية وثانيتها الوزارة الاقتصادية .

ث – شؤون المواصلات :

ويكون البرق والبريد والطيران المدني والملاحة المدنية والخطوط الحديدية والموانيء والمطارات موحدة النظم والادارة والجباية . وتشرف على هذه الشؤون وزارة اتحادية باسم وزارة المواصلات ويدخل في اختصاصها مشاريع الطرق والعمران المشتركة بين دولتين أو اكثر .

ج – الشؤون الثقافية :

في نطاق وحدة النظم والمناهج والخطط الثقافية العامة توخياً لتوطيد الانسجام القومي والفكري والأدبي والاجتماعي العام وتشرف على هذه الشؤون وزارة ثقافة اتحادية .

ح – التشريع المدني والجزائي والاجتماعي والعمالي :

ويشرف على ذلك وزارة تشريع اتحادية .

ثانياً — المواطن العربي في الاتحاد :

آ — يكون لرعايا الدول المتحدة جنسية اتحادية تخولهم حق التنقل والاقامة والنشاط والعمل في أية دولة من دول الاتحاد، وحق الاستيراد والتصدير على قدم المساواة مع ابناء تلك الدولة دون أن يتقيدوا إلا بما تضعه السلطات الاتحادية من قوانين وقيود على ذلك .

ب — يكون لرعايا كل دولة جنسية خاصة أيضاً تخولهم حق ممارسة الحقوق الانتخابية والمدنية في دولهم .

ت — ييسر لمن أراد من رعايا أية دولة من الدول المتحدة ان يبدل بجنسيته الدولة التي يقيم ويعمل فيها اذا مر عليه فيها مقيماً وعاملاً سنتان . وحينئذ يستطيع ان يمارس الحقوق الانتخابية في الدولة التي تجنس بجنسيتها وينقطع حقه في ذلك في دولته الأولى .

ث — كل من اقترف جرماً مهما كان نوعه وفر الى دولة اخرى، يسلم الى سلطات الدولة التي اقترف جرمه فيها حينما تقدم هذه السلطات ملف قضيته مؤيداً بقرار الادانة من قاضي التحقيق . على أن يكون له حق استئناف قرار التسليم امام محكمة الاستئناف في الدولة التي هو فيها . ويكون تسليمه رهناً بقرارها . وكل من حكم عليه في قضية مدنية ، واكتسب الحكم الدرجة القطعية وفر الى دولة اخرى، او هرب اليها أمواله ، او كان يقيم فيها، تنفذ سلطات هذه الدولة الحكم حينما تقدم سلطات الدولة التي صدر فيها ملف قضيته مؤيداً بالحكم القطعي . أما الجريمة التي يقترفها أحد رعايا دولة في أرض دولة أخرى أو الحقوق المدنية التي تستحق عليه فيها ، فقضاء الدولة التي هو فيها هو المرجع لذلك .

ج — يضمن الاتحاد لجميع المواطنين في الدول الأعضاء الحريات والحقوق

الشخصية التي تنص عليها شريعة حقوق الانسان العالمية او التي جرى العرف عليها وأقرتها دساتير العالم .

ج — يضمن الاتحاد لجميع الأديان والمذاهب في الدول المتحدة تقاليدها الخاصة على ان لايتنافى ذلك مع الوحدة القومية ومصلحة الدول المتحدة والامن والذوق العام .

ثالثاً — المنظمات الاتحادية :

١ — يقوم على شؤون الاتحاد مجلس تنفيذي ومجلس تشريعي ومحكمة عدل عليا وقيادة عامة .

٢ — المجلس التنفيذي :

آ — يتألف هذا المجلس من رئيس ووزراء للخارجية والمالية والدفاع والمواصلات والثقافة والتشريع العام والجنسية والعمل .

ب — رئيس المجلس هو رئيس الاتحاد أيضاً . ومدة رئاسته سنتان . ومهمته تمثيل الدول المتحدة ، وقبول سفراء الدول الأجنبية ، وايفاد السفراء والبعثات السياسية ، وابرام المعاهدات والاتفاقات والقوانين الاتحادية ، واعلان نفاذها ، وإدارة جلسات المجلس ، ومايمكن ان تنص عليه لائحة المجلس التي يضعها المجلس ويوافق عليها المجلس التشريعي من شؤون أخرى . وتتناوب الدول المتحدة الرئاسة حسب الحروف الهجائية العربية . ويختار المجلس التشريعي بأكثرية عدد اعضائه الرئيس من بين ثلاثة مرشحين ترشحهم الدولة صاحبة الدور .

واذا مات أو استقال أو أدين او عزل يتمم مدته رئيس يختاره كذلك المجلس التشريعي من بين ثلاثة مرشحين من الدولة صاحبة الدور .

واذا وقع هذا في عطلة المجلس التشريعي الاتحادي وجب اجتماعه اجتماعاً

خارقاً خلال اسبوع واحد لملء الفراغ . أما اذا تغيب الرئيس مؤقتاً لمرض أو سفر أو سبب آخر فيقوم مقامه رئيس المجلس التشريعي . ويقوم هذا مقام الرئيس أيضاً في الحالة الأولى ، الى أن يجتمع المجلس التشريعي ويختار خلفاً له .

ت – وزراء الاتحاد ينتخبون من قبل المجلس التشريعي بأكثرية عدد اعضائه من بين مرشحين ترشح كل دولة واحداً منهم لكل وزارة . وليس لهم مدة . واذا استقال وزير أو مات او أدين وعزل فينتخب المجلس التشريعي آخر مكانه من بين مرشحين ترشح كل دولة واحداً منهم . ويجوز ان يكون مرشحو الدول او بعضهم من غير رعاياها .

ويصرف كل وزير شؤون وزارته وفق لائحة داخلية يضعها المجلس التنفيذي ووفق القوانين النافذة . أما مشاريع القوانين والاتفاقيات والمعاهدات السياسية والاقتصادية والعسكرية فالنظر فيها عائد الى المجلس التنفيذي وتنفذ قراراته وفقاً لما تنص عليه اللائحة الداخلية ، والمجلس متضامن في المسؤولية في السياسة العامة وكل وزير مسؤول عن اعمال وزارته الخاصة .

٣ – المجلس التشريعي الاتحادي:

ا – **يتألف المجلس التشريعي الاتحادي من اعضاء منتخبين من قبل مجلس الامة القائم** في كل دولة أو مايقوم مقامه حسب نظام الدول بنسبة عضو واحد عن كل نصف مليون من أهلها أو كسوره اذا كان الكسر لايقل عن ربع مليون على أن لايقل عدد أعضاء كل دولة عن اثنين ولايزيد عن اربعين ، **ومن أعضاء مختارين من قبل مجلس وزراء كل دولة** بنسبة عضو واحد عن كل مليونين من أهلها وكسوره اذا كان الكسر مليوناً على الأقل على ان تمثل

الدول التي لاتبلغ المليونين بعضو واحد على كل حال وعلى أن لايزيد عـــدد هؤلاء الأعضاء من أي دولة عن عشرة [1] .

ب ـ **مدة المجلس أربع سنين** ويعقد دورتين في كل سنة : واحدة في أول تشرين الأول (اكتوبر) وثانية في اول آذار (مارس) . وتستمر كل دورة شهرين . ويتولى تشريع جميع الشؤون الاتحادية بما فيها الموازنة .

ت ـ **المجلس التنفيذي هو الذي يقدم المشاريـع للمجلس التشريعي**. ولربع اعضاء هذا المجلس ان يقدموا مايرونه من المشاريـع ايضاً .

ث ـ **يتخذ المجلس التشريعي قراره بأكثريته العددية** عدا قرارات إعلان الحرب ومعاهدات الصلح والاتفاقيات الاقتصادية التي لاتزيد مدتها عن خمس سنين . فان ذلك يتم بأكثرية ثلاثـــة اخماس اعضائه . ويستثنى الدخول الاضطراري في حالة الحرب نتيجة لعدوان مسلح على احدى الدول المتحدة حيث يكون ذلك بقرار من المجلس التنفيذي على أن يعرض الأمر على المجلس التشريعي .

ج ـ **تنفذ القوانين والقرارات التي تتقرر في المجلس التشريعي بعد ابرامها من رئيس الاتحاد** الذي يجب عليه أن يعيدها باعتراض مدلل في خلال اسبوعين اذا لم يبرابرامها . فاذا أصرّ المجلس وجب اعلانها وتنفيذها .

ح ـ **المجلس التشريعي حق سؤال المجلس التنفيذي** بما فيه الرئيس والوزراء بانفراد **عن كل شأن من شؤون الاتحاد** . وله حق ادانتهم بالتقصير

---

(١) القصد من جعل مجلس الوزراء يختار الفئة الثانية من الأعضاء ضمان الكفاءة والخبرة . وبعض الدول الاتحادية تسير على طريقـــة مجلسين بدلاً من مجلس واحد يسمى احدهما مجلس الامة أو الشعب وثانيهما مجلس الدول او الاقاليم . ونحن فضلنا المجلس الواحد تفادياً للاشكال . والاسلوب الذي رسمناه جامع للمجلسين كما هو ظاهر .

والاهمال ومخالفة الدستور والقوانين أو الخيانة ، بأكثرية ثلاثة اخماس اعضائه .

وحينئذ تنظر محكمة العدل الاتحادية في الامر وتصدر قرارها . واذا كان قرارها ايجابياً في تهمة التقصير والاهمال ومخالفة الدستور والقوانين فانه يعني العزل . واذا كان قرارها ايجابياً في تهمة الخيانة فتحيله الى محكمة جنايات الدولة العليا في مركز الاتحاد . ولها ان تحيله الى هذه المحكمة اذا ترتب على الإهمال والتقصير والمخالفة خسارة مادية لخزانة الاتحاد .

خ — **يجوز للمجلس التنفيذي ان يدعو المجلس التشريعي لاجتماع فوق العادة** اذا اقتضت ذلك المصلحة والظروف . ولربع اعضاء المجلس التشريعي طلب ذلك ، ومثل هذا الحق لدولتين من الدول المتحدة . واجتماعات هذا المجلس الخارقة تتم بدعوة من المجلس التنفيذي . وطلب دعوته يقدم الى هذا المجلس وعليه تنفيذه .

٤ — محكمة العدل الاتحادية :

آ — تتألف هذه المحكمة **من عضو لكل دولة يقل عدد سكانها عن خمسة ملايين وعضوين لكل دولة يزيد سكانها عن هذا العدد .**

ب — **يختار اعضاؤها من قبل المجلس التشريعي الاتحادي** بأكثريته العددية من بين مرشحين بقدر ثلاثة اضعافهم ترشحهم الدول حسب استحقاقها المذكور آنفاً . ويشترط أن يكون المرشحون من رعايا الدولة المرشحة .

ت — **ينتخب المجلس التشريعي رئيس المحكمة** ايضاً من بين مرشحين ترشح كل دولة واحداً .

ث — **اذا شغر مكان في المحكمة يملأ بنفس الطريقة .**

ج — **رئيس وأعضاء المحكمة لايعزلون**، ويعتزلون الخدمة بالاستقالة أو ببلوغ سن السبعين .

ح — **مهمة محكمة العدل** : ١ — حل الخلافات التي تقوم بين الدول المتحدة في مختلف الشؤون التي لايمكن حلها بالمحادثات الثنائية . وبطلب من احدى الدول المختلفة مع غيرها، أو من رئيس الاتحاد .

٢ — النظر في قرارات ادانة رئيس المجلس التنفيذي والوزراء الصادرة من المجلس التشريعي واصدار قرار فيها بعد منح المدان فرصة الدفاع .

٣ — النظر في دستورية أي تشريع او قانون او نظام او امر او قرار صادر من المجلس التشريعي او المجلس التنفيذي واصدار قرار في ذلك اذا طلبته احدى الدول المتحدة .

٤ — النظر في أي شكوى يتقدم بها أحد رعايا الدول المتحدة في حالة وقوع ضرر وبغي عليه من حكومته الخاصة أو من الحكومة الاتحادية، ويكون فيه مخالفة للدستور أو أي تشريع وقانون ونظام وأمر وقرار صادر من المجلس التشريعي أو المجلس التنفيذي، ورفضت حكومة الاتحاد او حكومته المحلية النظر فيها واصدار قرار فيها .

٥ — النظر في أي خلاف يحدث بين المجلس التنفيذي واحدى الدول المتحدة اذا طلب ذلك المجلس او الدولة ، واصدار قرار فيه .

٦ — تفسير ميثاق الاتحاد ومواد الدستور اذا طلب منها ذلك المجلس التنفيذي أو احدى الدول المتحدة .

خ — **دعوة المحكمة واجبة التلبية** وقراراتها التي تصدر بالاكثرية ، وترجيح رأي الرئيس في حالة التساوي، واجبة التنفيذ . واذا رفضت الجهة المدانة

تنفيذ القرار فالمجلس التنفيذي يقترح على المجلس التشريعي مايراه في صدد التنفيذ بما في ذلك فرض مايراه من عقوبات ثم الارغام بالقوة . وينفذ ما يقرره المجلس التشريعي بأكثرية ثلاثة اخماسه ،واذا كانت الجهة الرافضة للدعوة أو التنفيذ هي المجلس التنفيذي فالمحكمة ترجع الى المجلس التشريعي في أول انعقاد له،والمجلس يقرر مايقتضيه الموقف بأكثرية ثلاثة اخماسه .

٥ ــ القيادة العامة :

أ ــ تنشأ قيادة عسكرية عامة للاشراف على تنظيم وحركة الجيش الاتحادي.

ب ــ يعين المجلس التنفيذي القائد العام للجيش العربي الاتحادي من بين مرشحين ترشح اثنين منهم كل دولة ولا يشترط أن يكون المرشحون من رعايا الدولة المرشحة . ويكون القائد العام هو الرئيس الطبيعي للقيادة العامة في وقتي السلم والحرب .

ت ــ المجلس التنفيذي يعين هيئة القيادة العامة من مرشحين يرشحهم القائد العام يكون عددهم ضعف العدد المقتضى .

ث ــ القيادة العامة مرتبطة بوزارة الدفاع الاتحادية من ناحية التموين والتمويل والتنظيم والتجهيز وبالمجلس التنفيذي من ناحية العمل الحربي .

ج ــ القيادة العامة هي التي تنظم وتحرك القطاعات العسكرية في كل دولة في وقت السلم والحرب على اعتبار انها قطعات جيش واحد وليس للدول اي سلطة عليها .

رابعاً ــ مواد متنوعة عامة :

١ ــ للدول المتحدة راية عامة تكون من ثلاثة ألوان أفقية الاخضر فالأبيض فالأسود، ويكون في الابيض نجوم حمراء خماسية بعدد الدول المتحدة .

٢ – ينشأ في مركز كل دولة مكتب اتحادي مرتبط برئيس الاتحاد ليكون واسطة الاتصال والتنسيق بين الادارة الاتحادية والدول التي يكون فيها .

٣ – ينشأ في كل دولة فروع للوزارات الاتحادية تكون تابعة ادارة ونظماً لادارة الشؤون الاتحادية .

٤ – يحظر على حكومات الدول المتحدة ومجالسها التشريعية وضع أي قانون او اتخاذ أي قرار يتناقض مع الدستور الاتحادي والقوانين والقرارات الاتحادية . وحينما يكون تباين بين اي قانون او قرار في دولة من الدول وبين دستور الاتحاد وقوانينه وقراراته فإن هذه هي التي تكون نافذة في الدول المتحدة بما فيها تلك الدولة .

٥ – اذا قدمت ثلاث دول من الدول المتحدة ، او ثلث اعضاء المجلس التشريعي الاتحادي ، طلباً بادخال تعديل ما على الدستور الاتحادي فيجب على هذا المجلس بحث الاقتراح في الدورة التالية للدورة التي قدم فيها الطلب . وما يقره المجلس باكثرية ثلثيه يصبح دستوراً .

٦ – ما يزيد من ربع المصالح والمؤسسات الاتحادية بعد نفقات الادارة الاتحادية بما فيها الجيش يوزع على الدول بنسبة ميزانية كل منها . الا اذا قرر المجلس التشريعي باكثرية ثلاثة أخماسه الاحتفاظ بالزيادة كاحتياطي للاتحاد او تعديل النسبة ازاء بعض الدول بسبب حالتها الخاصة من اليسر والعسر . واذا نقص الريع عن هذه النفقات يوزع النقص على الدول بنفس النسبة إلا إذا قرر المجلس التشريعي باكثرية ثلاثة أخماسه تعديل هذه النسبة إزاء بعض الدول بسبب حالتها الخاصة من اليسر او العسر كذلك .

٧ – لكل دولة من الدول المتحدة الاحتفاظ بنظام حكمها ودستورها

وتشكيلاتها ونظمها الراهنة . كما أن لها ان تدخل على ذلك ماتراه من تعديـــل وتغيير لا يتناقضان مع الدستور الاتحادي . وتتولى كل دولة الشؤون التي لم تدخل في اختصاص الاتحاد وصلاحيات منظماته تشريعاً وتنفيذاً .

٨ ـ الشؤون الداخلية لكل دولة هي من شأن شعب هـــذه الدولة . وليس لأية دولة حق التدخل فيها .

خامساً ـ الخطوات الاجرائية نحو اخراج الاتحاد الى الوجود :

١ ـ تجتمع وفود الدول الراغبة في الاتحاد في مؤتمر ، وتتفق على ميثاق باسم (ميثاق الدول العربية المتحدة) يوقعه كل وفد منها . وينص الميثاق على :

آ ـ الموافقة على قيام اتحاد عربي باسم (الدول العربية المتحدة) في الشؤون السياسية والعسكرية والاقتصادية والثقافية والمواصلات .

ب ـ جواز انضمام الدول والكيانات العربية التي قد تتأخر عن الانضمام الى الميثاق او تنشأ نتيجة للتحرر من الاستعمار .

ت ـ وضع دستور اتحادي ـ تحدد فيه المقاصد والحقوق والواجبات والسلطات التي تشرف على الإدارة الاتحادية واسم العاصمة ـ من قبل مجلس تأسيسي يتألف من اعضاء منتخبين من المجالس التشريعية القائمة في كل دولة حسب نظامها بنسبة عضو واحد عن كل نصف مليون من السكان ؛ على ان لا يقل عدد ممثلي كل دولة عن اثنين ولا يزيد عن اربعين . ثم من خمسة اعضاء من كل دولة تعينهم حكوماتها ويراعى فيهم الكفاءة والخبرة .

٢ ـ ابرام الميثاق وفقاً للطريقة الدستورية او اسلوب الحكم القائم في كل دولة في مدة لا تتجاوز الشهرين .

٣ ـ انتخاب المجلس التأسيسي خلال مدة لا تتجاوز الشهرين من ابرام

الميثاق . واجتماعه بعد اسبوعين من انتخابه برئاسة اكبر الاعضاء سناً ليختار مكتبه ويضع لائحته الداخلية ويباشر مهمته التي يجب ان ينتهي منها في مدة لا تزيد عن ستة اشهر .

٤ – انشاء امانة عامة للاتحاد لملاحظة تنفيذ الميثاق واتمام خطواته تنتهي مهمتها حينما تقوم الادارة الاتحادية الدستورية .

٥ – حينما ينتهي وضع الدستور تسارع الدول الموقعة على الميثاق الى الموافقة عليه وابرامه حسب حالتها الدستورية ثم الى تعديل دساتيرها وفقاً له . وبذلك يغدو الاتحاد في حيز التطبيق . وتتم تباعاً خطواته لانتخاب المجلس التشريعي الاتحادي ثم المجلس التنفيذي ثم محكمة العدل الاتحادية ثم القيادة العامة الاتحادية وفقاً لنصوص الدستور التي تكون في نطاق الخطوط السابقة .

* * *

هذه خطوط ومبادىء عامة قابلة طبعاً للتعديل والتوسيع والتركيز . وقد روعيت فيها مختلف الاعتبارات القائمة في البلاد العربية والتي لا يمكن تجاوزها في الوقت الحاضر .

وتستطيع كل دولة وفاقاً لها ان تحتفظ باستقلالها الداخلي فيما يتصل بطرق التطبيق وحفظ الامن والنظام ومشاريع العمران والتنظيم والطرق ، والشؤون البلدية والصحية والزراعية والصناعية والتجارية والتعليمية والضرائب المحلية من دخل ارض وعقار ورسوم متنوعة اخرى ، كما تحتفظ بنظام حكمها الراهن ، وتشكيلاتها الداخلية ، وثرواتها المكنوزة في ارضها ، ويكون لها دستورها ومجلس امتها ومجلس وزراء يضم وزارات للشؤون المتروكة لها وشرطتها ودركها الخ .

في حين تغدو الدول العربية متحدة دستورياً واجرائياً عسكرياً وسياسياً واقتصادياً وثقافياً . ولم ندخل الثروات المكنوزة في اراضي الدول المتحدة في نطاق الاتحاد - مع ان المعقول والمتعارف عليه ان تكون داخلة فيه - لحساسية المسألة وحرصاً على عدم انكماش الدول التي تعتبر هذه الثروات رأس مال قوي لها تعول عليه في حياتها الاقتصادية . ونحن نقر ان النطاق المرسوم ضيق ، ونتمنى ان يكون اوسع بحيث يكون الاتحاد من الاسلوب الأول (الدول المتحدة) ، ولكن حالة الدول العربية الحاضرة اذا اريد جمعها وتجميع طاقاتها لا تحتمل غير هذا النطاق .

واذا توقف بعضها عن الاستجابة لهذا النطاق على ضيقه ، فمعنى ذلك انها تقبل لنفسها وامتها وبلادها ان تظل مهانة مهيضة الجناح مبعثرة الطاقة عاجزة عن مواجهة التحدي والخروج من النكبة بسلامة وعزة ، مستسلمة للواقع الاليم المهين ولما يمكن ان يقع علينا من واقع أليم مهين جديد . ويكون واجب الدول الاشد شعوراً بخطورة المواقف والواقع المهين وبوجوب رفضه والنضال ضده وتحقيق اهداف امتنا باقتلاع جرثومة الشر والقضاء على آمال الاستعمار ، وبالحرية والكرامة والوحدة والازدهار والتكامل ، ان تجمع امرها ويتم الاتحاد فيما بينها بأوسع نطاق ممكن . ومن حسن الحظ ان ظواهر الاحوال تدل على ان هذا الفريق يمثل ثلاثة ارباع الامة العربية عدداً وقوة ونشاطاً وطاقة كما انه الاكثر مواجهة وتعرضاً واستهدافاً للبغي والعدوان والتحدي والتآمر .

اسرائيل واقع استعماري (*)

للكاتب الفرنسي
مكسيم رودنسون

عرض وتلخيص
« المعرفة »

تقدم « المعرفة » الى قرائها رأي واحد من كبار مفكري الغرب ، هو الكاتب الفرنسي مكسيم رودنسون ، بتاريخ الحركة الصهيونية ، وقيام اسرائيل ، التي يعتبرها الكاتب ظاهرة استعمارية .

ان هدف « المعرفة » من تقديم هذا المقال هو اطلاع المثقفين العرب على وجهة نظر مفكر اجنبي ، حاول أن يعرّي اسرائيل والصهيونية بنزاهة رغم كونه يهودياً .

تلعب نظرية الاستعمار اليهودي-الاسرائيلي دوراً رئيسياً في الصراع العقائدي بين الغرب و « اليشوف »[1] اليهود الفلسطينيين الذين أصبحوا فيما بعد دولة اسرائيل .

(*) المرجع : مجلة الأزمنة الحديثة Les Temps Modernes - Le Conflit Israelo - Arabe № 253 Bis 1967 pp. 17 - 88

(١) ييشوف : كلمة عبرية تدل على مجموعة سكان فلسطين من اليهود ايام الانتداب البريطاني .

ان تهمة « الظاهرة الاستعمارية » هذه يسوقها كافة المثقفين العرب ، من يمينيين ويساريين .. أما في الجانب الاسرائيلي فلا يثور لهذا الاتهام سوى نفر من اليساريين . غير أن هذه الفكرة اكتسبت اهمية خاصة في حقل العلاقات السياسية الدولية وفي الحقل الدبلوماسي اذ من المهم جدا تجاه المنبر الدولي للامم المتحدة وفي العلاقات مع الدول الافرو – آسيوية معرفة ما اذا كانت اسرائيل تصنف في المعسكر الامبريالي ام لا ..

لقد كتب عبد الناصر في « فلسفة الثورة » يقول : « لقد كان الشرق الاوسط يشكل منطقة فريدة في نوعها تآلفت ضدها جميع الظروف والعوامل والقوى ... وكان بديهيا أن الامبريالية هي ابرز هذه القوى.. ولم تكن اسرائيل سوى أثر من آثار الامبريالية » .

وقبيل حرب فلسطين كتب أحد أقطاب الشيوعيين العرب يقول (١) : « ليست الحركة الصهيونية سوى استثمار عواطف شعب مضطهد ، لصالح بعض الرأسماليين اليهود المرتبطين بأهداف الامبريالية في الشرق العربي ... **لقـــد باع الصهاينة بؤس شعبهم مقابل مؤسسة تجارية وقاعدة استعمارية** » .

وجاء في مشروع الميثاق الذي أعلنه الرئيس عبد الناصر في ٢١ أيار ١٩٦٢ في المؤتمر الوطني للقوى الشعبية ما نصه : « ان تصميم شعبنا على انهاء العدوان الاسرائيلي القائم على جزء من الوطن الفلسطيني انما يعني ضرورة تصفية احد الجيوب الخطيرة في صراع الامبريالية ضد كفاح الشعوب . وان سياستنا الرامية الى مكافحة التسلل الاسرائيلي في افريقيا ليست سوى جهد للحد من انتشار سرطان امبريالي قتال » .

اما الاسرائيليون فيحاولون دحض تهمة الامبريالية عن دولتهم فيؤكدون بأن قيامها كان ثمرة كفاح طويل ضد الاستعمار البريطاني .

وأما اليمينيون الاسرائيليون فان تهمة الامبريالية لا تسوؤهم الا بمقدار ما لدى الجماعات والافراد من حساسية ازاء انتشار العقيدة المعادية للاستعمار في العالم .

ما الذي يجعل اسرائيل واقعاً استعمارياً ؟

كل هذا النقاش المحموم الذي يخوضه الصهيونيون وأنصار اسرائيل حول الصورة التي يكونها العرب وعدد من الماركسيين عن اسرائيل مستوحى في الواقع من صورة راسخة مطبوعة في الاذهان وذات قوة سيكولوجية كبرى . انها صورة الرجل الخاضع

(١) رئيف الخوري، «القضية الفلسطينية» مجلة الطريق ، بيروت ٣١ آذار ١٩٤٦.

الاستعمار ، الجائع ، ذي الاسمال البالية ، الذي يملأ الرعب عينيه ، الغارق في الخوف والبؤس ، الباحث بقلق عن لقمة غذاء ... وصورة المستعمر ، الرجل الفظ ، المدني او العسكري ، الذي يتنزه بخيلاء في عربة يشدها الزنوج المنهكون ، ويذهب نصف سكران ليعتدي على الزنجيات الصغار .

كيف يمكن أن نقارن بين الصورة الاولى وبين عرب اسرائيل الذين تصورهم لنا منشورات الدعاية الحكومية وهم يلقون بأوراقهم في صناديق الاقتراع الديمقراطية أو يشتركون بشكل جدي في اجتماع لاحد المجالس البلدية ??? وكيف يمكن ان نقارن بين الصورة الثانية وبين قاطن المستعمرات اليهودية ، ذي الوجه البريء الذي يشع بالمثل العليا والذي يعمل بيديه في الارض التي كانت ارض سليمان واسحق ويشوع ، بعد ان تجاوز اجداده الذين اذلتهم حواجز التمييز العنصري ??

غير أن هذه المقارنات ، مهما كانت صلتها بالحقيقة ، لا يمكن أن تؤخذ مأخذ الجد ولا بد من أن ننظر الى الموضوع نظرة اكثر جدية . طبعاً لا يمكن أن نذهب مع الاسرائيليين اليساريين في تصور الاستعمار وكأنه كائن عاقل أو كيان معروف محدد بيننا ويساراً ، في الاعلى وفي الاسفل ، ويخضع لتعريف واضح لا لبس فيه وكأنه نبات أو حيوان.

ليس هناك استعمار قائم بذاته أو امبريالية قائمة بذاتها . هنالك سلسلة من الظواهر الاجتماعية ذات نقاط تشابه عديدة ، وفوارق عديدة ، جرى العرف على وصفها بالاستعمار أو بالامبريالية .

ومن جهة أخرى فان الصهيونية هي حركة عقائدية واسعة الشمول ذات تاريخ يعتبر الآن قديماً وله مبشروه الاوائل . ولقد كانت الصهيونية دائماً ذات اشكال واتجاهات مختلفة كما يدل على ذلك تاريخها المضطرب الصاخب وما حفل به من انقسامات وهزات وصراعات عنيفة . على أن هنالك خصائص مميزة يمكن استنتاجها من خلال الافكار المتصارعة ومن خلال الدوافع التي حدت بجماهير اليهود الى اعتناق هذه الافكار أو تلك. فلا شك فيه أن أم هذه الدوافع لدى الجماهير اليهودية الاضطهاد الذي كانت تلقاه في روسيا القيصرية وفي اوروبا الشرقية عامة . غير ان تمرد هؤلاء اليهود وثورتهم على الاضطهاد جعلهم يتقادون في سبل تختلف باختلاف الجماعات والافراد واوضاعهم وتاريخ كل فئة على حدة . فاختار بعض اليهود — المندمجين بالمجتمع الذي كانوا يعيشون فيه — النضال السياسي والثوري احياناً مع بقية المواطنين في البلد الذي ارادوه وطناً لهم . وانصرف فريق آخر الى نضال مشابه ولكن عن طريق تكتلات يهودية . واختار

آخرون التبرؤ من كل صلة بالشعب والبلد والدولة التي يعيشون فيها ليضعوا آمالهم في وطن آخر ، وطن يهودي صرف . أما تحديد موقع هذا الوطن فلم يكن موضع اهتمام خاص بالنسبة لهـؤلاء . بل ان احد اليهود الفرنسيين قام في سنة ١٩٠٤ بتحقيق في بردينشيف بأوكرانيا فوجد ان اليهود المحليين ما كانوا ليعبأوا بمعرفة ما اذا كان هـو وصحبه صهيونيين وانما كانوا يسألون اولا عما اذا كانوا مندوبين للوكالة اليهودية التي كانت تنشيء مستعمرات زراعية يهودية في كل مكان وخاصة في امريكا . وقال هـذا الفرنسي في كتابه : « الواقع ان فلسطين لم تكن لتهمهم بقدر ما كانت تهمهم الهجرة بحد ذاتها » (١) .

أما الذين كانوا يتمسكون بأهداب ديانة الآباء والاجداد فان تحديد الوطن اليهودي لم يكن ليحتمل في نظرهم أي شك ، فكل التقاليد اليهودية التي توارثوها من جيل إلى جيل ، وكل الكتب والنصوص المقدسة كانت تحـدد فلسطين . بل ان قسما كبيرا ممن كانوا لايعبأون كثيرا بديانة الاجـداد كانوا يحتفظون بتعلقهم بفلسطين على اساس تقليدي ثقافي ثابت . حتى الاشتراكيين والماركسيين كانوا يتبنون بشكل طبيعي جدا هذا التحديد الجغرافي ماداموا قد اختاروا فكرة تكتل اليهود في وطن جديد ، وما دام أفضل مكان لهذا الوطن هو ذلك الذي يحدده الدين اليهودي .

ولم يكن في أسباب هذا الاختيار أي توجيه يمكن اعتباره استعماريا بالضرورة . ولكن العنصر الذي كان يوحد بين اماني هؤلاء اليهود البسطاء في روسيا — من البائـع المتجول الى صاحب الدكان ومن الصانع اليدوي الى المثقف — يرتبـط بمفهوم الامبريالية بدلالة تفصيلية صغيرة وقليلة الاهمية في ظاهرها ، الا وهي أن فلسطين كانت مسكونة من قبل شعب آخر . ولعل من المفيد والمهم جدا ان نبحث عن الافكار التي كانت جماهير اليهود في أوربا الشرقية تكونها عن سكان فلسطين الاصليين . الواقع ان هذه الاماني الثابتة التي كانت تدغدغ احـلام اليهود الروس فيما يتعلق بفلسطين لم تكن ذات هدف سياسي محدد ، وبالتالي فان اصحابها الذين كانوا يفكرون بتحقيقها في مستقبل بعيد كانوا يجهلون المشكلة كل الجهل . كان موقفهم عبارة عن رد فعل للاضطهاد الذي كانوا يلقونه في أوروبا وكان شعارهم كما يقول سيمون دوبنوف : « اننا غرباء في كل مكان . ولابد لنا من العودة لديارنا » . غير ان جماهير المهاجرين الكبرى ما كانت لتجد المكان

---

(١) يراجع مقال ج ، ديلافاش « رحلة دراسة » في (دفاتر الخمسة عشر يوما) السلسلة الخامسة ، الدفتر السادس ، كانون الاول ١٩٠٤ ص ٩٦ .

الكافي على الطريق الضيق المؤدي الى فلسطين والذي سبقها اليـــه الرواد المتحمسون للفكرة . فقد كانت هجرة بضع مئات الى فلسطين ، الى جانب هجرة عشرات الالوف من اليهود الى امريكا تهدم في الواقع الاسس التي بنيت عليها الآمال بنقل مركز الشعب اليهودي الى الوطن التاريخي .

وهكذا كان على اليهود في نطاق التطلعات والاماني اما أن يحتفظوا بعقيدتهم الدينية تاركين لله ان يحول ذات يوم وبشكل سحري وجوه بعض الرواد المبعثرين في فلسطين الى مملكة الخلاص المنشودة ، واما ان يتركوا المشكلة لمستقبل بعيد وغير محدد. أما مشكلة سكان فلسطين فلم تكن لتقلق هؤلاء اليهود الذين اعتنقوا افكارهم على أسس دينية محضة . ولم يظهر آنذاك سوى بضعة مفكرين ، بينهم العالم النظري « للصهيونية الروحية » المدعو آشير غينزبرغ الذي لفت النظر الى ان فلسطين لم تكن ارضا خاوية وان التفكير فيها يطرح مشاكل عديدة .

غير أن هذه التحذيرات كانت تقابل باللامبالاة . . وهي لامبالاة مفهومـــة ومعذورة ولكنها تحمل في طياتها بذور المآسي التي يخبئها المستقبل . . وهي تعود الى تفوق اوروبا بما فيها طبقات العمال والأقليات المضطهدة . . فلاشك فيه انه لو كان وطن الاجداد (فلسطين) مأهولا من قبل أمم صناعية ذات وعي او شعور قومي قوي ، لو كانت المشكلة هي ازاحـــة الفرنسيين أو الالمان او الانكليز وزرع عنصر جديد في اوطانهم ، لكانت في مقدمة مشاغل الضمير الصهيوني ، حتى لدى اكثر اليهود جهلا وبؤسا . . .

غير ان التفوق الاوروبي خلق حتى في نفوس البؤساء فكرة مآلها ان كل ارض ، خارج اوروبا ، يمكن ان يحتلها عنصر اوروبي . فقد كان ميترلينغ يقول : يمكن فياوراء حدود المدنية ، أن ندخل بين الشعوب المتخلفة ، لاضدها ، « مستعمرات » اوروبية لايمكن الا أن تكون اقطابا للتطور .

وعلى صعيد النظرية الصهيونية قال أحد واضعي فكرة الصهيونية السياسية ليون بينسكر ، (١٨٣١ — ١٨٩١) في صدد هجرة يهود روسيا ورومانيـــا الى فلسطين « ان هدف جهودنا لاينبغي ان يكون الارض المقدسة ، بل أرضنا نحن . . فنحن لانحتاج الا الى ارض واسعة تؤوي اخواننا البؤساء . . ويمكننا الخيار بين رقعة صغيرة في امريكا الشمالية وبين اقطاع يمنحنا إياه الباب العالي ويضمن لنا حياده بالاشتراك مع

الدول الاخرى .. وقد يكون ذلك في فلسطين أو في سورية حسبما تقرره لجنة من الخبراء فاذا ما اختارت اللجنة امريكا فعلينا ان نسرع في ذلك »(١)

ومن هنا يتبين ان ما كان يقلق اليهود ليس هو حق الشعوب التي يبحثون في مزاحمتها على أرضها بقدر ماهو اصطدام السلطات السياسية .

بيان هرزل :

وبعد مرور اربعة عشر عاما على بيان بينسكر صدر بيان هرزل الشهير الذي دفع بالحركة الصهيونية وبفكرة الدولة اليهودية الى الامام والذي دل على انه يلتقي مع بينسكر في افكاره وان كان لايعرفه .. وهذا التلاقي بين الرجلين ذو مغزى كبير .. فقد قال هرزل : « ان هناك بلدين لاقامة الوطن اليهودي : فلسطين او الارجنتين . وان المجتمع اليهودي يقبل مايعطى له ، آخذاً بعين الاعتبار مشاعر الرأي العام اليهودي حول الموضوع .. وان الارجنتين من اغنى بلاد العالم ، ومن مصلحتها تتنازل لنا عن قطعة من اراضيها .. وأما فلسطين فهي وطننا التاريخي الذي لاننساه وان مجرد ذكرها يعتبر صيحة ذات أثر قوي في انضمام شعبنا الى حركتنا »(٢)

وهكذا يبدو أن هرزل ، شأنه شأن بينسكر ، كان يهتم بموقف الحكومات الاوروبية فقط .. اما رأي الشعوب المعنية فلم يكن يرى فيه سوى مجموعة من المعارضات التي ينبغي ازالتها او مقاومتها . فتطلعاته ، وأهداف المنظمة التي كونها ، تدخل ضمن إطار حركة التوسع الاوروبية الكبرى التي عرفها القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين في صورة موجة استعمارية اوروبية عارمة . وكان « الاستعمار » في ذلك الوقت يعني نشر التقدم والمدنية والرفاه .

كان العالم آنذاك واقعاً تحت سيطرة الدول الاستعمارية الاوروبية الكبرى ، وكان لابد لكل حركة تهدف الى احداث تغيير سياسي من الحصول على موافقة هذه الدول وتأييدها . كذلك كان لابد لهذه الحركة ، ان تقدم فوائد لهذه الدول وان تخدم مخططاتها . وفي نفس تلك الفترة تقريباً كان جمال الدين الافغاني (ابو القومية الاسلامية) يمضي حياته

---

(١) يراجع كتاب ليون بينسكر « التحرير الذاتي » طبعة القاهرة ١٩٤٤ — ترجمة شوارتز (سلسلة الكتابات اليهودية) صفحة ٦٩ .

(٢) تيودور هرزل (الدولة اليهودية) ، مترجم الى الفرنسية ، مطبوع في باريس منشورات ليشوتز ١٩١٦ صفحة ٩٢ — ٩٥

مثل هرزل ، في جس نبض الدول التي يمكن ان تساعد مخططاته ويحاول استخدام أهداف الواحدة ضد الاخرى .

كان هرزل يخالف من سبقوه من رواد الصهيونية الاوائل الذين كانوا يفضلون تشجيع الهجرة تدريجيـاً . فهو يرى ان قيام الدولة اليهودية ينبغي ان يتم بحماية الدول الاوروبية بعد تشجيع الدول صاحبة الشأن واغرائها بالفوائد التي تجنيها من قيام الدولة اليهودية فاذا ماتم اختيار فلسطين فان هرزل يقول: « اذا ماقبل جلالة السلطان باعطائنا فلسطين فان بوسعنا ان نتكفل بجميع الامور المالية لتركيا. أما بالنسبة لاوروبا فسوف نكون هناك – في فلسطين – جزءاً من قلعة ضد آسيا ونخفر أماميا للمدنية ضد الهمجية . سوف نبقى كدولة حيادية ذات علاقات دائمة مع اوروبا التي تكفل لنا وجودنا».١

وهكذا يصعب أن نجد سبيلا اوضح من هذا لوضع الصهيونية ضمن اطار السياسات الاستعمارية الاوروبية . وكان هذا هو السبيل الذي تبناه مؤتمر بال الصهيوني عام ١٨٩٧، الذي حدد هدف الصهيونية بأنه « خلق وطن للشعب اليهودي في فلسطين يضمنه القانون العام » وكانت عبارة « القانون العام » مثار جدال طويل في المؤتمر ولكنهـا في ذهن واضعيها كانت تعني الحصول على استقلال ذاتي لفلسطين اليهودية تحت سيادة السلطـان وبضمانة الدول الاوروبية شأنها شأن لبنان المسيحي .

لم تكن فكرة الدولة اليهودية المستقلة لترد بوضوح آنذاك على لسان الصهيونيين، ولكنهم كانوا يعتبرون ان الدول الخاضعة للامبراطورية العثمانية كانت تحصل على استقلالها الواحدة بعد الاخرى فليس هنالك ما يمنع من حصول دولة اليهود على استقلالها .

ومن هذا الهدف كانت تتفرع النقـاط الاربع لبرنامج بال والتي هي : تطوير المستعمرات الزراعية والبدوية في فلسطين ، بذل الجهود لتنظيم اليهود المشتتين ، تنظيم الجهود لتدعيم « الشعور القومي » لدى هؤلاء ، واخيراً بذل المساعي الاولية للوصول الى الاتفاقات الحكومية اللازمة .

وكان السعي للحصول على تأييد الدول الاوروبية الضروري يلي ويحدد السياسة الصهيونية نحو هذه الدول : فاما اللعب على الخصومات القائمة بينها وإما الضغط عليها عن طريق الناخبين اليهود واما اللعب بورقة عداء هذه الدول للسامية ورغبتها بالتخلص من سكانها اليهود .. وكمثال على هذه الوسيلة الاخيرة نذكر الاتفـاق الذي تم بين هرزل وبليف وزير داخلية القيصر (١٩٠٣) والمسؤول الاول عن اضطهاد اليهود في روسيا ، هذا الاتفاق الذي خلق تقليداً سياسياً جعل التلاقي والترابط بين المخطط الصهيوني ومخطط أعداء السامية امراً حتمياً .

أجل ان كل مشروع سياسي تحريفي كان لابد له أن يتبع سياسة من هذا النوع . غير إن القومية اليهودية الصهيونية كانت تمتاز عن بقية الحركات ، لأنها كانت تعتمد على دعائم قوية بين مواطني الدول الاستعمارية المعنية، ولأن صفة الصهيونيين الاوروبية كانت تسمح لهم بأن يقدموا مشروعهم كحركة ترتبط بنفس حركة التوسع الاوروبية التي كانت كل دولة تقوم بها لحسابها . ومن هنا تتضح لنا طبيعة البيانات العديدة التي صدرت عن اهتمام اوروبا واهتمام الحضارة بتأييد الحركة الصهيونية .. كان ذلك طبيعياً جداً في ذلك العصر وليس لنا أن نطبق على قادة الصهيونية او جماهيرها في ذلك الوقت المبادىء التي اصبحت رائجة اليوم . ولكن ليس لنا الحق ، كذلك ، في أن ننكر واقع موقفهم ونهمل الآثار الموضوعية لهذا الموقف .

وعد بلفور :

وسط هذه الظروف قدم المشروع الصهيوني . ووسط هذه الظروف بلغ غايته . فقد كان تحقيقه مرتبطاً بصك سياسي بريطاني هو بيان اللورد بلفور بتاريخ ١٩١٧/١١/٢ الذي ابلغ اللورد روتشيلد بأن « حكومة جلالته تنظر برضى الى انشاء وطن قومي في فلسطين للشعب اليهودي » .

ان البحث في الدوافع الحقيقية التي حدت بحكومة بريطانيا واثر كل من هذه الدوافع امر معقد ويصعب حله بشكل دقيق ، ولكن يمكننا ان نتبين خطوطه العريضة.

لنستبعد مبدئياً النظريات القائلة بأن بيان بلفور كان مكافأة للجهود المزعومة التي قام بها يهود امريكا لحمل هذه الاخيرة على دخول الحرب . ولنستبعد كذلك ما يقال بأن السبب هو المبالغ الكبيرة التي جمعها اليهود البريطانيون بصفة سندات تبرع للحرب . كذلك ايضاً نرفض ما قيل بأن البيان البريطاني كان مكافأة لحاييم وايزمن لاختراعه نوعاً من المتفجرات القوية .. كما اننا لايمكن ان نقبل بنظرية وايزمن التي تقول ان بيان بلفور كان « عملا فريداً املاه الضمير العالمي » ... فلا يمكن لحكومة دولة تخوض حرباً صعبة ان تتخذ قراراتها مدفوعة بعواطف من هـذا القبيل .. وقد كان وايزمن يعرف الصعوبات والمعارضة التي تلقاها مساعيه من قبل بعض الوزراء البريطانيين ولا سيما منهم اليهودي المناوىء للصهيونية المدعو ادوين مونتيغو ، ولذلك بعث الى الحكومة البريطانية بمذكرة قال فيها : « اننا اذ نقدم قرارنا نعهد بمصيرنا القومي والصهيوني الى الخارجية البريطانية والى حكومة الحرب الامبراطورية آملـين أن يدرس الموضوع على ضوء المصالح الامبراطورية والمبادىء التي يدافع عنها الحلف » .

إن الدوافع الكبرى لبيان بلفور تكمن في الاثر الدعائي الذي يحدثه البيان بين يهود الامبراطوريات الاوروبية وروسيا، والامل في الحصول على ضمانة لتصفية الامبراطورية العثمانية في المستقبل. فلقد سام يهود ألمانيا والنمسا والمجر في الحرب لاعتقادهم بأن الحرب هي ضد روسيا القيصرية التي تضطهد اليهود. وكان الالمان يعلنون في الاراضي الروسية التي احتلوها انهم جاءوا يحمون وينقذون اليهود من اضطهاد موسكو. هــذا في حين كانت الثورة الروسيــة تشجع النزعات الانهزاميــة وكانوا ينسبون لليهود دوراً هاماً في حركة الثورة الروسية. فكان لابد اذن للحلفاء من أن يقدموا لليهود أسباباً تجعلهم يؤيدون موقف الحلفاء. ومن هنا فليس من قبيل المصادفة أن يسبق بيان بلفور بخمسة أيام فقط تاريخ قيام الثورة الروسية في ٧ نوفمبر (٢٥ أكتوبر حسب التقويم الروسي). فلقد كان أحد أهداف بيان بلفور دعم حكومة كيرنسكي.

وكان من الدوافع الرئيسية أيضاً لاصدار بيان بلفور وزن يهود امريكا والعمل على استخدام هذا الوزن في وقت كان اليهود الامريكيون ينزعون فيه نحو السلم والابتعاد عن الحرب.

كذلك كان لابد من قطع الطريق على الصهيونيين الالمان والنمساويين الذين كانوا يفاوضون حكوماتهم للحصول من حكومة تركيا على بيان من نوع «بيان بلفور».

أما بالنسبة لفلسطين، ففي الوقت الذي حصلت بريطانيا على موافقة الشريف حسين على الثورة ضد الاتراك مقابل انشاء مملكة عربية كبرى، وفي الوقت الذي كان اتفاق سايكس – بيكو السري يقسم مناطق النفوذ بين إنكلترا وفرنسا في المنطقة، وفي الوقت الذي كانت فرنسا تسعى مع اللبنانيين لانشاء دولة سورية الكبرى التي تشمل فلسطين وتبقى تحت النفوذ الفرنسي، كان وايزمن لايرى بأساً في أن تكون لبريطانيا مسؤولية خاصة في فلسطين ويطلب منها ان تكون فلسطين تحت انتدابها كي يكون للصهيونية أساس قوي في المطالب التي تتقدم بها بعد الحرب وعند تقاسم الغنيمة.

وما كان لبيان بلفور أن يحظى بامكانيات التطبيق، لولا النجاح العسكري الذي احرزته بريطانيا بمعونة فرنسا وأمريكا والذي أدى الى انتصار الحلفاء على الامبراطورية العثمانية في فلسطين وسورية. ولكن القضية العربية التي كان الصهيونيون قد اهملوا أهميتها من قبل، طرحت بشكل جدي. وفجأة أصبح العرب عنصراً هاما في اللعبة السياسية.

لقد كان يمكن المشروع الصهيوني أن يتحقق قبل بضع عشرات من السنين عن طريق الاتصالات بين الصهيونيين والدول الاوروبية الاستعمارية، ولكن لسوء حظهم فان موعد تنفيذ المشروع جاء في وقت أخذت فيه قوميات الدول الاسلامية تظهر وتنمو..

وكان الصهيونيون قد وجدوا كثيراً من التردد والمقاومة من قبل السلطان عبد الحميد وحاشيته المتعصبة ، إذ خشي السلطان ان يتسرب الى الامبراطورية عنصر قومي جديد ينتهي بالمطالبة بالاستقلال ، كما حصل في اليونان وبلغاريا ورومانيا والصرب ، الامر الذي حدا به الى رفض العروض المغرية التي قدمها اليه هرتزل .

وانه ليجدر بنا أن ننوه بالدراسة القيمة الحديثة التي قام بها نيفيل مانديل والمبنية على اوثق المصادر والتي يثبت فيها بأن المقاومة العربية في فلسطين ضد الحركة الصهيونية بدأت منذ بداية الهجرة اليهودية وقبل الحرب العالمية الاولى ، (١) كما يشير الى المعارضة العربية التي تجسدت خلال الحكم العثماني في مساعي المندوبين العرب لدى البرلمان وضد حزب الاتحاد والترقي الذي كان يضم بين صفوفه اليهود الدونمة والذي كان يساوم الحركة الصهيونية على تسهيل الهجرة الى فلسطين مقابل بعض التسهيلات المالية في وقت كانت الامبراطورية العثمانية فيه تشكو ضائقة شديدة .

الواقع أن الصهيونيين ما كانوا ليبالوا بردود الفعل العربية ، وهنا يظهر العنصر الاستعماري اللاشعوري في مساعيهم . فقد كتب مانديل يقول : « لقد جاء المهاجرون اليهود الى فلسطين وهم يظنون أنها بلاد تعيسة يقطنها قلة من الناس .. كان انهماكهم بمشاكلهم الخاصة وجهلهم التام للعرب يمنعهم من فهم ما كان يدور حولهم .. كانوا يوجهون كل اهتمامهم للاتراك باعتبار أن هؤلاء هم الذين يحكمون فلسطين .. الامر الذي حال دون تقبل العرب لليهود بين ظهرانيهم » .

وكانت نهاية الحرب العالمية الاولى ، في الوقت الذي اخذت الحركة الوطنية تظهر كعامل من أهم العوامل ، سببا في ايقاظ وعي بعض اليهود الصهيونيين لأهمية المشكلة . وكان أن ازداد عدد كبير من اليهود غير الصهيونيين اقتناعاً بهذا العامل الجديد الذي لم يكن ظاهراً وواضحاً من قبل فوجهوا الى اخوانهم تحذيرات ذكية وحكيمة غير أن ذلك لم يغير جذريا موقف القادة الصهيونيين الذين اعتبروا حركة القومية العربية حركة مرتبطة اساساً ببريطانيا وأهملوا القاعدة الجماهيرية الفعلية للقادة العرب الذين وان كان بعضهم عملاء لبريطانيا الا ان اكثرهم كان يلعب الورقة البريطانية بنفس النوايا الخفية التي كان يحملها القادة الصهيونيون أنفسهم .. واذ أهمل القادة الصهيونيون هذا العامل القوي فقد اثبتوا ان روح مساعيهم كانت خاضعة للنظرة الاستعمارية التي كانت سائدة في اوروبا

---

(١) — يراجع كتاب « الاتراك والعرب والهجرة اليهودية الى فلسطين ١٨٨٢ - ١٩١٤ » المنشور بالانكليزية في اوكسفورد (الجزء الرابع) سنة ١٩٤٥ صفحة ٧٧ الى ١٠٨ .

آنذاك والتي وان كانت تبرر وتفسر موقفهم هذا، الا أنها لابد ان تؤدي الى الكوارث في المستقبل.

وكان أن بدأت بعد انتهاء الحرب سلسلة من المساومات الصعبة والبشعة بين البريطانيين -الذين اغدقوا الوعود المتناقضة- والفرنسيين والروس والاتراك والتي انتهت كما هو معروف- وبضغط من اللجنة التنفيذية الصهيونية - إلى وضع فلسطين تحت الانتداب البريطاني بعد تقاسم السيطرة على دول المنطقة وضمان طريق الهند عبر قناة السويس.

وبدأت بعد ذلك محاولات جزئية للوصول الى اتفاق بين الصهيونيين والعرب. وكانت هذه المحاولات تدخل في نطاق السياسة البريطانية من حيث كونها تهدف الى التوفيق بين الوعود المتناقضة التي بذلت خلال الحرب، وتهدف من جهة أخرى الى اقامة سلسلة من الدول العازلة، تحت النفوذ البريطاني، تحمي السويس من جهة آسيا، وتراقب تركيا الكمالية المتحالفة مع روسيا السوفياتية المقلقة من جهة اخرى، وتوازن نفوذ فرنسا الحليفة المزعجة.

بين فيصل ووايزمن:

هكذا وبناء على نصيحة الجنرال ألنبي، قائد القوات البريطانية، اتصل وايزمن في حزيران ١٩١٨، حين كان الاتراك لايزالون يحتلون فلسطين، بالامير فيصل قائد القوات العربية. وتوصل وايزمن وفيصل الى اتفاق تاريخي في باريس حين بدأ مؤتمر السلام. كان فيصل في وضع صعب إذ كان يواجه عداء فرنسا التي كانت تصر على تطبيق اتفاق سايكس - بيكو وتنظر بحذر الى اقامة دولة عربية تخضع للنفوذ الانكليزي وتكون عنصراً فاعلا في اليقظة القومية في المغرب الفرنسي. وكان كليمنصو قد تنازل مبدئيا عن الموصل وفلسطين للانكليز مقابل تعويض. وكان لابد لابرام هذه الاتفاق من أخذ موافقة جميع الاطراف المعنية بمصير فلسطين. فدفع أصدقاء فيصل من الانكليز -ولا سيا لورنس- إلى الاتفاق مع وايزمن. كان فيصل يود لويقبل بفكرة التخلي عن فلسطين لليهود مقابل اقامة دولة عربية مستقلة كبرى تقدم لها الدولة اليهودية في فلسطين معونة فنية ثمينة. وأخذ فيصل يناور وهو يخشى أن ترفض الجماهير العربية، ولاسيا في فلسطين، هذه السياسة. فلقد كان من شأنها أن تقيم الى جانب دولة عربية واسعة تضم عددا من الاقليات العرقية والدينية، مجموعة جديدة مؤلفة من بضعة آلاف من المعمرين اليهود ذات مستوى تقني رفيع تدعمها المنظمة الصهيونية بامتيازات عديدة. وكان شعار

« الوطن القومي اليهودي » غامضاً لاثير شكوك العرب بالنسبة لمسائل السيادة في ذلك الوقت. ولقد ماغضب وايزمن حين قام المندوب الفرنسي تارديو، ليعلن رسمياً في شباط ١٩١٩ ان فرنسا لاتعارض في قيام دولة يهودية، وقال « لقد كنا شديدي الحرص من ناحيتنا على الا نستخدم هذه العبارة » .

لقد كان كل من فيصل ووايزمن يرى في الاتفاق وسيلة للحصول من مؤتمر السلام على تكريس رسمي لاهداف كل منها التي هي اقامة مملكة عربية مستقلة - بالنسبة لفيصل - والحصول على اقصى المساعدة الممكنة في تهجير المغمرين اليهود الى فلسطين واقامة ارض يهودية ذات استقلال ذاتي تحت الحماية البريطانية، بالنسبة لوايزمن .

وكان ان تقرر بعد ذلك الانتداب البريطاني على فلسطين في تموز ١٩٢٢ وانيطت ببريطانيا « مسؤولية تهيئة الظروف السياسية والادارية والاقتصادية التي من شأنها تسهيل اقامة وطن قومي للشعب اليهودي » ، وبذلك صادقت المجموعة الدولية على وعد بلفور .

من كل ذلك نستخلص النتائج الآتية :

١ - ان تحقيق المشروع الصهيوني لم يبدأ الا بسبب اجراء سياسي صدر من بريطانيا تحت ضغط المنظمة الصهيونية .

٢ - ان بريطانيا سعت للحصول على موافقة الدول الكبرى على عملها هذا لأنه يخدم مصالحها في الشرق الأدنى ولأن القادة الصهيونيين اكدوا لها ذلك .

٣ - كانت بريطانيا تعتقد أنه يمكن التوفيق بين مسعاها وبين دعمها للأمراءالعرب الهاشميين الذين ساعدوها ، ذلك لأن الصهيونيين سكتوا في ذلك الحين عن ذكر الدولة اليهودية واكتفوا بطلب تسهيل هجرتهم واقامتهم في فلسطين .

٤ - وهكذا فان للعرب كل الحق في أن يعتبروا أن غرس عنصر أجنبي غريب في الارض الفلسطينية قد فرض عليهم من قبل دولة اوروبية بسبب انتصار مجموعة من الدول الاوروبية على مجموعة اخرى كانت تضم الامبراطورية العثمانية .

ان اهمية هذه الاستنتاجات تأتي من حيث كون الصهيونيين يحددون موعد بدء قيام الدولة اليهودية بأول موجة هجرة يهودية الى فلسطين بين ١٨٢٢ و ١٩٠٣ أو بما يسمونه بحرب الاستقلال عام ١٩٤٨ ليركزوا على رفض العرب لقرار التقسيم وعلى سوء نية بريطانيا وعدائها الواضح الذي كان سبباً في القتال الارهابي الذي شنه الصهاينة قبل عام ١٩٤٨ .

أجل ان دور الهجرة اليهودية الى فلسطين قبل عام ١٩١٤ كان هاماً غير ان وجود ٨٥ الف يهودي لم يلعب سوى دور ثانوي جداً في اصدار بيان بلفور ... ولم يكن التفكير باقامةدولة يهودية مستقلة أمراً ممكنا الا حين اصبح هناك في فلسطين٥٣٩ الف يهودي (سنة ١٩٤٣) أي ٣١٪ من السكان . وما كان لهذه الهجرة الجماعية أن تتم لولا الحماية البريطانية .. فلو كانت الدولة العربية المستقلة المتحررة من الضغوط الخارجية قائمة لما امكن لليهود أن يحققوا هذه الهجرة .. ولهذا كان القادة الصهيونيون أثنـــاء الانتداب يطالبون بريطانيا بأن تدعم جهاز البوليس وتمنع في الوقت نفسه قيام أية هيئة تمثيلية من شأنها أن تضعف ولو بنسبة قليلة جداً من سلطة المفوض السامي .

من ذلك يثبت أن بريطانيا هي التي خلقت قاعدة تحقيق حلم هرزل ، قاعدة الدولة اليهودية .. غير أنها اخذت بعد الانتداب تزداد حساسية لعداء العرب للمشروع الصهيوني فأصدرت في ١٧ أيار عام ١٩٣٩ كتاباً ابيض تعلن فيه معارضتها الصريحة لفكرة قيام دولة يهودية تضم كافة الاراضي الفلسطينية وتفكر بقيام دولة فلسطينية مستقلة خلال عشر سنوات لايكون فيها لليهود اكثر من ثلث السكان . وعلى هذا اخذت بريطانيا تحد من الهجرة ومن بيع الاراضي .

ولقد نتج عن ذلك تردي العلاقات بين اليهود وسلطات الانتداب البريطاني ولجوء الصهيونيين الى تأليف منظمات ارهابية (شتيرن والارغون) تقوم باغتيالات وعمليات تخريبية ضد بريطانيا للضغط عليها وفتح باب الهجرة والغاء الكتاب الابيض . وفي ١١ أيار عام ١٩٤٢ عقدت الجمعية الصهيونية الامريكية اجتماعاً قررت فيه تبني الخطة التي قدمها بن غوريون رئيس اللجنة التنفيذية الوكالة اليهودية والتي سميت «برنامج بيلتمور». هذه الخطة تطالب باقامة دولة يهودية على كامل الاراضي الفلسطينية وانشاء جيش يهودي ورفض الكتاب الابيض وفتح باب الهجرة بـــلا حدود تحت اشراف الوكالة اليهودية . وسرعان ماصادقت اللجنـــة المصغرة المجلس العام للمنظمة الصهيونية في القدس على برنامج بيلتمور واعتبرته البرنامج الرسمي للحركة الصهيونية .

كانت النتيجة المنطقية لمشروع قيام الدولة اليهودية وقوع حرب حتمية بين العرب واليهود . ولقد تنبه الى ذلك بعض اليهود العقلاء أمثال مارتن بوبر ، الفيلسوف الشهير ، الذي اخذ على الحركة الصهيونية الرسمية سياستها المبنية اساساً على البحث عن اتفاقات دولية بدلا من السعي الى اتفاقات محلية مع العرب في فلسطين . وقال بوبر ان مشروع بيلتمور الذي يعترف بأن هدف الصهيونية هو احتلال البلاد عن طريق المناورات الدولية لم يثر غضب العرب فحسب بل جعل جميع الجهود الرامية الى ايجـــاد تفاهم بين العرب

واليهود جهوداً مشبوهة في نظر العرب تخفي في الواقع النوايا الحقيقية التي اعترف بها الصهيونيون رسمياً (١).

التقسيم والحرب الاولى في فلسطين :

إن الحركة الإرهابية وقوة ضغط المنظمة الصهيونية ولا سيما في الولايات المتحدة جعلت البريطانيين يقتنعون بأن من الافضل أن يرحلوا عن فلسطين ويتركوا اليهود والعرب وجها لوجه . ولقد اقتنعت الدول الكبرى ، بعد مارأته من قوة يهود فلسطين « وحربهم » ضد الانكليز ، بأن التعايش السلمي بينهم وبين العرب أمر خيالي ، فكان أن صوتت الجمعية العامة للامم المتحدة عام ١٩٤٧ على قرار بتقسيم فلسطين وأعلن البريطانيون أنهم سيسحبون قواتهم في ١٥ أيار ١٩٤٨ ، مع أنها العنصر الوحيد القادر على منع الاصطدام ، وبذلك كان الصدام الدامي أمراً محتماً .

لقد كان قبول التقسيم بالنسبة للجماهير العربية معناه الاستسلام بلا قيد ولا شرط لارادة اوروبا تماما كما كان ملوك إزنوج أو أقاصي آسيا الصفراء يستسلمون في القرن التاسع عشر أمام المدافع المصوبة نحو قصورهم ، ذلك أن اوروبا اوفدت هؤلاء المعمرين الذين كانوا يهدفون الى الاستيلاء على جزء من ترابهم الوطني . وحين كان بمقدور السكان العرب أن يردوا بسهولة هذه الموجات من المهاجرين ويطردوها كانت القوات البريطانية المنتدبة تمنعهم من ذلك وتؤكد لهم في الوقت نفسه أن الامر هو مجرد ايواء عدد من البؤساء الذين سيظلون أقلية ... ومـا أن أخذت نوايا هذه الجماعات من المهاجرين تظهر وتفتضح حتى تضافر العالم الاوروبي والأمريكي ، ليفرض على العرب قبول الأمر الواقع .

لم يكن الصراع بين اليهود والعرب عبارة عن حرب تحريرية بين اليهود المناوئين لبريطانيا والمعادين للاستعمار وبين الاقطاعيين العرب ، **كما يحاول اليساريون اليهود تصوير ذلك** . كما أنها لم تكن حربا بين دولتين كالهند وباكستان حول كشمير . ان الحرب الفلسطينية هي في الواقع صراع ضد افتئات امبريالي جديد على أرض شعب رازح تحت الاستعمار . !

(١) براجع كتاب مارتن بوبر : نحو اتحاد في فلسطين ، دراسة عن الصهيونية وعن التعاون العربي — اليهودي . منشورات القدس سنة ١٩٤٧ .

ولقد خذل العرب في حربهم الاولى مع اليهود في ايار ١٩٤٨ نتيجة لعوامل عديدة كان أبرزها الفرقة بين الدول « المتحالفة » وضعف التجربة العسكرية والتبجح. يضاف الى ذلك الحظر الذي فرضته بريطانيا على شحن الاسلحة الى دول المنطقة آنذاك والتي كان أكثرها يعتمد على السلاح البريطاني . في حين تمكن اليهود من الحصول على كميات هامة من الاسلحة التشيكية وتمكنت شبكات الهاغانا في امريكا واوروبا من شراء وارسال أسلحة ومتطوعين بمساعدة السلطات الرسمية في بعض الدول مثـل فرنسا ويوغسلافيا مستفيدة بوجه خاص من الفرصة الـتي أتاحتها لهم الهدنتان الاولى والثانية .

ومهما يكن من أمر فان مجرى الحرب لم يكن لينزع من أفكار العرب اقتناعهم بأنهم تجاه مستعمرة قوية تدعمها مجموعة الدول الاوربية الامريكية وتعتبرها منبثقة عنها وتابعة لها . ولم يكن الوضع داخل دولة إسرائيل بعد ذلك لينفي هذا التحليل فلقد اعتبر اليهود أن الاقلية العربية التي بقيت ضمن حدود دولتهم ماهي الا طابور خامس كامن ، ولذلك فان التدابير التمييزية التي طبقت عليهم كانت نتيجة منطقيـة لهذا الاعتبار .

الخلاصة :

من هذا العرض السريع للاحداث نستخلص الحقائق التالية :

١ ـ لقد جيء الى فلسطين المأهولة بالسكان العرب بسكان آخرين من أصـل اوروبي ، وذلك نتيجة لحركة عقائدية اوروبية وتحت ضغط الجماعة التي كانت تمثلها هذه الحركة .

٢ ـ توصلت هذه الحركة الى مأربها بعمل سياسي بريطاني يتمثل في وعد بلفور الذي جاء انتصار الحلفاء على الامبراطورية العثمانية وموافقتهم على القرار البريطاني ليعطيه قوة القانون الدولي .

٣ ـ كذلك نجحت الحركة الصهيونية بفضل الحماية التي قدمها الانتداب البريطاني اذ أتاح لها تكوين قاعدة كافية ، وبفضل حرب قامت بها مبدئيا ضد بريطانيا نفسها حين أخذت تتحفظ بالنسبة للصهيونية ، ومن ثم ضد السكان العرب أنفسهم واخوانهم الذين جاؤوا يدعمونهم .

٤ — ربح الصهيونيون الحرب بفضل قوة شعور التضامن القومي بين اليشوف (يهود فلسطين الاصليين) ويهود العالم ، وبفضل تفوق هؤلاء في استخدام الوسائل الاوروبية الحديثة سواء في حقل السلاح أم في التنظيم ، وبفضل قوة الضغط التي تملكونها في أمريكا وأوروبا .

٥ — كذلك كان للشعور بالذنب لدى الاوروبيين والاميركيين من جراء ما أصاب اليهود على أيدي الالمان ، اخوانهم في التبعية الاوروبية ، اكبر الأثر في دفعهم الى تبرئة انفسهم والتكفير عن ذنبهم تجاه اليهود ، وذلك دون ثمن كبير وعلى حساب أناس غير اوروبيين .

٦ — اما مشاعر السكان العرب الاصليين ومصالحهم فلم تؤخذ بعين الاعتبار خلال جميع تطورات النزاع ومراحل المساعي الصهيونية .

٧ — وهكذا فان نمو وتقدم الحركة الصهيونية ، ومن ثم نجاحها ، يكمن وضعه ضمن اطار التوسع الاوروبي باتجاه البلدان التي سميت فيما بعد بالعالم الثالث . وان الاهداف الاولية للحركة تحتم بأن تكون نتيجتها هي هذه التي وصلت اليها ، فنطق التاريخ الذي لايقاوم يقضي بأن تظهر النتائج والآثار الحالية وذلك منذ ان تمكنت الحركة من توطيد وتثبيت مقدماتها وطلائعها في الارض الفلسطينية .

٨ — ان انشاء دولة يهودية محضة أو ذات سيطرة يهودية في فلسطين العربية ، القرن العشرين ، لايمكن الا أن يؤدي الى وضع من نوع استعماري ترافقه نزوح عنصرية وبالتالي الى مجابهة عسكرية بين العنصرين او الشعبين . ومن هنا سبب رفض القادة الصهيونيين لكل تسوية سلمية مع العرب لاتضمن لهم السيطرة التامة على فلسطين . ونذكر بهذه المناسبة الجواب الذي أفضت به غولدا ماير حين سألها احد الاعضاء الامريكيين في اللجنة الانكلو امريكية التي قامت بتحقيق في فلسطين عام ١٩٤٦ :

— اذا كان للاقلية اليهودية في فلسطين نفس الامتيازات التي تعدون بها العرب كأقلية ، فهل ترضون بذلك .

— كلا ياسيدي فلابد من وجود مكان في العالم لايكون فيه اليهود أقلية .

بعد هذا لايمكن انكار الانسجام بين هذا النوع من التفكير المركز على حل معين يحتقر حقوق الآخرين وبين المخططات الصهيونية الاصلية . ولايمكن بالتالي الا نستنتج بأن الواجب الادبي كان يقضي على الآخرين بالخضوع ، ومن ثم نستغرب كيف يثير هذا الحل لديهم ردود فعل عنيفة .

قد يحكم المرء على هذا الهدف بأنه نبيل ومقبول ، وقد يعتبر ان الظلم الذي حل

بالعرب امر تافه لايذكر ، وقد يجد الوسائل التي استخدمتها الصهيونية معذورة وربما جديدة وذلك حسب سلم القيم الذي يتبناه كل انسان … ولكن مالايمكن لاي انسان ان ينكره هو الاطار الذي يصنف ضمنه المشروع الصهيوني . ربما حكم الانسان على حركة التوسع الاوروبي حكما مختلفاً .. وقد يكتفي المؤرخ بملاحظة هذه الحركة دون ان يلفظ حكمه بشأنها .. ولكنه اذا ماحا كمها وأدانها واستنكرها ، واذا ماتحمس لردود فعل الشعوب المستعمرة ، فان أدنى واجبات الدقة في التفكير تمنعه من استخدام طريقتين مختلفتين للتقدير والتقويم . واني لأصر على الاعتقاد بأن كون المرء يهودياً لاينبغي ان يلزمه باستخدام وزنين، وكيلين . والا فليكن صريحاً وليعلن بأن ثمة طائفة من البشر هي دائماً على حق في جميع الظروف والأحوال ، وهذه الطائفة هي ، بحسب القيم الصهيونية واللاسامية ، الطائفة اليهودية . ان مثل هذه القناعة المطلقة لدى الانسان في صحة مواقف الطائفة او العشيرة التي ينتمي اليهـــا ، ظاهرة شائعة في تاريخ الفئات البشرية ، وهي تسمى بالعنصرية .

اعتراضات وتحقيقات :

بعد هذا العرض العام نأتي الآن الى الاعتراضات التي يثيرها وأولها ، وأقلها أهمية ، مايسمى بحقوق اليهود التاريخية في أرض فلسطين .

ان آخر دولة يهودية مستقلة فعلا في فلسطين ماتت عام ٦٣ قبل المسيح حـــين استولى الرومان على القدس . وتقلص بعد ذلك التاريخ عـــدد السكان اليهود بنتيجة الهجرة واعتناق المسيحية ثم الاسلام . ومن المرجح ان دم الاجداد العبريين القدامى يجري في عروق سكان فلسطين العرب اكثر بكثير من اليهود المنتشرين في اطراف الدنيا .

وحتى لو سلمنا جدلا بأن كتلة اليهود القدماء تعتبر على مر العصور وحتى هذا التاريخ شخصية جماعية ثابتة ودائمة فليس هنالك أي وجه حقوقي لمنحها على هذا الاساس حقوقاً في أرض تجدد سكانها بشكل كامل ، وان بقيت عناصرهم دون تغيـــير كبير . ولقد سبق لفيصل ، كما سبق لآخرين قبله وبعده ، أن ردوا على هذا المنطق اليهودي قائلين ان العرب يستطيعون على هذا الاساس المطالبة باسبانيا . والواقع أن حجــة الصهيونيين في العودة الى صهيون هي حجة ضعيفة معناها في الواقع أن يجعل كل انسان من اهتماماته الشخصية الصميمية قانوناً يفرضه على الآخرين .. وليس في جميع هذه الحجج

التاريخية ما يمكن ان يجعل من غرس عنصر غريب على حساب سكان الارض الاصليين مجرد عملية عودة الى ارض الوطن ...

اما الطابع الاشتراكي الذي اتسمت به جماعات اليهود الاولين الذين هاجروا الى فلسطين فليس من شأنه ، لامنطقياً ولا اجتماعياً ، أن يشكل حجة تغطي او تنفي الطابع الاستعماري لهذه الجماعات . ولقد كان واضعو نظريات الاشتراكية القومية اليهودية قلما يبالون بالمجتمعات التي سيسيء اليها مشروعهم ويدمرها ... كانوا بكل سذاجة يظنون بأن المجتمع اليهودي المتجدد الذي ينوون اقامته في فلسطين لا يمكن الا ان يخدم ويفيد تلك المجتمعات القائمة اصلا في البلاد .. ان التشابه يبدو بديهياً بين هذا النوع من التفكير وبين عقلية المستعمرين الفرنسيين الذين ذهبوا الى الجزائر والهند الصينية ليخدموا مصلحة الجزائريين والفيتناميين . .

وحتى لو سلمنا جدلاً بأن دولة اسرائيل هي دولة اشتراكية مثالية من جميع النواحي فليس في ذلك ما يسمح مطلقاً بالقول والاستنتاج بأن سياستها الخارجية هي مثالية ايضاً وبأن موقف اكثرية سكانها من بقية الشعوب هو موقف مستوحى من الاممية النقية . . . فليس هناك ما يمنع ارقى المجتمعات الديمقراطية او الاشتراكية داخلياً ان تمارس في الخارج سياسة تنكر وتتجاهل حقوق المجتمعات الاخرى . .

أجل قد نفهم غضب بعض الاشتراكيين الاسرائيليين حين يواجهون بمواقف هرزل الامبريالية والاستعمارية والرأسمالية .. وقد يكون هناك فعلا بين جماهير اليهود اكثرية متأثرة بالعقيدة الاشتراكية ومعارضة لمفاهيم هرزل . . غير ان هذه العقيدة الاشتراكية لم تنجب في اسرائيل سوى عدد ضئيل جداً من القادة لم يكن لهم اي وزن في الحد من الحيف الذي لحق بالعرب .. ومن جهة اخرى فان الحركة الصهيونية تشكل كلا لايتجزأ . وما كان للقادة الصهيونيين ان يتوصلوا الى اهدافهم لولا قاعدتهم الجماهيرية «الاشتراكية» وسياستهم الدولية . فلو ظلت الامبراطورية العثمانية قائمة او لو قامت الدولة العربية الكبرى او الدولة السورية الكبرى او الدولة الفلسطينية المستقلة لما كان لضغط الجماعات الصهيونية اي جدوى بل كان اقصى ما يمكن ان تصل اليه هو توطين بعض المجموعات اليهودية في فلسطين ضمن شروط للتعايش تقبل بها الاكثرية العربية ، الامر الذي يؤدي الى صرف انظار اليهود في العالم عن فلسطين كوطن مختار للهجرة .

وينبغي أن لا يغيب عن الذهن بأن اكثرية اليهود قد اختارت منذ عهد الرومان والفرس أن تبقى خارج فلسطين منتشرة في أنحاء العالم . فعدد يهود نيويورك يفوق منذ

القديم عدد سكان اسرائيل ، كما وأن اكثرية اليهود الذين غادروا الجزائر اختاروا اللجوء الى فرنسا وليس الى اسرائيل ..

ومها يكن من أمر فان الاشتراكيين الاسرائيليين كانوا خاضعين دائماً لسياسة المنظمة الصهيونية وهم الى حد بعيد متضامنون معها . وما تمرد اليهود على الاستعمار البريطاني قبل الاستقلال الا من نوع تمرد المعمرين ضد الوطن الام حين تختلف اهداف الطرفين ، مع فارق رئيسي واحد هو ان هؤلاء المعمرين لا ينتمون الى نفس الشعب الذي يعيش في الوطن الام .. وأما الادعاء بأن هذا التمرد هو الذي أطلق حركة القومية العربية وسعيها للاستقلال فهو مخـالف للواقع والتاريخ لأن ثورات العرب في مصر وسورية وفلسطين تعود الى نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن الحالي وتسبق بكثير قيام يهود فلسطين ببعض الاعمال الارهابية ضد سلطات الانتداب البريطاني .. أجل ان هذه الاعمال أظهرت للعرب ضعف بريطانيا النسبي وشجعتهم ولكنهم لم ينتظروا هذه الاعمال كي يبدأوا ثوراتهم ضد بريطانيا .

ليس في كل هذه الادعاءات اليهودية اذن ما يخفف من الطابع الاستعماري الذي اتسمت به حركة توطين اليهود في فلسطين . واذا كان الصهيونيون يدعون بأنهم اشتروا الاراضي في فلسطين من أصحابها بشكل قانوني ومشروع فان صفة الشرعية هذه لا تعتبر حجة ضد السمة الاستعمارية ليهود فلسطين ولا سيا وأن هذا الشراء لم يجر الا قبل عام ١٩٤٨ . فلقد سبق لبريطانيا ان استعمرت الهند ولم تأت بمعمرين انكليز الى أرض الفلاحين الهنود .. فهل هنالك من يتردد مع ذلك في وصف هذه الحال بغير الاستعمار . ان مصادرة الاراضي بالقوة ليست هي وحدها العنصر الذي يميز الحركة الاستعمارية عن سواها .. فهنالك ظروف وحيل قانونية ذكية يخلقها الاستعمار ويضطر السكان الى التخلي عن اراضيهم بأي ثمن .. وبشكل مشروع في الظاهر ..

وبعـد ذلك كيف يمكن أن ننسى مصادرة الاراضي العربية بعد ١٩٤٨ حين قفزت مساحة الاراضي المزروعة من قبل اليهود من ٩٢٨ كيلومتراً مربعاً في ١٩٤١ - ١٩٤٣ الى ٣٢٤٠ كيلو متراً مربعاً في ١٩٦١ - ١٩٦٢ ، أي أن العرب فقدوا ٤٠ الى ٥٠ بالمئة من أراضيهم منذ الحرب . (١)

---

(١) راجع بصدد المصادرات البحث الموضوعي النزيـه الذي نشره السيد شوارتز بعنوان « العرب في اسرائيل » - بالانكليزية - صفحة ٩٦ ... وفي كتاب « اسرائيل والعرب الفلسطينيين » - انكليزي - منشورات معهد الشرق الاوسط =

ويدعي اليهود -في معرض نفيهم للصفة الاستعمارية لاستيلائهم على الارض العربية في فلسطين- بأنهم لايستثمرون الفلاحين العرب بشكل مباشر كما كان المعمرون الفرنسيون يستثمرون الفلاح الجزائري . .

ولكن الاستثمار المباشر للسكان الاصليين ليس هو الصفة الضرورية للاستعمار . فلم يكن المعمرون الانكليز في الولايات المتحدة ليستخدموا الهنود الحمر إلا في حالات نادرة جداً .. كذلك كان الأمر في الهند وفي استراليا ونيوزيلاندة .. فهل يعني ذلك ان التوسع البريطاني في الهند وغيرها لم يكن استعمارياً .

ان العلاقات بين الاسرائيليين والعرب لم تكن علاقات استثمار بقدر ما كانت علاقات هيمنة واحتلال . واذا ما شئنا الوقوف عند الوقائع الثابتة التي لانزاع في صحتها نذكر مبدئياً فرار العرب من الاراضي الاسرائيلية الذي أدى الى تقليص عددهم من الثلثين الى عشر السكان . ان السبب الرئيسي في ذلك هو بلا شك رغبة المستوطنين اليهود الجدد -الذين تسللوا تدريجياً إلى فلسطين منذ ستين عاماً- في أن يصبحوا العنصر الغالب والمهيمن في دولة قومية يهودية (١) . وهي رغبة نسلم بانها تنحصر في السيطرة على الاراضي

= بواشنطن ١٩٥٨ - تراجع كذلك الوثائق والاحتجاجات المنشورة في مجلة Mer التي تصدر في اسرائيل وخاصة منها الاحتجاج الذي وجهه مارتن بوبر رئيس اللجنة القانونية في الكنيست ضد « قانون اقتناء الاراضي » الذي يسمح في الواقع بسرقة اراضي الآخرين من سكان الدولة المواطنين العرب . والامثلة التي نشرتها المجلة المذكورة في الجزء ١٠ في آذار ونيسان ١٩٦١ عن مصادرة اراضي العرب في الجليل وتقديره بأثمان بخسة وعدم دفع هذه الاثمان ، كل ذلك لأن سكان المستعمرات اليهودية يرغبون بتوسيع املاكهم .

من ذلك يتبين كيف ان نظام الحياة الجماعية (لاشتراكية) لايمنع مطلقاً الرغبة الجماعية في الاستيلاء على اموال الآخرين .

(١) - يراجع كتاب ميشيل بار-زوهار اليهودي وعنوانه (بن غوريون) صفحة ١٥٣ حيث يقول : « كثيرون من اليهود كانوا يتمنون منطقياً كما يتمنى قائدهم الاعلى بن غوريون ان يغادر فلسطين اكبر عدد ممكن من العرب . قد نتهم بن غوريون بالعنصرية ولكننا في هذه الحال لابد ان ندين على الحركة الصهيونية المبنية على مبدأ قيام وحدة يهودية محضة في فلسطين . اما النداءات التي وجهتها بعض المؤسسات الصهيونية للعرب تناشدهم البقاء والاندماج بالدولة اليهودية فقد كانت نداءات منافقة » .

أكثر من السكان .. ولكن بما أن إسرائيل لاتستطيع الادعاء بأن هذه الأراضي قد أعطيت اليها بمحض مشيئة العرب ورضاهم ، فالمعنى الوحيد للعملية اذن هو انها بذلت مجهوداً كي تفرض ارادتها على الآخرين . (١)

أما عن وضع العرب الذين بقوا في اسرائيل فلعل افضل شهادة في هذا الموضوع ما كتبه الصهيوني والترشوارز (٢) وبالرغم من بعض التدابير المخففة التي اتخذت فان من الواضح أن الاكثرية اليهودية تفرض ارادتها على الاقلية العربية وأن هذه الاخيرة تتعاطف مع العرب في مصر والاردن لا مع الاكثرية التي تحكمها . وهذه نتيجة طبيعية لأن عرب اسرائيل ،شأنهم شأن العرب الفلسطينيين الذين تركوا البلاد ، هم في وضع لم يختاروه ويقبلوه وإنما فرضه عليهم اليهود بالقوة . وأيا كانت المبررات التي قدمها بعضهم لهذا العمل فليس في مقدور احد أن ينكر هذا الواقع .

اما ما يقوله العرب من أن اسرائيل تساهم مع النظام الامبريالي العالمي في استثمار العالم الثالث اقتصاديا فهذا موضوع يحتاج الى دراسة مطولة . على انه يبدو واضحا وبديهياً ، بصورة عامة ، ان تفوق اسرائيل التقني يمنحها إمكانيات الضغط الاقتصادي على الاقتصاديات المتخلفة . غير أن ضيق رقعتها وصعوباتها مع جيرانها وتبعيتها الاقتصادية للدول الرأسمالية الاوروبية الامريكية كذلك يحد من تلك الامكانيات. ولعل الاختيار السياسي لاسرائيل هو الذي جعلها تظهر كحليف للدول الامبريالية . ويمكن القول ان هذا الاختيار السياسي قد أملته ظروف انشاء الدولة وظهورها الى الوجود ، وهو ايضاً نتيجة حتمية للاختيار الصهيوني الاصلي . فمن الثابت اذن – وبصورة عامة – أن اسرائيل تظهر كما أرادها هيرزل كرأس جسر للعالم الرأسمالي الصناعي وسط عالم متخلف .

---

(١) يراجع بصدد هجرة العرب من فلسطين ، مقالات الاستاذة غواشون في مجلة الفرنسية اعداد تموز وآب وايلول ١٩٦٤ والتي يبدو من خلالها ان التفسير الرئيسي لفرار العرب الجماعي من فلسطين هو الذعر الناتج عن مذبحة دير ياسين التي قتل فيها ٢٥٤ رجل وامرأة وطفل ليلة ١٠ نيسان ١٩٤٨ . ويتبجح رئيس عصابة الأورغون مناحيم بيجن ، الذي ينكر هذا الحادث ، يتبجح اعماله اذ يقول في كتابه « ثورة اسرائيل » منشورات باريس ١٩٥٣ صفحة ١٦٠ : « كانت القوات اليهودية تتقدم في حيفا كالسكين في الزبدة وكان العرب يهربون في ذعر وهم يصيحون : دير ياسين »

(٢) يراجع كتاب والتر شوارز « العرب في اسرائيل » انكليزي – لندن منشورات فابر ١٩٥٩ .

الخاتمة :

أعتقد بأني برهنت في ما تقدم أن اقامة دولة اسرائيل على الأرض الفلسطينية انما هي نتيجة لعملية تدخل تماماً ضمن اطار حركة التوسع الاوروبية - الامريكية الكبرى في القرنين التاسع عشر والعشرين الرامية الى الاستيطان في أراضي الشعوب الاخرى أو السيطرة عليها اقتصاديا وسياسياً . واذا كنت قد احتجت الى الكثير من الكلام لاثبات هذا التشخيص الواضح فلأن هناك جهوداً كبيرة - يائسة - قد بذلت لاخفاء هذه الحقيقة. ان ما ذكرته هو وقائع .. واما بشأن اختيار العبارة الدقيقة فيبدو لي أن كلمة « عملية استعمارية » هي التعبير الملائم المنطبق على هذه الوقائع .

ومن البديهي أن هـذه العملية الاستعمارية كما لغيرها سمات خاصة . فلقد جيء بالمعمرين دون ان يكونوا تابعين لوطن أصلي كما هو الحال بالمعمرين الانكليز في الهند .. وطرد السكان الاصليون من اراضيهم وبقي قسم منهم خاضعاً من الناحية السياسية لسيطرة المعمرين .

ان التعريف يهدف عادة الى تبرير السمات والهويات بعبارات أكثر وضوحاً ، وذلك حسب الأغراض المرجو تحقيقها والوصول اليها .. فقد يمكن أن نجد تعريفاً للاستعمار لا ينطبق على الحالة الخاصة لاسرائيل . واذا ما رجعنا الى التعاريف التي ذكرتها موسوعة لاروس الكبرى وجدنا ان التعريف الاول لكلمة « مستعمرة » هو : « أرض محتلة ومدارة من قبل دولة خارج حدودها ومرتبطة بهذه الدولة بروابط وثيقة » وان هذا التعريف لا ينطبق على اسرائيل .

وأما التعريف الثاني : « تجمع أشخاص غادروا بلادهم ليستوطنوا في بلاد أخرى» فهو ينطبق تماماً على اسرائيل ؛ كذلك فان كلمة « ييشوف » العبرية مترجمة من القاموس العبري - الفرنسي لمؤلفه « المالح » «بأنها البلد المسكون ، المستعمرة ، المقاطعة المسكونة، السكان ، الاستعمار ».

ولقد استعرض أحد علماء الاجتماع جميع هذه التعاريف فخلص الى النتيجة الآتية : « يمكن القول ان هناك استعماراً حيث يوجد احتلال وسيطرة ، وحيث يوجد هجرة وتشريع » . ولقد هاجر اليهود ، بتحفيز الحركة الصهيونية ، الى فلسطين ثم سيطروا عليها ، ثم احتلوها فعلا وأخذوا يشرعون ليبرروا هذا الاحتلال حقوقيا ... وهكذا نجد

في هذه الوقائع جميع عناصر التعريف الذي انتهى اليه هذا العالم الاجتماعي .(١)

ترى ماهي النتائج التي ينبغي استخلاصها من هذا التشخيص لحقيقة الوجود الاسرائيلي ؟ هل نبشر بالحرب المقدسة ضد الدخلاء ونطالب بقذفهم في البحر باسم الضمير العالمي الذي جاء مؤخرا - ومؤخرا جدا - يدين الاستعمار ؟ هل ننتقد هؤلاء الدخلاء ونصفهم للعالم أجمع بأنهم مجرمون ؟

اني أسمح لنفسي بابداء رأيي . أن على العرب ، الذين لحق بهم الحيف ، أن يحددوا سياستهم تجاه اسرائيل . ولا يبدو لي أن دور الآخرين هو أن يدفعوا العرب نحو الحلول العسكرية . واني لأعلن بأني أفضل شخصيـــاً ، وضمن حدود الامكان ، الحلول غير الدموية ولا أجد لنفسي أي حق في أن أبشر ، وأنا في برجي العاجي ، بالانتقام والقتل .

اني مناهض للاستعمار ومناهض للعنصرية .ولكني لابد أن أفسر وجود هذه الظواهر بعوامل اجتماعية وسيكولوجية شائعة جدا ليس في مقدور أحد أن يبرىء نفسه من التورط فيها . إن الزمن الذي ينقضي على الاغتصاب هو وحده الذي يتغير طولا أوقصرا . فالضمير الانساني ينتهي عاجلا أو آجلا بقبول مبدأ « التقادم » والتاريخ حافل بحالات الامر الواقع .

وانا حين نعي هذه السمة الاستعمارية لدولة اسرائيل ندرك وتتفهم سبب ضغط الاحداث على اسرائيل ودفعها نحو معسكر الدول الغربية ، وتتفهم بالتالي ردود الفعل العربية . أما الذين يصنفون جميع الحركات والانظمة العربية بأنها فاشية فهؤلاء ينشرون مفهوماً سيئاً وخاطئاً جداً للمشكلة . كذلك الامر بالنسبة لاولئك الذين يفسرون المشكلة بأنها مجرد حقد عنصري عند العرب ضد اليهود انما يضلون الحقيقة ويضللون الآخرين . فاذا كان هنالك من حقد يفوق الحدود ، واذا كان هنـــالك بين الحكام والعقائديين من يبني

(١) يراجع كتاب ريفيـــه مونييه (علم الاجتماع الاستعمار) باريس عام ١٩٣٢ منشورات(دوما مون كريستيان - باريس)صفحة ٣٧ . ويلاحظ بصورة عامة أن الصهيونيين كثيراً ما استخدموا عبارات « استعماري » و « مستعمرات » دون أي حرج أو خجل ، وذلك في عناوين مؤسساتهم وفي نصوصهم الرسمية وغير الرسمية أثناء تحديدهم لأهدافهم ومشاريعهم .

الأساطير لتعبئة الجماهير من اجل القضية الفلسطينية فلا شك بأن القادة الصهيونيين هم المسؤولون عن هذا المعطى الموضوعي الذي هو استعمار ارض اجنبية .

لذلك فان إدانة ثورة العرب ضد وضع استعماري أمر قد نقبل به اذا صدر عن أنصار مذهب اللاعنف . وأمـــا المعادون للاستعمار فان الحد الادنى من الانسجام في التفكير يمنعهم من ادانة العرب . اقصى مايستطيعون قوله هو أن هذه الثورة غير ملائمة في الوقت الحاضر .

يستنتج من ذلك ان الاعتقاد على ظهور نظام اجتماعي جديد في البلاد العربية يقبل بوجود اسرائيل انما هو وهم خطير . اننا نقول ذلك بكل صراحة وان استنكر هذه الحقيقة غطيو اليسار الذين يعتقدون بأن الثورة الاجتماعية كفيلة بحل كل المشاكل . ليس هناك « حل ثوري » للمشكلة العربية — الاسرائيلية. فخلق دولة اسرائيل كان تحديا موجها للعرب كشعب وليس هناك اي نظام يستطيع أن يرضى به بملء اختياره . وقد تؤدي الظروف السياسية الدولية او الداخلية الى الاعتراف يوما باسرائيل ولكن ذلك لايمكن ان يتم على اساس ايديولوجية تسلم بشرعية الاستعمار الاسرائيلي . ولقد ثبت ان الأنظمة الاشتراكية في العالم العربي هي الاكثر تشددا وتطرفا في مطالبها ، وأي اعتقاد مخالف لهذه الحقيقة انما هو دليل على الجهل التام للاوضاع المحلية .

وبعد فقد تكون الحرب هي المخرج الوحيد لهذا الوضع الذي خلقته الصهيونية . ولست من الذين يبتهجون لذلك . ولكن اذا كانت هنالك أي فرصة للوصول الى حل سلمي ، فهذا الحل لايمكن ان يتحقق بأن نطلب الى العرب أن يصفقوا للمحتلين لأنهم اوروبيون ولأنهم « متطورون » أو لأنهم ثوريون او اشتراكيون أو يهود ...



الأسلحة الاقتصادية العربية

والعدوان الصهيوني (١)

د. هشام متولي

في الخامس من حزيران (يونيو) عام ١٩٦٧ اندلعت الحرب للمرة الثالثة بين العرب والسلطات المحتلة لأرض فلسطين العربية وذلك خلال فترة تسعة عشر عاما. وكان لابد لهذه الحرب ان تندلع لأن السلاح الرادع الرئيسي الذي تملكه سلطات الاحتلال المذكورة هو الاعتداء من اجل أن تثبت وجودها الدولي. وما كان لهذا الوجود أن يثبت دوليا لولا كونه متبنى مقدما من قبل بعض الدول الكبرى كالولايات المتحدة الأمريكية بالدرجة الأولى،

---

(١) الغاية من هذا المقال مناقشة مختلف وجهات النظر بشأن استخدام الأسلحة الاقتصادية العربية بمناسبة ازمة الشرق الأوسط ، لذا كان لابد من تحوله على مجموعة من الافتراضات . هذا ، ولابد لي من شكر زميلي الدكتور محمد الأطرش للملاحظات التي ابداها لي لدى كتابة هذا المقال .

ثم من بريطانيا والمانيا الغربية ودول أخرى منضمة تحت لواء المعسكر الغربي .

فالنزاع الدائر بين العرب والسلطات الصهيونية (١) المحتلة في الشرق الأوسط يتجاوز في الحقيقة الطرفين المتخاصمين بكامل امكانياتها ليحتل مكانه على الصعيد الدولي . ومن هنا كانت الفكرة التي سنحاول تحديد بعض ملامحها فيما يلي من كلام ، والتي تتلخص بأن الحرب بين العرب والسلطات الصهيونية المحتلة انما هي بجزء كبير منها حرب بين العرب والقوى التي تتحرك وتساند الاحتلال أو الاستعمار الصهيوني .

فما هي الأسلحة الرادعة التي تملكها البلدان العربية ككل تجاه السلطات المحتلة والقوى العالمية التي تساندها ؟ بالاضافة الى القوات المسلحة النظامية وتلك الخاصة بحزب التحرير الشعبية ، هناك الأسلحة السياسية والاقتصادية . سنقصر حديثنا التالي ، وبشكل عام ، حول هذا السلاح الأخير .

ولكي يكون هذا السلاح رادعا ، نعتقد انه يجب أن يقوم على أساسين في وقت واحد :

١ — أن يتميز **بالشمول الجغرافي** ، أي أن يشمل كافة البلدان العربية .

٢ — أن يتميز بشموله **لكافة عناصر** هذا السلاح التي هي :

آ — سلاح المقاطعة الاقتصادية التامة لاسرائيل .

ب — سلاح النفط ، سواء من حيث الانتاج والتصدير أو من حيث اتفاقات الاستثمار .

جـ — سلاح الأرصدة النقدية المودعة لدى مصارف الدول التي ساهمت في العدوان بشكل مباشر أو غير مباشر .

---

(١) ان صراعنا هو مع الصهيونية كظاهرة استعمارية عالمية حديثة ، وليس مع اليهودية التي تضم الدين اليهودي والأفراد اليهود . وليس هناك مجال تفصيل هذا الكلام .

د ــ سلاح المقاطعة الاقتصادية أو حظر التعامل مع الدول المذكورة .

سنتعرض فيما يلي من حديث الى النقاط : (ب ، جـ ، د) فقط على اعتبار ان السلاح الأول لايدخل ضمن نطاق بحثنا هنا فضلا عن أنه مطبق عمليا . وقبل ذلك نود الاشارة الى الملاحظات التالية :

أولا ــ اذا اردنا لهذه الاسلحة أن تكون رادعة فعلا ، فلا بدّ من استعمالها جميعها وفي وقت واحد ، وذلك مـع مراعاة عامل الشمول الجغرافي المذكور .

ثانيا ــ اذا لم يتحقق الشرط الاول هــــذا بكليته ، فان درجة أهميتها كسلاح رادع ستخف .

ثالثاً ــ يجب ألا يغرب عن بالنا بأي شكل من الأشكال :

آ ــ ان هذا السلاح الاقتصادي ذو حدين، بمعنى ان استعماله يؤثر ايضاً، وبدرجات هامة أحياناً ، على اقتصاديات الدول العربية التي لابد لها من ان تحسب حسابها للتضحية والتقشف .

ب ــ يجب ألا يذهب بنا الخيال الى أننا سندمر الاقتصاد الغربي ، أو اقتصاد الدول التي ساهمت بشكل أو بآخر بالعدوان ، وذلك لأسباب متعددة أهمها بنظرنا وجود مايسمونه في علم الاقتصاد بعامل الاستبدال أو الاستعاضة . فقطع النفط العربي لايوقف المصانع نظرا لانه من الممكن جلبه من الولايات المتحدة ذاتها ومن فنزويلا وايران ومناطق أخرى . ولكن سعر الكلفة سيكون أكبر في هــــذه الحالة ، وهذه هي النقطة التي نستطيع ان نستخدمها كسلاح رادع نؤثر عن طريقه ، لأن آثاره ستنعكس على الاقتصاد ككل . كذلك هو الأمر بالنسبة لسلاح الأرصدة مثلا الذي لايمكن استخدامه اكثر من كونه اداة ضغط ومساومة .

الطابع الدولي للصراع العربي — الاسرائيلي :

اتخذت البلدان العربية عقب عدوان الخامس من حزيران مجموعة من التدابير النفطية الرادعة ، تدابير من شأنها ، اذا مارافقها عامل الاستمرار ، أن تغير من الوجه الجغرافي والاقتصادي لصناعة النفط في المنطقة العربية بكاملها . فقد أوقفت البلدان المنتجة للنفط ، العراق ، الكويت ، العربية السعودية ، أبوظبي ، قطر ، ليبيا ، الجزائر ، تصدير هذه المادة الى كل من الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا لمساندتها العدوان ، وسمحت بتصديره للبلدان التي لم تساند العدوان ووقفت على الحياد كفرنسا ، شريطة ألا تعيد بلدان الحياد هذه تصدير النفط العربي الى بلد ساند العدوان بنظر العرب . وبالاضافة الى البلدان المنتجة للنفط ، فان بلدان العبور (الترانزيت) أوقفت بدورها مرور النفط : القطر المصري (قناة السويس) ، سورية ولبنان (أنابيب النفط) .

قد يعترض معترض ويقول : اذن الحرب هي بين العرب وقوات الاحتلال الصهيوني في فلسطين فلماذا نقيم الدنيا ونقعدها ونجعل من حربنا الصغيرة المحدودة أرضيا حربا مع معظم دول العالم وأكثرها قوة ونفوذاً ؟ ان الجواب على هذا التساؤل يكمن في منطق الأمور في الواقع . ذلك انه اذا ما نظرنا الى الأمور نظرة استراتيجية شاملة ، أي وضعنا مشكلة الحرب المذكورة ضمن اطارها العالمي ثم المحلي ، لاحظنا أن للمطامع الاستعمارية الغربية (وخاصة الانغلو — ساكسونية) ركيزتين متماثلتين من بعض الأوجه في الشرق الأوسط والعالم العربي ، وهما النفط واسرائيل . ان العلاقة بين هاتين الركيزتين علاقة سببية ، كل منها رأس حربة استعمارية لحماية الأخرى . فاحداث « دولة » اسرائيل عام ١٩٤٨ في فلسطين العربية لم يكن الا تتويجاً للحركة الصهيونية

العالمية التي هي مرآة تعكس بجلاء ووضوح المصالح الاستعمارية للغرب في هذه المنطقة من العالم . كذلك فان استثمار النفط العربي من قبل الشركات الاحتكارية الكبرى ليس الا مظهرا جديا من المظاهر الاستعمارية المعروفة . ولكن هذا الاستعمار النفطي ، على قوته وقدرته ، معرض أحياناً - إن لم نقل دوماً - للهجمات التحررية على الشركات المستغلة ومن ورائها حكوماتها . فلا بد اذن من قاعدة قادرة على الحركة والتوسع لحماية المصالح النفطية ومصالح أخرى . وخلق الاستعمار الغربي اسرائيل ، خلقها ليستخدمها في الوقت المناسب لحماية مصالحه . في عام ١٩٥٦ مثلا خلال العدوان الثلاثي على مصر بسبب تأميم قناة السويس وخلال عام ١٩٦٦ - ١٩٦٧ أيضاً عندما تجاوزت الأنظمة الاجتماعية التقدمية مرحلة النقد للأوضاع الاستغلالية لشركات النفط الاحتكارية العالمية الى مرحلة الفعل والعمل : فكان تأميم الثروات النفطية في الجمهورية العربية السورية ، وكان النزاع مع الشركة العالمية الكبرى (الآي . بي . سي .) ثم بدء النزاع مع الشركة الاحتكارية الكبرى التابلاين . كذلك اتجهت أكثر البلدان مثـــل (الجمهورية العربية المتحدة) الى تبني عقود المشاركة في الاستثمار النفطي التي وان لم تكن كبيرة الخطورة بحد ذاتها ، الا أن آثارها على المنطقة مفعمة بالخطر . وذلك بالاضافة الى أمور أخرى طرحتها أنظمة الحكم المذكورة لامجال للتعرض لها هنا .

هناك اذن علاقة سببية : طردية ومستمرة ، بين المصالح الاستعمارية المهددة والوجود الاسرائيلي الممكن للاستخدام حين الضرورة تحت ستار : حماية أمن وحدود « دولة » اسرائيل .

قصدنا من هذا الكلام هنا التدليل على أن النزاع بين العرب والصهيونية

المحتلة ليس نزاعاً بين طرفين متخاصمين فقط ، بــل هو بالدرجة الأولى مجابهة المصالح العربية الحيوية مع المصالح الغربية ذات النزعة الاستعمارية — بالمفهوم الحديث للكلمة — والتي هي حيوية لهذا الغرب أيضاً من أوجه متعددة . فلا بد اذن من استخدام هذه المصالح الحيوية للغرب من قبل العرب كأداة ضغط ومساومة .

فمن وراء الصراع الظاهري المحلي ، هناك اذن الصراع الحقيقي والفعلي الذي يربط الوجود الاسرائيلي من جهة ، ووجود شركات النفط الاحتكارية الكبرى ، من جهة ثانية ، بالمصالح الغربية النفطية وغير النفطية في المنطقة . هناك اذن أكثر من مجـــال لربط المشكلة الفلسطينية بالقضية النفطيـة ، ولربطها معاً ربطاً وثيقاً بالدول المرتبطة مصالحها في المنطقة بهذين العاملين وبعوامل أخرى .

لهذه الأسباب ، ولأسباب أخرى لامجال لذكرها هنا ، يكمن المبرر في استعمال الأسلحة الاقتصادية العربية كأسلحة رادعة أو كأداة ضغط ومساومة على الصعيد الدولي .

أولا — سلاح النفط :

آ — لنعــد الآن الى موضوع حظر تصدير النفط العربي الى الدولتين اللتين ساندتا اسرائيل في العدوان وهما : الولايات المتحدة الامريكية وبريطانيا . ان هذا الحظر يؤثر على الدولتين المذكورتين بدرجات شديدة التفاوت . فالولايات المتحدة لا تتأثر كثيراً بالمقاطعة النفطية لأن وارداتها من النفط العربي لم تمثل عام ١٩٦٦ اكثر من ١٦ مليون طن ، اي (١٢٪) من وارداتهـا ، وهذه الكمية

تغطي فقط ما يقرب من (٣ ٪) من الاستهلاك المحلي في الولايات المتحدة من المحروقات . أما الباقي فتؤمنه من انتاجها وما تستورده من بقية انحاء العالم . وهنا تكمن الفكرة الجديرة بالانتباه والتي أشرنا اليها : وهي امكانية الاستعاضة التي تضعف من عامل المساومة التي نبغي ممارستها من وراء حظر تصدير النفط الى هذا البلد . ولكن عملية الاستعاضة هذه ستزيد من سعر الكلفة لأن تكلفة استخراج النفط من البلدان العربية اقل مما هي عليه في بقية بلدان العالم . واذا زاد سعر الكلفة نقصت ارباح الشركات الكبرى ذات التأثير الكبير على سياسة بلادهـــا الخارجية . ومن هـذه الناحية يمكن القول ان استعمال سلاح النفط على الشكل المذكور يؤثر لمصلحتنا في مجال المساومة والضغط . ولكن هذا التأثير مرتبط الى حد بعيد بمدى صمود هذه الشركات النفطية الاحتكارية الكبرى ومدى تقبلهـا للخسارة [١]. على ان هناك ناحية اخرى لتأثير قطـع النفط العربي على الولايات المتحدة تتعلق بحرب الفيتنام . فالحرب الآلية بدرجة عالية جداً هناك انما تتغذى بجزء كبير منها بنفط الشرق الاوسط . أما بريطانيا فانها تتأثر بدرجة اكبر بكثير من جراء عملية حظر تصدير النفط العربي اليها اذ انها تستورد حوالي ثلاثة ارباع احتياجاتها النفطية من البلدان العربية . ففي عام ١٩٦٦ ، بلغت وارداتها النفطية (٧١،٥٪) من اصل مجموع مستورداتها النفطية ، اي (٥٠،٣) مليون طن من اصل (٧٠،٤) مليون طن . فدرجة الصمود البريطاني تجاه عملية حظر تصدير النفط العربي اليها ضعيفة جداً اذن . وهي اذا حاولت استبدال النفط العربي بنفط بلدان اخرى فسيكلفها ذلك اكثر ، الامر الذي يزيد من اعباء ميزان مدفوعاتها

(١) حقاً انه من الممكن لهذه الشركات الا تخسر إذا ما حلت الخسارة بالمستهلك في الغرب . ولكن الا يمكن لهذا المستهلك ان يجابه ذلك بضغط من طرفه على الحكومات وبالتالي على الشركات ؟

ويؤثر بالتالي على اقتصادها ككل . ولكن بالمقابل ، يجب ألا ننسى امراً هاماً في هذا المجال ، امراً يجعل الوضع مختلفاً عما كان عليه عام ١٩٥٦ لدى ازمة قناة السويس . ففي ذلك الوقت تأثرت بريطانيا كثيراً من جراء انقطاع النفط عبر القناة والانابيب المارة بسورية ، وبدأ ينعكس التأثير على الليرة الاسترلينية آنذاك . وكان السبب الرئيسي لهذا التأثر هو امتناع الولايات المتحدة عن تموين انكلترا وفرنسا بالنفط نظراً لعدم وقوفها الى جانب العدوان الثلاثي . ولكن الأمر مختلف عام ١٩٦٧ بسبب كون الولايات المتحدة تساند العدوان ،وبالتالي فانها ستسهل عملية تموين حليفتها بريطانيا بما تحتاج اليه . وهذا امر من شأنه طبعاً أن يقلل من درجة تأثير حظر تصدير النفط العربي الى انكلترا .

من الأرقام المتقدمة الذكر يمكن ان نستخلص أن مجموع كمية النفط العربي التي يمكن حظر تصديرها الى الولايات المتحدة وبريطانيا معاً وعلى أساس انتاج عام ١٩٦٦ هي ٦٦،٣ مليون طن . ويمكن للبلدين المذكورين اتباع طريقين لشل عملية الحظر هذه :

١ — استخدام عامل الاستبدال او الاستعاضة المذكور وزيادة كمية النفط المستورد من أماكن انتاجية اخرى كايران وفنزويلا ونيجريا والولايات المتحدة نفسها .

٢ — انه من الصعب جداً فرض رقابة دقيقة على الشركات التي يسمح لها باستيراد النفط العربي والتي يمكنها ، بشكل او بآخر ، ايصاله الى البلدين المذكورين ، خاصة وان هذه الشركات هي نفسها المسيطرة على النفط العربي وهي التي ستنتج الكميات التي ستصدر الى بلدان غير بلدان مصادر رؤوس أموالها : اي الولايات المتحدة وبريطانيا .

لذلك يجب ألا يظن بأننا نقتنع ان مجرد حظر تصدير النفط العربي الى البلدين المذكورين يشكل بحدذاته ولوحده قوة سياسية رادعة او قادرة على فرض حلول نتيجة للمساومة . وزيادة سعر التكلفة الذي أشرنا اليه يمكن أن يلعب دوراً ولكن يجب الا نبالغ في اهمية هذا الدور لوحده .

ويحتل اغلاق قناة السويس مركزاً مرموقاً بخصوص زيادة سعر التكلفة بالنسبة للنفط الايراني وكميات النفط العربي التي لايجري تصديرها عبر انابيب النفط المارة بسورية ولبنان . اذ لابد لهذه الكميات من النفط من ان تأخذ رأس الرجاء الصالح وتدور حول افريقيا لتبلغ اوروبا . وفي هذه الحالة فان زيادة سعر التكلفة سيؤثر حتى ولو تمكنت بعض الشركات من تحويل النفط العربي المصدر من البلدان التي لم تساند العدوان الى البلدان التي ساندته . ولاعطاء فكرة عن اهمية دور قناة السويس ، فان كميات النفط التي عبرتها عام ١٩٦٦ بلغت /١٤٧/ مليون طن من اصل مجموع بلغ / ٢٣٧ / مليون طن ، جرى تصدير الفارق البالغ / ٩٩/ مليون طن عن طريق انابيب النفط المارة عبر سورية ولبنان . -

ولكن هذا الحظر لايمكن له ان يؤتي ثماره كما ذكرنا ان ظل مقتصراً على البلدين اللذين ساندا العدوان . ومالم يكن هناك حظر شامل على انتاج النفط العربي وتصديره لأي جهة كانت ،فان سلاح النفط يكون سلاحاً مشلولا .

وبهذا المعنى يجب أن نلاحظ ، حرصاً منا على عرض الآراء ومايمكن أن يرد عليها من اعتراضات ، أن المقاطعة الشاملة التي نقترحها بشأن النفط لاتخلو من بعض النقد :

١ ــ اذا نظرنا الى الموضوع من الناحية المالية فان البلاد العربية المنتجة للنفط ستخسر مالايقل عن ٧٥٪ ، ان لم نقل اكثر ، من عائداتها النفطية . ترى

هل تستطيع تعويض المبلغ او جزء منه على الأقل لدى العودة الى الضخ وفرض زيادة في الكميات المستخرجة ؟

٢ — ان الحظر الشامل سيشمل بلدانا وقفت على الحياد كفرنسا . فهل من المصلحة قطع النفط عنها ، خاصة وأن من الممكن استخدام هذه المقاطعة كسلاح لمحاربة سياسة الجنرال ديغول ؟

وهل من الممكن ان نجد حلا للموضوع هنا بأن البلدان التي صوتت في الأمم المتحدة الى جانب المشروع اليوغوسلافي تعفى من المقاطعة الشاملة هذه؟

٣ — ان الطرف الذي يتأثر فعلا من جراء الحظر الشامل لتصدير النفط هو اوروبا الغربية . أما الولايات المتحدة فنسبة تأثرها ضئيلة جداً . وهنا يطرح التساؤل التالي : هل من مصلحة السياسة العربية ان يزداد اعتاد اقتصاد اوروبا الغربية في حال وقف الضخ — على اقتصاد الولايات المتحدة الذي سيزداد نشاطه حكما ، وبالتالي يزداد النفوذ السياسي للولايات المتحدة على بلدان اوروبا الغربية؟

٤ — نظراً لكون قضيتنا هي بالدرجة الأولى البحث عن مصالحنا ، ألا يكون السماح بتصدير النفط كالعادة بدلا من الحظر الشامل هو في مصلحتنا ، وذلك شريطة أخذ الأمور التالية بعين الاعتبار :

آ — زيادة الضرائب على شركات النفط العاملة في البلدان العربية (مع استثناء حصص الدول غير المنحازة كفرنسا) ، وتوجيه حصيلة هذه الزيادة نحو تمويل المجهود الحربي بمعناه الواسع .

ب — اقتطاع نسبة معينة وهامة من عائدات النفط التي تقبضها البلدان العربية المنتجة للنفط مقابل مايصدر الى البلدان التي ساندت العدوان ، واضافة

هــــذه النسبة الى الحصيلة المذكورة في (آ) وتخصيصها أيضاً للمجهود الحربي بمعناه الواسع .

* * *

والحظر الشامل هذا عبارة عن سلاح ذي حدين . ويتعلق الأمر كله في في وضع كهذا بدرجة الصمود . ودرجة الصمود هذه انما ترتكز بالدرجة الاولى على مقدار مايملكه كل طرف من مال . ومن يملك مالا اكثر تكون درجة صموده اكبر ، وفترة انتظاره اطول . ورغم ان هذا التحليل المجرد هو لمصلحة شركات النفط التي هي أقوى مادياً بدون شك ، الا أن هذه الشركات لاتستطيع الانتظار لفترة طويلة ، والا دخل خلل على سير عمليات استهلاك النفط للمعامل وللاستهلاك العادي ، وعلى اسعار هذا النفط ، الأمر الذي تكون له انعكاساته على بقية فروع الانتاج والاستهلاك . هذا بالاضافة الى ان ارباح الشركات ستتقلص ، واحتياطها النقدي سيتأثر . وبالمقابل فان البلدان العربية المنتجة للنفط قادرة على الصمود اذا اعتمدت التضحية والتقشف كأساس . ذلك أنها تملك ارصدة نقدية قادرة على تسيير الحياة فيها خلال الأمد القصير ،[1] ولن يتأثر اقتصادها القومي بدرجة هامة (عدا العراق نتيجة لوقف الضخ الا من حيث توقف العائدات التي يمكن تعويضها جزئياً كما سنفصل ذلك لدى بحث أمر اتفاقات النفط . ولكن

---

(١) تجدر الملاحظة – التي تدعم الرأي المذكور – بأن طراز المعيشة في هذه البلدان العربية ليس متطوراً بتنوعه كطراز المعيشة في الغرب الأوروبي او في الولايات المتحدة حيث يكون لظاهرة التقشف – على افتراض وجودها – انعكاسات اقتصادية بالغة التأثير على الانتاج القومي ، وحيث يصعب على معظم السكان الضغط على مستوى معيشتهم في حين يمكن لغالبية سكان البلدان العربية الضغط بشيء من الشدة على مستوى المعيشة ، وخاصة في البلدان المنتجة للنفط .

الاقتصاد الغربي بكامله سيتعرض الى الخلل والاضطراب النسبي اذا ماتوقف الضخ توقفاً تاما . فسلاح الحظر الشامل لانتاج النفط وتصديره يشكل اذن قوة رادعة قادرة على التأثير في الأمد القصير . والاقتصاد الغربي غير قادر على تجاوز مرحلة الأمد القصير رغم المخزون واستخدام عامل الاستعاضة مالم يتعرض لشيء من الخلل والاضطراب النسبي .

ب — والى جانب سلاح الحظر التام على الانتاج والتصدير للنفط العربي فان هناك سلاحاً نفطياً آخر يمكن الاعتماد عليه لزيادة الأثر الفعال للسلاح الاول . والسلاح الجديد يتعلق **باتفاقيات النفط المعقودة مع الشركات الكبرى** . من المعروف ان هناك اشكالا ثلاثة لاستثمار النفط في البلاد العربية :

١ — النموذج التقليدي القائم على منح امتياز التنقيب والحفر والاستخراج والتصريف مقابل دفع مقدار معين من العائدات . انه النموذج المطبق في العراق (بحسب الاتفاق القديم) والكويت والسعودية وليبيا . وكانت شركات النفط الاحتكارية الكبرى تتحكم في المقادير السياسية والاقتصادية والاجتماعية للبلد الذي يخضع لهذا النموذج من الاتفاقيات . ونكتفي بضرب مثل عن سياسة نوري السعيد في هذا المجال .

٢ — ثم حدث تطور وتقدم في تنظيم الاتفاقيات فكانت عقود المشاركة التي تبنتها الجمهورية العربية المتحدة والجزائر وتونس . وبموجب عقد المشاركة تشارك الحكومة صاحبة الثروة الشركة في العمليات منذ التنقيب حتى تصريف النفط أو بالأحرى تصديره . بمعنى أنه يكون للحكومة رأي في مختلف الأعمال التي تقوم بها الشركة ، بل وحتى في كيفية تحديد العائدات .

٣ — هناك أخيراً نظام التأميم وقيام الحكومة باستثمار النفط بنفسها أو

عن طريق التعهد بتكليف شركة لأن تعمل لحسابها في استثمار النفط ، وهذا ما اتبعته الجمهورية العربية السورية .

الذي يهمنا هنا من هذا التصنيف هو أن أغلب الدول العربية المنتجة للنفط ما زالت تتبع النموذج الأول الذي ما زال رغم الاصلاحات التي أدخلت عليه بعيــداً عن أن يكون مرضياً من النواحي الحقوقية والسياسة والاقتصادية كالنموذج الثاني . فأداة الضغط التي يمكن للبلدان المنتجة للنفط أن تستخدمها بالاضافة للسلاح النفطي الأول هو أن تنتهز فرصة الأوضاع الراهنة في العالم العربي وتطور **النموذج الأول الى النموذج الثاني** حيث يصبح لها رأي أكثر فعالية في الاشراف على أعمال الشركة وتوجيهها واجبارهــــا على زيادة العائدات التي لا التي لا تتفرد الشركة بحسابها كما هو الأمر مع النموذج الأول[1]. وهذه أداة ضغط لأنه ليس من مصلحة الشركة الانتقال من النموذج الأول الى الثاني ، أو اذا تم الانتقال فبحدود . وطبعاً لا أتحدث هنا عن النموذج الثالث (اللجوء الى تأميم آبار النفط في العالم العربي) لأنه بنظري قد لا يكون عملياً في الوقت الحاضر ، لا من الناحية السياسية ولا الاقتصادية ، حتى ولو كان هذا أمراً يمكن تحقيقه . وكما سبق وأشرت ، ان الغاية الأساسية في المرحلة الحاضرة هي استخدام النفط كسلاح رادع من أجل الضغط لصالح القضية الفلسطينية .

---

(١) من المعروف أن العراق وضع حديثاً موضع التطبيق الكامل القانون رقم ٨٠ الصادر عام ١٩٦١ والذي يقضي بمنح الحكومة العراقية حق اعطاء الاستثمار النفطي للشركة الوطنية للنفط . انه هذا يأخذ من شركة (الآي . بي . سي) (٩٩٪) من الاراضي التي كانت تحت تصرفها للتنقيب والاستثمار بموجب حق امتياز . كذلك فان ليبيا طالبت حديثاً الشركات العاملة لديها بزيادة سعر النفط المستخرج من أراضيها .

ثانياً ـ الأرصدة :

والأرصدة المالية للبلدان العربية تشكل السلاح الرادع الآخر بعد سلاح النفط ، علماً بأن معظم هذه الأرصدة هي عائدات نفطية . ان هذه الأرصدة مودعة لحساب البلدان العربية في المصارف البريطانية بالدرجة الأولى ومصارف الولايات المتحدة . وقدرت هذه الأرصدة بالاسترليني في بريطانيا بمبلغ ٦٥٠ مليون ليرة استرلينية حتى نهاية آذار (مارس) ١٩٦٧ ، تملك الكويت لوحدها من أصل هذا المبلغ بين (٣٠٠ ـ ٣٥٠) مليون ليرة استرلينية [١] . من المؤكد أن سحب هذا المبلغ بكامله دفعة واحدة وطلب تحويله الى ذهب (الأمر الذي سيؤثر على الولايات المتحدة) سيهز أسواق الصرف أو القطع في الغرب وسيؤثر بشكل بالغ الخطورة على سعر الليرة الاسترلينية حتى لو حاولت بقية المصارف المركزية للدول الصناعية مساندة مصرف انكلترا لايقاف تدهور سعر الليرة الاسترلينية [٢] . ولكن ليس هذا الآن مجال تفكيرنا لأننا نود في الواقع استخدام هذه الأرصدة كسلاح رادع وكأداة ضغط بالدرجة الأولى على الاقتصاد البريطاني والاقتصاد الغربي عامة ، ولو سحبنا الأرصدة بكاملها فان ذلك سيؤدي الى انخفاض قيمة الاسترليني ، ولكن أي انخفاض لقيمة الاسترليني أو الدولار سينعكس بصورة أكثر حدة على قيمة كثير من عملات البلدان العربية . وبالاضافة الى ذلك يجب أن نعرف أن جزءاً هاماً من المبلغ المذكور ليس مودعاً بشكل نقد قابل للسحب في أي وقت ، وان الجزء المتبقي للسحب يمكن لبريطانيا عملياً

---

(١) أنظر : (The Economist, June 10, 1967)

(٢) انظر في ذلك تعليقنا (السيولة النقدية الدولية وأزمة الشرق الأوسط) في « الاقتصادي العربي » العدد ٢١٦ لعام ١٩٦٧ .

أن تجمد جزءاً منه كما سبق وجمدت الأرصدة المصرية بالاسترليني ، فضلاً عن أن بعض الدول العربية ما زالت ضمن منطقة الاسترليني . ثم ان عملية سحب ما يمكن سحبه ، وتحويله الى مصارف أخرى (في سويسرا وفرنسا مثلا) لن يكون ذا أثر لأن التحويل سيتم في سجلات المصارف . من المؤكد أنه يمكن التأثير عن طريق طلب تحويل الجزء الذي يمكن تحريره الى ذهب وبذلك يمكن الضغط على بريطانيا والولايات المتحدة في وقت واحد . أعتقد أن هناك وجهين لاستعمال الأرصدة التي يمكن سحبها أو تحويلها بشكل يعطي بعض الجدوى :

١ ـ ذكرنا اعلاه عن الايقاف التام لضخ النفط . وعليـــه فان الدول المنتجة للنفط اذا ماوافقت على ايقاف الضخ فستوقف عائداتها . وعندئذ يمكنها الاعتماد على هذه الارصدة لتمويل سير الحياة فيها على درجـــة هامة من التقشف طبعا ، وذلك مع الاشارة الى أن مايمكن سحبه من أرصدة سيمول الاستيراد الغربي في بلدان أخرى غير انكلترا او الولايات المتحدة . وهذا سلاحها في الأمد القصير حتى ولو كانت الشركات النفطية الكبرى أقوى منها ماديا بكثير ، بحيث يعمل الزمن ـ من ناحية القدرة الماليـــة ـ لمصلحتها . ولكن الأوضاع الاقتصادية العامة في الغرب تجبر الشركات ، بالغة مابلغت قدرتها المالية التي تجعل الزمن يلعب لمصلحتها في الانتظار ، على ان تأخذ هذه الاوضاع بعين الاعتبار ، فضلا طبعا عن اوضاع اخرى هامة سياسية واستراتيجية .

٢ ـ محاولة الضغط عن طريق المطالبة بتحويل الأرصدة أو ما يمكن تحريره منها الى ذهب ، ومحاولة التعاون في هذا المجال مع فرنســا التي تسلك في مجال السيولة النقدية الدولية مسلكاً غير متوافق مع المصالح (الانغلو ـ ساكسونية) .

ثالثاً – حظر التعامل الاقتصادي :

بقي ان نتحدث أخيراً عن السلاح الاقتصادي الثالث الذي هو المقاطعة الاقتصادية للدول التي ساندت العدوان حيث يمكن أن تشمل هنا الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا وألمانيا الغربية ولنقل بادىء ذي بدء ان هذا السلاح هو اضعف من سابقه . فاذا اغلقنا أسواقنا العربية بوجه هذه الدول تبين معنا أن الولايات المتحدة تفقد قيمة صادرات مقدارها /٦٤٣/ مليون دولار ، وبريطانيا /٥٨/ مليون دولار ، والمانيا الغربية /٤٠٥/ مليون دولار . (١) ولنقل بصراحة ان هذه الأرقام هي ذات اهمية كبيرة بالنسبة للبلدان العربية لأنها تتضمن قيمة المستوردات من الآلات والتجهيزات ، وبالمقابل فان أهميتها أقل بكثير بالنسبة للبلدان الثلاث المذكورة وذلك بسبب كون هذا البلدان قادرة بدون خسارة كبيرة على تحويل هذه الصادرات الى بلدان اخرى في أفريقيا وآسيا وامريكا اللاتينية ، ثم هي اصلاً لاتمثل الا رقماً متواضعاً بالنسبة للقيمة الكلية لصادراتها ودخولها القومية . اما اذا تحدثنا عن ايقاف صادراتنا الى هذه البلدان ، فالامر يكون العكس تماماً اذ أن الأهمية النسبية لقيمة صادرات البلدان العربية بالنسبة لدخولها القومية هي أهم بكثير منها في البلدان الثلاث المذكورة . وبالاضافة الى ذلك فان نوعية انتاجنا تجعل من الصعب علينا أن نكون قادرين على تحويل تجارتنا الى مناطق جغرافية أخرى قد لاتكون بحاجة لمنتجاتنا بالقدر الذي نرغبه ، وفوق ذلك كله فان هناك حصيلة صادراتنا من العملة الصعبة (دولار ، استرليني) التي نمول بها مستورداتنا ، بما في ذلك التجهيزات اللازمة

(١) احصاءات مستخرجة من نشرات الصندوق النقدي الدولي .

لمشاريع التنمية ، من البلدان الاشتراكيـة وبلدان أخرى تشترط أن يكون الجزء الأكبر من الدفع بهاتين العملتين الصعبتين ، وهذا أمر طبيعي في مجال العلاقات الاقتصادية الدولية .

نستخلص من ذلك أن الأثر الاقتصادي للسلاح الثالث ليس في مصلحة الدول العربية كلياً . ولكن يمكن أن يكون في مصلحتنا اذا ما استعمل بشكل تام مع السلاحين السابقين ، وذلك مع الأخذ بعين الاعتبار أنه يمكن لهذه الدول أن تقاطعنا بدورها ، ولكن ألا يمكن تحويل مصدر مستورداتنا وتزيدها من الدول الاشتراكية والدول الغربية التي لم تساند العدوان ؟

وخلاصة القول ان السلاحين الأولين ، النفط (من حيث وقف الضخ كليا ، ومن حيث المباشرة بتعديل الاتفاقيات القائمة) ، والأرصدة بالعملات الصعبة ، لها أثر اقتصادي وسياسي ، بينما السلاح الثالث يكون أثره السياسي أهم من الاقتصادي .

ان استعمال هذه الأسلحة معاً وفي وقت واحد وعلى صعيد الشمول الجغرافي العربي وفي الأمد القصير وضمن اطار من التضحيات من طرف الدول المنتجة للنفط خاصة وكذلك اتباعها لسياسة في التقشف هي قادرة عليها لأن طراز المعيشة فيها يمكن تكييفه دون احداث هزة في الأسواق الاستهلاكية ، يمكن له أن يحدث تأثيراً ضاغطاً وقوة في المساومة للضغط بصورة غير مباشرة على سلطات الاحتلال الصهيوني التي يتجسد وجودها بنظرنا بالمصالح السياسية والاقتصادية الاستعمارية لمجموعة من البلدان العالمية التي قد يتغير عددها وتركيبها ، ولكن الخط الموجه في وجودها يظل هو نفسه ، وقوة المساومة يجب أن تكون مع هذا الخط الموجه بصورة مباشرة .

وفي ذلك كله علينا أن نعتمد اعتمادا كليا وتاما على قاعدة الاستراتيجية العليا التي تمثلها تمام التمثيل في مجالات العلاقات الدولية لبحثنا «شعرة معاوية» .

الآداب

- حسن كامل الصيرفي — الحق المقدس
- محمد عفيفي مطر — رقصة الخاض الثاني
- ممدوح عدوان — الطاووس
- شوقي بغدادي — دمشق تصبغ المصابيح
- زكي قنصل — ليل العروبة

الحق المقدس

حسن كامل الصيرفي
- القاهرة

لن تهدأ النفسُ ولن تسكنا ... مالم نطهّر بالظُّبى الموطنا
يقسم بالله وآياتــه ... من جلجل الناقوس أو أذّنا
أنّ لهيبَ الثأر لم ينطفىء ... مهما يطلْ توقيتُه بيننــا
وأنّ حقداً زرعَتْهُ يدُ ... الغدر - شَلّتْ - في غدٍ يجتني
يُطعمُهُ الغادرُ في غُصّةٍ ... ويجرعُ الآثمُ ماقد جنى
صُدورنا تغلي ، وأحقادُها ... على مَدار الشمس لن تُدفنا

مادام فينا دمٌ مَنْ غالبُوا   جحافلَ الغازين والأزْمُنا
وخلّدُوا في الدهر اسماءَهُمْ   وألهمُوا التاريخَ ما دوَّنا
كم غزْوةٍ باءتْ بخزيٍ ، وكم   عادٍ حطمْنا بأسَهُ الأرعنا

* * *

يُقسمُ بالله وآياتهِ   من جلجلَ الناقوسَ أو أذَّنا
أنَّ ثرى الأرضِ التي خصَّنا   بها إلهُ الحقِّ مِنْ حقّنا
أرضٌ مشى فيها يسوعٌ كما   تمشي يدُ الآسي لتشفي الضّنى
وطار فيها من ذُرى مكّةٍ   محمدٌ مثل وضيء السّنا
والمسجدُ الأقصى وماحوْلهُ   باركه اللهُ لنا وحدَنا
تُشرى بأرواحٍ سمتْ عنصراً   ولم تُدنّسها خطايا الخنا
حقٌ نفدّيه ، وانْ حاولتْ   كتائبُ الشيطان أن يُغبنَنا
وشيعةٌ تنسى جراحَ الذي   قاسى من الانذال عيسى هُنا
تدفعُ للجانينَ أجرَ الذي   جنَوْا عليهِ داعياً مؤْمنا
ترْشو شعوباً أسلمتْ وجهَها   لقبْلة الدّولارِ كي تُذعِنا
أغنى بلاد الله في مالهــا   أفقرُها في حسنات الغنى
أفقرُهــا روْحاً لايغالها   في الشرّ تحمي جُندهُ الأجبَنا
تعلو الى السُّحْبِ بناياتها   بأنفسٍ لم تعلُ مثل البُنى
لامجلسُ الامن ، ولاشيعةٌ   تحكمُ فيها الدون والأدْونا
بمستطيعينِ انتقاض الذي   أبرمهُ — قبلُ — إلهُ الدُّنا

* * *

يا باطلاً قد غرّهُ بارقٌ … فاستبلس المغرورُ واشّيطنا
لن يُطمَسَ الحقُّ ، وإن ساءهُ … ما مَوَّهَ الباطلُ او لوّنا
ولن يقرَّ الرّجسُ في أرضنا … ان يَنشُد الراحة أو او يأمنا
غداً بأرض التّيه أشلاؤكم … تجري عليها رامساتُ الفنا

رقصة المخاض الثاني

محمد عفيفي مطر
ـ القاهرة

هل كنتَ تحمل هذه الأرض القديمة في دماك
ما لي أراها إذ أراك
زيتونُها الجبليُّ يصرخ في خطاك
وشموسها انسكبت بقلبك والغمامُ والنجومْ
يا نهرنا البشريّ .. في الليل العظيم
كانت طقوسُ الخلق والتكوين .. كان الانتظارْ
لهباً يعشّشُ في ملامح وجهك الصُّلب القديم ..

هذا حصان الريح يركض بين يافا والخليج
وصهيله الدمويُّ رُمحٌ في الظلام

قمرٌ يعلّلُ صليّةَ الجوعِ المؤرّق ، في الخيام
شمسٌ تؤرجحها مَنافي الأرض ، زهرٌ ليس يعْقدُ في الثمار
هذا حصان الريح يصرخ في ليالي الانتظار :
« قومي أيا أجداث من صمت القفار
قومي أيا أجداث
قومي أيا أجداث .. »

الشمس تولد في السماء
عنقود نار
والأفقُ صقرٌ ملتهبْ
والنخل يزحف بالخناجر مسقطاً تمر الغضب
والأرض ترقص رقصة الميلاد ،
تمتلىء السواقي بالدماء

اليومَ .. أولُ ما رأينا من نهار
فأراك يا حيفا عروساً للبحار
شفتاك في هذا الزمان
زمني ، وعيناكِ اللتان رأيتُ في
غَوْرَيهما الطميَ المعذَّبَ والشجر
أرضي ، وفي جنبيْكِ ساقيتي القديمةُ ، والقمر
ما زال مختبئاً خلال جدائل الشعر الهاميّ الرحيم
أنفاسُكِ الخضراءُ سنبلتي المليئةُ والدمُ الحيُّ الذي
ينساب في ليل العروق

ورداؤك الليليُّ عشٌّ للبروق
كفاكَ بياراتُ زيتون وآبارٌ ودارْ
وخطاكَ نارٌ عُتِّقَتْ عشرين عاماً في الجرار
يا صوت ميلادي القديم
فَجِّرْ بحنجرتي الغناء وأشعل القلبَ المؤرَّقَ يا مطر ..

هذا حصان الريح يرقص في الميادين الفساح
رقصاً الهياً يفجِّرُ ما لعقنا من جراح
فالأرض تولد والسماء
والرمل يفتح بابه الدهريّ .. ينفض من أجنحته الرجال
والشعب يولد في الدما والنار ،
يا قوري الجديد
هذا زمان العرس .. فارقص أيها الرعد العظيم
واحمل ربابك أيها البرق المغني في السماء ..

الطاووس

ممدوح عدوان

فهمت اليوم صمتك والأسى المخزون في عينيك كالعتب
ودمعك حين تبتسمين في طرب
فهمت اليوم ما معنى انتشاء الناس بالأحزان والخمر
لماذا كان خلف حياتنا ذاك النشيج المر مستتراً بلا صوت
لماذا كنت صامتة وباكية بلا سبب
لماذا لم تجيبيني .. وقد ناديت أجيالاً ولم أفهم
فنحن ، الجيل ، كورس مأتم مبهم
ونحن نعيش أمواتاً .. ونرقص في أسى من نشوة الموت

« نسوان تبكي خجل
« تاهت عن دروبا
« وشباب متل النخل
« ع الجيش مسحوبا

كأنك قد رأيت بعمري الشيء الذي أخفيه عن نفسي
رأيت وراء صوتي في الغناء ، وحينا أطوب
بأني قد خسرت العمر ، ان خسارتي قدز بلا مهرب
فدائي في شراييني
واني قد خسرت غدي
وشخت ولم أجاوز بعد عشريني
خسرت ودون أن ألعب

« ونار وصلتي بالجسم لدعت »
« ولو ينفع دعاي الله لدعيت »
« ولو يشفي بكاي الحزن لدعيت »
« الانس والجن يتباكوا سوى »

ولكني . .
وحيداً حائراً أقف
مليئاً بالمتاعب ، .
رغبتي في النوم تخنقني
كأني ميت ملقى بلا كفن
ودون غد .. ولا حتى انتظار غد

كأني جد إبني . جد اخوتي الصغار ،
وجد نفس : خلفها أقف
وحيداً وسط صحراء
وليس سوى سراب كله صلف
بلا درب .. بلا أفق .. بلا آثار خطوات
وحيداً .. ليس لي هدف
وابلع ذكرياتي ،كالعناكب تستعيد خيوطها
وتغوص في العفن
اذا ما أرعبتها هجمة الأعداء
وها أنذا ملء المحجرين دماء
لأني كلما أوغلت في الماضي ، أتوه بزحمة الأشلاء
كذبت عليك لما قلت ان الخيل تعرفني
ويعرفني كذاك الليل والبيداء
وان الناس ، كل الناس ،
إن أضع العمامة يعرفوني
فارس التاريخ والصحراء
واني إن أضع تلك العمامة أفتقد
كالبدر في الظلماء
أنا كذبابة خسرت جناحيها ..
فلا نقص الذباب ، ولا أضافت في عيون النادبين بكاء
زهوت .. وكنت أحمل في دمي وطني

وسرت به طويلاً لم يكن في السير والضوضاء يتعبني
ولم أحسب حساب الريح والرمضاء
ولم أحسب حساب الموت والزمن
لان عمامتي عندي :
متى أضع العمامة يعرفوني
فارس التاريخ والصحراء
ولما ذاب عني الثلج ، غاصت جبهتي في الوحل ،
ثم غرقت في أبد من الفتن
وعدتُ اليكِ منهوكاً
وكان الجلد ، حتى الجلد ، يتعبني
وخلفي من خيط مد نزيف الأرض والوطن

* * *

ولكني . .
بحثت ولم أجدك ، فكيف قد ضعت
وانت المرفأ الباقي .. وأسخى من سيبكيني
أأنت هنا ولا ألقاك ؟ أم ذبت ؟
تراك سبية صرت ؟
وأحذية الغزاة تدوس ما صنت ؟
وأنياب الغزاة تروح تنهش ما سألت ولم تجيبيني
بودي لو أرى عينيك في حلمي الى حين
ففي عينيك آلاف من الأموات احسدهم على الموت

ووجهك ، رغم هذا الحزن ،

هذا الصمت ، أحسده على الصمت

* * *

ركضت اليك كي ألهيك ، كي لاتسألي الخيلا

لئلا تسمعي قول الذي شهد الوقيعة انني

قد خضتها طفلا

وان غنيمتي كانت بها ذلا

ومعذرة ..

اريدك ان تظلي الدهر جاهلة بما حلا

قفي .. ولتقبلي ذلي .. وفي أفيائه عيشي

لأني كنت طاووساً

وقد عريت من ريشي

١

شوقي بغدادي

دمشقي الجميلةُ ترخي الحجابْ
وتحيا بوجهٍ كثيفِ النقابْ
دمشقيَ قابعةٌ في الظلامْ
محدّقةٌ في الدجى لاتنامْ
دمشقيَ تقطعُ نزْهاتِها
وتخفت ضحّةُ سهراتها
وترنو فلا تبصر العاشقينْ
يسيرون في خفيةٍ ، خائفينْ
ويختلسون الهوى واجفين

دمشقي ، دمشقيَ تخشى القمرْ
وتطرده إنْ ظَهرْ
دمشقي الجميلةُ تحجبُ خدّا
وترصد هولاً قريباً تبدّى
وألقى القناعَ بعيداً ، وشدّا
ليقتلَ هذا الوليدَ المفدّى
وقد شبَّ حتى السماء ، وسدّا
مدينتي الآن تحيا زماناً
يقولون عنه غداً جلّ عهدا
دمشقيَ تصبغُ كلَّ المصابيح
إلاّ العيون
فمنها يلوحُ
بريقُ ابتسامه
يبدّدُ هذي الغمامه
دمشقي الجميلةُ تبقى جميله
وإنْ عذّبتها الليالي الطويله
دمشقيَ تحيا زمانَ البطوله



لبيك العروبة

زكي قنصل
— بوانس أيرس

ما للمدامع في عينيك تختلجُ ... حمراءَ يهدر فيها الحقدُ والوهَجُ
تقضي لياليك في غمٍّ وفي أرقٍ ... والقوم حولك لا اغتمّوا ولا انشجوا
حيران ولهان لا تغريك زنبقةٌ ... ولا يهزّ هواك البلبل الهزج
هلاّ انتصرت على ما فيك من وهنٍ ... خطبُ الذي فقد الايمان مزدوج
الصبر خير ملاذٍ في البلاء، فقد ... يجيء بعد اشتداد المحنة الفرج
لم يخنع العرب للبلوى ولا انطفأت ... نارٌ على دمدمات الثأر تعتلج
قل للذين تمادوا في ضلالتهم ... لن يبلغ النجم في تصعيده درج

من ليس يرشده عقلٌ وموعظةٌ ... هيهات ترشده الاقباس والسرج
غداً تهبُّ رياح الحق صاخبة ... غضبى فتجرف من خانوا ومن خرجوا
ومن تراخوا ومن ماتت عزائمهم ... ومن توانوا ومن في إثرهم درجوا
الله اكبر نادى المجد واستبقت ... الى مواكبة الاقدام والمهجُ
إنا لمَن امة طابت ارومتها ... فليس في خلقها عيبٌ ولا عوج
تألبتْ حولها الاطماع واجتمعت ... على مواردها الاحلال والهمج
يعضّها الجرح لكن لايزلزلها ... وينهش القيد رجليها فينزلج
ماودّعت املاً الاّ الى امل ... كالروض يذوي ويبقى النور والارج
لئن غزاها عبيد السوط فليثقوا ... ان سوف نخرجهم من حيثما ولجوا
الحق عدتنا في حرب باطلهم ... والسيف حجتنا ان اعوزت حجج
دارُ العروبة للاحلاف مضيفةٌ ... لكنها القبر الأجلاف ينفرج
سطا عليها غزاة الشرق واندثروا ... ومن فيها بزاة الغرب واندرجوا
لم يبقَ منهم ومن آثار دولتهم ... سوى اساطيرَ باللعنات تمتزج
الله يشهد ليس الحقد شيمتنا ... وليس في صدرنا ضيقٌ ولا حرج
لكن اذا غمز الزاري كرامتنا ... ثار العجاج ، وماد السهلُ والحرَجُ
لتبرأ الضاد ممّن لا يحرّكهم ... دمٌ يُراقُ ... ويستهويهم غنجُ
يجرون في حلبات الخزي عاصفةً ... فان اهاب بهم صوت العلى عرجوا

* * *

يا آل صهيون ـ والدنيا مداولة ـ ... بغيتمُ دولة العدوان فابتهجوا
«بلفور» اعطاكمُ من جيبنا وطناً ... هذا هو المثل الأعلى لمن نهجوا

دمع اليتيم شرابٌ في مجالسكم ... وزفرة الشيخ في اسماعكم هزجٌ

لا تتركوا حسوة في كأسكم لغدٍ ... فربما افترستكم في غدٍ لجج

من يزرع النار لم تسلمْ اصابعه ... ومن يعشْ اهوجاً أودى به الهوجُ

ليل العروبة داجي الوجه معتكرٌ ... لكنما فجرها لا بدّ منبلجُ

لن يسكت العرب عما قد المّ بهم ... ما دام فيهم دم الايمان يختلج

تحرص المجلة على التعريف بنتاج الفكر العربي الجديد بصورة خاصة ، ونتاج الفكر العالمي بصورة عامة . ويسعدها أن تتقبل شاكرة الكتب الجديدة التي تصدرها دور النشر العربية والأجنبية ، أو التي يبعث بها الينا مؤلفوها ، ليصار الى دراستها وعرضها في حقول المجلة .

. . .

— المقالات التي ترد الى المجلة لا تعاد الى اصحابها ، نشرت أو لم تنشر .

. . .

— ترجو المجلة من الكتاب الذين يبعثون اليها بمقالاتهم وبحوثهم ، أن تكون هذه مكتوبة بخط واضح جداً (والأفضل أن تكون مطبوعة على الآلة الكاتبة) وأن تتضمن اسم كاتبها الحقيقي كاملاً ، وعنوانه واسمه الأدبي الذي يرغب في أن ينشر مع مقاله .

. . .

— ترجو ادارة المجلة من مشتركيها ومن أصدقائها الذين ترسل اليهم المجلة هدية ، أن يعلموها كتابياً عن كل تبديل يطرأ على عناوينهم .

الفنون

الكتاب والموضوعات

• نبيل فرج — حوار مع الفنان الناقد صبحي الشاروني

حوار مع الناقد الفنان

صبحي الشاروني

نبيل فرج
- القاهرة



الفنان الناقد صبحي الشاروني

وظيفة الفن اثناء المعركة
الى اين تتجه حركة الفن التشكيلي في بلادنا
المدرسة التجريدية في الميزان
القيم التي يضيفها شباب الفنانين
المعاصرة هي استيعاب التراث والاضافة اليه
سر تعدد الاساليب الفنية
الاشتراكية والفن والمستقبل
الالتزام بين الأدباء والفنانين
القيمة الاقتصادية للاثر الفني القديم
العمل الفني بين التفسير والمحاكمة
وبين الخلق والنقد

يعيش تحت سماء القاهرة ثلاثـــة اخوة اشقاء يشتغلون بالثقافة ، لكل واحد تخصصه واستقلاله ، ولهم جميعا آثار على مستوى عال من الاصالة والابداع، يساهمون بها في الحركة المعاصـــرة ، وهم : يوسف الشاروني القصاص وصاحب الدراسات الأدبية ، ويعقوب الشاروني الكاتب المسرحي ، وصبحي الشاروني الفنان والناقد التشكيلي .

الا ان صبحي الشاروني يعد في الحياة الفنية واحـــداً من انشط النقاد التشكيليين ، واقواهم ايمانا بدور الفن في خدمة الحياة اليومية .

وقد خاض من اجل ذلك ، خلال مناقشة الوظيفة الحقيقية للفنون ، كثيرا من المعارك النقدية ، لم يتخذ فيها موقف الحد من حرية الفنان ، بل كان داعية للحرية ذاتها .

والى جانب حرفة الناقد المسؤول التي يؤديها صبحي الشاروني ، قل من يعرف انه يضم بين جوانحه فنانا مقتدرا ، يمارس تخصصه في النحت والخزف الذي بدأ اثناء دراسته بكلية الفنون . وقد اشترك باعماله منذ ١٩٥٤ في المعارض العامة ، وعرض في دورة بينالي الاسكندرية ١٩٥٧ .

وككل فنان يشتغل بالنقد ، يتميز انتاج صبحي الشاروني باقتحام المشاكل الفكرية ، وتناول القضايا المعاصرة التي يقف على قمة الوعي بها .

من ذلك تمثاله « اهل الأرض » (١٩٥٨) الذي يصور فلاحا عاريا نحيلا، من فرط البؤس ، يسند ذقنه على ظهر كفيه على ركبتيه المضمومتين ، في وضع اليقظ المتحفز المليء بالانفعالات ، يطرح به قضية الفلاح المصري الموضوعية ، التي تركزت عليها المشاعر ، بعد ثورة يوليو ١٩٥٢ ، وينبه الأذهان الى الشظف الذي يثقل اولئك البؤساء ، وهم ينفضون عن كاهلهم بقايا الاقطاع .

ولا تؤثر هذه المضامين التقدمية عنده على جمال التكوين او اكتمال الشكل . فلنتعرف عن كثب على تاريخ حياة هذا الفنان .

* * *

تخرج صبحي الشاروني (٣ ابريل ـ نيسان ـ ١٩٣٣) في كلية الفنون الجميلة بالقاهرة دفعة ١٩٥٨ بدرجة الامتياز مع مرتبة الشرف . ولكنه يشتغل بالنقد في الصحافة المصرية قبل هذا التاريخ بسنوات ، منذ ١٩٥٤ على التحديد ، في فترة انتقال من العصر السابق الى اللاحق ، تنقل خلالها من مجلة « الاذاعة » الى «صباح الخير » ثم استقر به المقام محررا اساسيا بصفحة الفنون التشكيلية الاسبوعية بجريدة « المساء » التي انتظم صدورها منذ انشاء الجريدة سنة ١٩٥٦ ، حتى العدوان الدنيء على الامة العربية في يونيه (حزيران) ١٩٦٧ .

ومن موضعه بدار التحرير للطبع والنشر ، يساهم الشاروني في تحرير مادة الفن التشكيلي بجريدة « الجمهورية » وفي البرامج الفنية بالتلفزيون العربي واذاعة القاهرة .

أما دراساته المطولة عن تاريخ الحركة الفنية في بلادنا وتياراتها وفنانيها ، والمعارض الهامة ، فتتوزع بين مجلات : « المجلة » ، « الفكر المعاصر » ، «الكاتب» .

كذلك صدر للشاروني في أواخر ١٩٦٦ عـــن الدار القومية للطباعة والنشر (دار الكاتب العربي حاليا) ، كتاب هام بعنوان « عبد الهادي الجزار ـ فنان الاساطير وعالم الفضاء » ، استنقذ به من الضياع ذكرى فنان معلم من القلائل الذين عبروا عن العصر ، بكل متناقضاته وتطلعاته ومكاسبه .

والجزار هو الذي فقدته الحياة الفنية ببلادنا في مارس (آذار) ١٩٦٦ ، بعد

أشهر من فوزه بجائزة الدولة التشجيعية في التصوير الزيتي ، عن لوحة « السد العالي » ، التي تعتبر اهم آثاره جميعاً ، واكثرها استجابة للحضارة العربية .

ويعد الشاروني الآن كتابين آخرين : الاول عن الفنان السكندري الراحل محمود سعيد (٨ ابريل-نيسان-: ١٨٩٧ - ١٩٦٤) الذي كرمته الدولة سنة ١٩٦٠ بالجائزة التقديرية ، والثاني عن الفنان الشاب صلاح عبد الكريم (١٩٢٥-) الذي فاز سنة ١٩٦٦ بجائزة الدولة التشجيعية في النحت الزخرفي عن عمله الفني البديع المتعدد المستويات « قاع البحر » ، الذي يزين فندق فلسطين بالاسكندرية .

وكان الشاروني قد كتب في جريدة « المساء » مقالة تقييمية عن صلاح عبد الكريم ، عقب اعلان فوزه وتسليط الاضواء عليـــه ، يعرف الناس بـه كفنان واعد يقف على المستوى العالمي باعماله المركبة من نفايات الحديد والمعادن الاخرى .

ولأن الشاروني على وعي ثقافي كبير ، لاتقتصر كتاباته الواضحة على الفن والفنانين ، وما اكثر الذين يعتبرونه ناقدهم الأول ، بل تتسع سعة آفاق الفكر الانساني .

وتحت عنوان « الغربة والاغراب والاغتراب ــ في الحياة والفن والفكر » ، يجمع في كتاب يصدر قريبـــاً دراساته التي عقدها مع عدد من كبار الكتاب والفنانين والمفكرين في مصر .

انه في كلمات قليلة ناقد تقدمي متبصر ، دفع الى مضايق الخلق الفني ، فتدعمت معرفته بخفاياه واسراره ، وهو صاحب دعوة يتعصب لها ويطبقها بحرفيتها يؤمن بالاشتراكية والتطور والانسان ، ويساهم بنصيب وافر في تعميق المفاهيم بها .

لاغرو اذن أن يتوقع المرء له أن يتبوأ مكان الريادة في مجال النقد الفني .

وفي لقاء مع صبحي الشاروني بمرسمه بشارع الهرم بالجيزة ، على مشارف القاهرة ، في أواخر مايو (أيار) ١٩٥٧ ، دار الحوار التالي :

ـ تخوض الجماهير العربية في هذه الأيام أخطر معارك العصر الحديث. فليكن مدخلنا تحديد وظيفة الفن في غضون هذه الظروف .

● تتميز المعركة الراهنة بالأحداث السريعة المتلاحقة ، التي تكاد تلهث ونحن نتابعها .

كما ان طاقات الانفعال والحماس المتولدة عنها لاتدع للفرد فرصة التأمل او التعمق .

ولما كان فن المعركة سلاحاً من الاسلحة الوطنية ، وجب أن يتوفر فيه شرط سهولة تلقي الجماهير له ، بفضل الوضوح ، والبساطة ، والتعبير المباشر عن احداث الساعة .

ولهذا ففن المعركة ببساطة هو فن الملصقات والرسم السريع الذي يؤدي دورين في آن واحد : الاول هو تفريغ الطاقة الانفعالية الهائلة المحتدمة في نفس الفنان ، والمنعكسة عن الأحداث . والدور الثاني المشاركة بالفن في تعبئة الجماهير ، بنفس القدر الذي عبىء به الفنان .

لذلك ، فما اقل الاعمال الفنية ، من نتاج المعركة ، القادرة على البقاء والتأثير زمناً طويلاً .

ويكفي الاغلبية العظمى من الاعمال الفنية أن تنهض باداء دورها المباشر والفعال ، وان فقدت فيما بعد قدرتها على التأثير الجمالي الخالص .

ـ هل يمكن تحديد ابرز معالم حركة الفن التشكيلي في مصر ؟

● تنحصر هذه المعالم في استلهام التراث الفرعوني القديم ، الذي ترعرع في الفترة الاولى ، مع نشأة حركة الفن الحديث ، وكان قطباها محمود مختار في النحت ، ومحمود سعيد في التصوير .

تلا هذه البداية الاتجاه الى الفنون الغربية المعاصرة والتأثر بهـا ، كما في اعمال صلاح طاهر ، وسيف وانلي ، وماهر رائف مؤخراً .

ومنذ الخمسينات بدأ الفنانون يتطلعون الى الاشكال الشعبية التي ينتجها ابناء الشعب في المدينة والريف ، وخاصة في النوبة ،على نحو ما نجد عند عبدالسلام الشريف وسعد كامل .

ويحتدم داخل الحركة الفنية صراع عنيف بين انصار التشخيصية ، ومعظمهم يؤمنون بدور الفن الفعال في معركة الحيـــاة ، وبين انصار اللاتشخيصية او التجريديين ، ولو انهم خلال المعركة يتخلون عن اغراقهم في الشكل .

ويعكس هذا الصراع مرحلة التحول الاشتراكي التي لاتزال قائمة في مصر ، لم تدحض فيها بعد الى النهاية القيم القديمة .

والحق اننا لن نصل الى نتيجة حاسمة ، يتبلور لنا فيها فن قومي محدد الملامح ، الا اذا تم بالفعل التحول الاشتراكي .

وقد سبق هذا الصراع بسنوات صراع آخر بين عبدة الطبيعة من جهة ، والمطالبين بالتحرر من قيودها من الجهة المقابلة ، اسفر عن تكوين ثلاث جماعات فنية ، تناصر التحرر من التزمت الاكاديمي والخضوع للاشكال الطبيعية ، هي : « الفن والحرية » (١٩٣٩) ، « الفن المعاصر » (١٩٤٦) ، « الفن الحديث » (١٩٤٧) .

ــ ما هي عيوب التجريدية وفضائلها ، وما موقفنا ازاءهـــا ، وما مستقبلها عندنا ؟

● لعل اكبر عيب في المدرسة التجريدية هو اغراق فنانيها في ذاتيتهم ، وتقوقعهم في ابحاث شكلية بحتة ، تبتعد باعمالهم عن تناول القضايا الحية ، سواء

السياسية او الاجتماعية او النفسية . ولا ادل على ذلك من انهم يهجرون مدرستهم العقيمة ، تحت الحاح الاحداث الوطنية ، ويلجأون الى الشخصية .

ومع هذا فقد استطاعوا أن يضيفوا بأبحاثهم الشكلية مايفيد الفنانين الموضوعيين ، ويثري أعمال الفن النفعي الذي يجمل حياتنا اليومية .

على هذا الاساس يجب ان نأخذ هذه المدرسة في الظروف العادية بحذر شديد ، فلا نرفضها جملة ، ولا نقبلها جملة .

اننا حقا نرفض الارضية الفلسفية الميتافيزيقية التي ترتفع عليها ، القائلة باسبقية الفكر على المادة ، واعتبار الذهن البشري قادراً على خلق اشكال من العدم ، ليس لها وجود سابق في الطبيعة .

سوى اننا ، في نفس الوقت ، نقبل ماتقدمه من تجارب تكنيكية في التشكيل ، لها اساسها العلمي التجريبي .

وتشهد بلادنا في السنين الاخيرة اعمالا فنية ناجحة ، تسعى الى المزاوجة بين القيم التجريدية والقيم الموضوعية ، ابرزها اعمال صلاح عبد الكريم ، واتوقع ان يكون لها المستقبل .

ـ هل يمكن اعتبار هذه المزاوجة ، القيمة الجديدة التي يضيفها الشباب الفنانين الى الحركة المعاصرة ؟

● ليس بالدقة . انما الأفضل ان نقول ان أهم قيمة يتم صياغتها الآن بين شباب الفنانين في مصر ، هي ايجاد الصيغة الملائمة لانصهار القيم الشكلية الراقية التي ظهرت في الفنون التاريخية على المدى مع القيم الانسانية المعبرة عن روح العصر وواقع الحياة ، دون أي قسر من قبل الفنان او تعنت .

ـ بم تعرف الفن ، وما معنى المعاصرة فيه ، وما أسلوبه الأمثل ؟

● الفن عندي محصلة لشكل الحضارة ، ومكونات البيئة الموحدة أو المتناقضة .

والمعاصرة هي ان يستوعب الفنان جيداً كافة ماانتج في عالم الفن ، حتى يستطيع ان يضيف اليه افكاره عن العالم او انفعالاته او احاسيسه .

وليست الفنون القديمة سوى لبنات في البناء الفني الشامخ للتراث الانساني .

ويخطىء من يحدد اسلوبا أمثل للفن . ان كل اسلوب يعبر باصالة عن عن الواقـــع المعاش ، سواء كان ذاتياً او انسانياً او عالمياً ، هو بالضرورة الاسلوب الامثل .

ــ كيف تفسر تعدد الاساليب الفنية في الوسط التاريخي والاجتماعي الواحد ؟

● يرجع السبب الى تعدد وتشعب اتجاهات الفكر العالمي التي يتأثر بها فنانو الوسط الواحد ، في وقت لاتزال فيه حضارتنا في طور التجريب والنمو ، لم تصل بعد الى الصيغة الملائمة الشاملة للتعبير المطابق لروح العصر .

ولكنها بالغة اياه حتما .

ــ الا يمكن ان تذكر اسماء الفنانين الذين تتمثل في اعمالهم الروح الحقيقية للعصر الاشتراكي ؟

● لايوجد حتى الآن فنان يمكن ان يتمثل في اعماله الروح الحقيقية للعصر الاشتراكي ، لسبب بسيط وهو ان هذا العصر لم يتحقق بعد .

ومجيئه سيخلق فنانيه بلا شك .

اما الفنانون المعاصرون ، وخاصة الايجابيين في انتاجهم ، فانهم يقفون عند حد التبشير بهذا العصر .

— ماهو مستقبل الحركة الفنية في ظل الاشتراكية ؟

● هذه مسألة تقديرية بحتة . لاتتعدى حد التنبؤ والحدس . الا انه بوسع الناقد ان يرجح انكماش حجم الفن الخالص ، وربما اضمحل كلية ، واقتصر مكانه داخل المتاحف .

وسيكون من العسير جدا ان يوجد في ظل المجتمع الاشتراكي فنانون ينتجون للمتاحف ، على نحو مايحدث الآن .

اما الفنون ذات الاستخدامات اليومية ، التي تدخل حياة الانسان ، فاني اتوقع لها منتهى الازدهار ، لما تحققه من انسجام مع هدف توفير الرفاهية الاقتصادية لجميع الناس ، عن طريق توظيف الفن في خدمة الحياة اليومية .

— **من الظواهر الطريفة عندنا زيادة عدد الادباء الملتزمين على عدد الفنانين التشكيليين الملتزمين . وبنظرة يمكن ان نلحظ ان الاول ابعد اثرا في حياتنا ، فهل يرجع ذلك الى طبيعة الادوات المستخدمة عند كل طائفة ؟**

● نحن ننتج بشكل عام ، في غير اوقات المعارك الوطنية ، فنا للمتاحف ، كما اشرت من قبل . وقصارى الفنان الملتزم الآن ، من بين فناني المتاحف اولئك ، ان يضمن أعماله (التي لايعرف مصيرها بالضبط) بعض القيم الانسانية والفكرية التقدمية .

لذا كان عدم الالتزام اكثر انسجاما مع هذا الوضع ، لا طبيعة الادوات المستخدمة كما تذكر ، لان حركة الفن التشكيلي لم تحقق للاسف من الشيوع الجماهيري ، ومن ثم بعد الاثر ، ماتحقق للادب .

ويوم ينتج الفن تحت الحاح مطالب الجماهير ، ليس فقط نتيجة الدافع الذاتي للفنان الذي يضرب به احيانا في الفراغ ، سيتعدى عدد الفنانين الملتزمين زملاءهم الادباء ، ويصبح الفن غذاء ضروريا للملايين .

– من اي زاوية يتناول الناقد الآثار الفنية القديمة : مرتبطة بعصرها وحده ، أو قيمة ماثلة في كل العصور ؟

● شغلت مشكلة بقاء وخلود الاعمال الفنيـــة القديمة كل علماء الجمال والفلاسفة والنقاد ، وواجهوا جميعا قضية زيادة الاقبال عليها عصرا بعد عصر .

وفي يقيني ان زاوية الرؤية التي نطل منها على الاعمال الخالدة هي التي ترفع من قيمتها ، لانهـــا بالتعبير الاقتصادي تساوي نفسها عدد السنين التي عاشتها .

اضف الى ذلك الخاصية المميزة للعمل الفني التي تناقض كل السلع الاخرى ، اذ انه لايستهلك بزيادة مريديه ، بل على العكس يشبع خبره ، بتناسب مطرد ، ويزداد المقبلون عليه .

ان سرقة لوحة رويتر في مصر نبهت الاذهان الى القيمة الاقتصادية لاعماله الفنية ، وهو ما لم يلتفت اليه الكثيرون قبل الحادثة الشهيرة ، وضاعفت بالتالي من عدد الجمهور المستعد لدفع رسوم دخول اي متحف يضم اعماله .

ويؤدي هذا بالضرورة الى ارتفاع قيمة هذه الأعمال اقتصادياً وجماهيرياً .

وترتبط الاعمال الخالدة بعصورها التي انتجت فيها ، ارتباط النبت الخاص بالارض الخاصة ، سواء في مجتمع المشاع البدائي على جدران الكهوف ، أو الحضارات القديمة القائمة على اكتاف العبيـــد ، او حضارات البذخ في العصور الوسطى الاقطاعية . .

ولكننا عندما ننظر اليها الآن لا نناقشها من زاوية البيئة التي صيغت خلالها ، ونطبق عليها الأقيسة العلمية والموازين الدقيقة ، بل ننظر اليها كنتاج لفترة الطفولة البشرية ، ونفرح بها كما نفرح بالكلمة الاولى ينطق بها الطفل .

وجلي أن هـــذه الاعمال الصادقة تختلف عن تلك التي قصد من ورائها خدمة الأســـياد .

– اين تقف مفاهيمك عن العالم اثناء استجلاء معاني الاثر الفني ؟

● عندما أشاهد عملا فنياً فانني اتخلى تماماً عن كل النظريات والافكار السلفية التي استوعبتها من قراءاتي ودراساتي ومناقشاتي ، والقي بنفسي في احضان هذا العمل ، انشد الاستمتاع الكامل الذي لا توجهه اي معرفة .

وخلال عملية الاستغراق في الاثر الفني اكون ، بادىء ذي بدء ، حكما اولياً ، احاول بعد ذلك ان اتوصل بطريقة عقلية الى اسبابه .

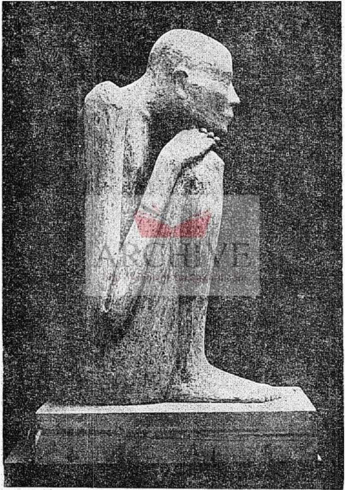
وتتطلب هذه العملية عادة رؤية العمل الفني اكثر من مرة . وافضل ان اقول الالتقاء به أكثر من لقاء ، حتى اتمكن من التوغل في اسراره الباطنية ، واستساغته ، وتمثله .

وبعد ذلك تجيء عملية النقد ، التي يتحول الناقد فيها الى موقف المعرف بالاثر الفني ، المحلل لعناصره .

وهو موقف اعلامي في المحل الأول ، يتضمن جانباً من التقييم ، وجانباً من التوجيه . ولعلنا في هذه المرحلة بحـــاجة الى نقاد يعرفون بالاعمال الفنية ، ويقربونهـا الى الجمـــاهير ، اكثر من حاجتنا الى نقاد يشرّحون العمل الفني ويقاضون الفنانين .

– بوصفك فنانا تمارس الخلق الى جانب الاشتغال بالنقد ، احب ان يكون سؤالي الاخير عن كم التلقائية في انتاجك بالنسبة للوعي والارادة؟

● العملية الفنية عندي عملية متبادلة : تبدأ بالفكرة تخطر على الذهن فاتخيل الشكل الذي سيكون عليه العمل . ثم اصطـــدم عند التشكيل بواقع الممارسة وضروراتها واحتياجاتها .



أهل الأرض – ارتفاع ١٢٠ سم – جبس – لصبحي الشاروني ١٩٥٨

وعندئذ أطلق العنان لكل الكوامن التلقائية في نفسي ، ثم اعودوانافش بعين الناقد مافعلت ، محوراً ومغيراً وفق ماتمليه علي هذه العين الناقدة .

ثم أعود لاسلم نفسي الى التلقائية مرة أخرى ، وهكـــذا .. الخ حتى يستوي العمل بين يدي ويتكامل .

والملاحظ انه بقدر سيطرة العين الناقدة على العمل الفني يخرج متفقـاً ، تنطبق عليه المقاييس المقررة ، ولكن جامداً يكاد يخلو من الحياة .

وبقدر ماتوجهه التلقائية يكون حياً نابضاً ، ولكن على حساب النظريات الجمالية المعروفة .

ومحاولة التوفيق بين العلم والفن ، بين العقل الدارس الواعي والعاطفة الفطرية ، دون التضحية بأحد العنصرين ، هو قضيتي الدائمة التي أعانيها في الخلق .

تصويب

لوحة (صامدون) في الصفحة ١١١ من العدد المـاضي من « المعرفة » ٦٦ (آب — أغسطس ١٩٦٧) كتب تحتها (للفنان صلاح طاهر) ، والصحيح انهـا للفنان حسين بيكار .

الاشتراكيون



أنـدره فيليـب

عرض وتحليل:
د. يوسف شقـرا

في السلسلة السياسية التي تصدرها دار «سوي الفرنسية» للنشر صدر مؤخراً كتاب جديد للمفكر الاشتراكي الفرنسي . اندره فيليب، وعنوان الكتاب هو «الاشتراكيون».

واندره فيليب شخصية معروفة في العالم وفي الوطن العربي فلقد كان من اوائل الاشخاص الذين رفضوا الاستسلام أمام قوات الاحتلال النازية لفرنسا وكان وزيراً للداخليـــة في الحكومة الفرنسية المؤقتة برئاسة الجـــنرال ديغول في لنـــدن وفي الجزائر ، كما كان رئيساً للجنة الدستور للجمعية التأسيسية الأولى بعد التحرير ثم اضحى وزيراً للمالية والاقتصاد منذ عام ١٩٤٦ حتى عام ١٩٤٨ ، وهو حالياً استاذ في كلية الحقوق والعلوم الاقتصادية في جامعة باريز . ومن أهم مؤلفاته « اوروبا الموحدة » و « الاشتراكية التي خنّاها » . لقد دخل اندره فيليب الحزب الاشتراكي الفرنسي منذ عام ١٩٢٠ ولكنه ترك هذا الحزب عام ١٩٥٦ عندما شجب موقف غي موليه من قضية الجزائر ومن المشاركة في العدوان الثلاثي على مصر اثر تأميم قناة السويس ، وانشأ حزباً جديداً اشتراكياً يسارياً .

والكتاب الذي نقدمه لقراء العربيـــة يتحدث عن الحزب الاشتراكي الفرنسي وتطوره والمراحل الحاسمة في تاريخه . فهو يبدأ البحث عن ولادة الحزب الاشتراكي وتأثير جان جوريس الكبير فيه ، وعن الانقسام الذي حل فيه ، وتجربة الجبهة الوطنية بقيادة ليون بلوم ، ومن ثم يأتي على ذكر الانهيـــار الذي مني به الحزب ولاسيا البيروقراطية فيه . وفي النهاية يقترح فيليب حزباً اشتراكياً جديداً اميناً لأخلاقه التقليدية ويتلاءم في الوقت نفسه من حيث التكنيك والتنظيم مع المشكلات التي يطرحها العالم المعاصر .

* * *

ولد الحزب الاشتراكي الموحد في نيسان عام ١٩٠٥ من توحيد عدة جماعات صغيرة ذات اتجاهات سياسية مختلفة كانت قد تكونت منذ عام ١٨٧٠ ، ولكن الافكار الاشتراكية كانت قد عرفت قبل ذلك التاريخ كرد فعل ضد المظالم والآلام التي تعرضت لهـــا الطبقة العاملة من قبل الرأسمالية . والكتاب لايتعرض لمختلف اشكال الاشتراكية الطوباوية التي عرفت من خلال ثورة عام ١٨٤٨ ومن خلال ثورة الكومون لان هذه الاشكال لم ترتبط بحركة سياسية تعبر عن تطلعات العمال ، ولأن الطبقة العاملة الحقيقية لم تبدأ بالظهور فعلا الا اعتباراً من عام ١٨٧٠ وهو التاريخ الذي انطلق منه اندره فيليب لتأريخ الحركة الاشتراكية .

ولن نتدخـــل في تفصيلات الحركة الاشتراكية الفرنسية ولا في الانقسامات التي تعرضت لها ، ولا في خيانة كثير من قادة الحزب الاشتراكي الفرنسي للمبدأ الاشتراكي والاخلاق الاشتراكية ، فذلك لايعني الكثرة

الساحقة من القراء العرب وان عني به بعض الباحثين والمتخصصين، تعنينا قبل كل شيء النتائج التي استخلصها المؤلف من هذه الدراسة والتي سنركز عليها جهدنا في التلخيص لهذا الكتاب القيم في وقت يهمنا فيه تقييم حركة اشتراكية من قبل احد كبار قادتها ومؤسسيها بغض النظر عما جاء في الكتاب من آراء تستدعي المناقشة .

* . *

١ ــ الثورة الزراعية :

ان المشاهدة الاولى التي تلفت النظر هي الاهمية القصوى للمشكلة الزراعية . ولقد لفتت الزراعة انظار الاشتراكيين قبل الحرب العالمية الاولى وحدد الحزب الاشتراكي برنامجه الزراعي الذي يقوم على تأميم الملكيات الكبيرة وعلى الدفاع عن صغار الفلاحين وعلى تعدد التعاونيات الزراعية .

ولم تعرف فرنسا الثورة التقنية الزراعية التي عرفتها بريطانيا في القرن الثامن عشر والتي انطلقت من الاملاك الكبيرة ، كما انها أهملت الأخذ بالثورة الزراعية الثانية في القرن التاسع عشر التي طبقتها كل من الدانمرك وهولاندا بنجاح، أعني بها الانتقال من زراعة الحبوب الى تربية الحيوانات ، أما اليوم فان البلاد بأسرها تلتزم ثورة جديدة تطبق العلم على الزراعة وتستخدم الاسمدة استخداماً كثيفاً وتستعمل البذور المنتقاة بالاضافة الى المكننة الزراعية .

ونتيجة لذلك زاد الانتاج الزراعي خلال السنوات الخمس الاخيرة بمعدل ٩٪ سنوياً كما زادت الانتاجية بمعدل ٤,٥٪ بالغة بذلك رقماً أعلى من الازدياد المتوسط للانتاجية الصناعية . ولما كان الاستهلاك الوطني لايزداد بالنسبة ذاتها فينتج من ذلك حالة مزمنة من الانتاج الوطني الفائض مما يتم اللجوء باستمرار الى التصدير وبخاصة الى البلدان الاوربية . وثمة ميل أيضاً الى تخفيض نسبي للاسعار الزراعية بالنسبة الى الاسعار الصناعية مما يؤدي ، ان لم يكن الى انخفاض في الدخل الزراعي ، فالى تقدم أبطأ من التقدم الحاصل في الدخول الاخرى .

ونتيجة لذلك حصل تحول عميق للبنى الاجتماعية في الريف اذ بدأ الصناعيون في ادراك الفائدة التي يجنونها من استثمار رساميلهم في عمليات زراعيــــة . ولقد شاهدنا ظهور مشروعات صناعية تتحرر شيئاً فشيئاً من الارض ولاسيما في ميدان تربية الدواجن وتربية الخنازير .

ولكن الجيل الجديد من الريف قد غير عقليته، فبينما كان آباؤه لايفكرون إلا في توفير المال لشراء الأراضي الـــتي لايستطيعون استغلالهـــا بكفاية لنقص الوسائل وكانوا يرون اللجوء الى القروض عاراً ، فان الشباب لايترددون في الاستقراض ليحصلوا على

رأس المال اللازم للاستغلال . وعلى النقيض من آبائهم فانهم لايعنون بشراء الأراضي مكتفين بان يكونوا مزارعين اذا توافر لهم الأمن واذا كانت أجرة العقار الـتي يدفعونها قد حددها القانون .

وثمة عدد منهم يبيعون مالديهم من حصة في الاراضي ويقيمون في المدينة كصناع وتجار صغار وموظفين عندما يلاحظون عدم كفاية الدخل الذي يحصلون عليه . ولقد انخفض عدد السكان الزراعيين من الذكور عام ١٩٥٤ وعام ١٩٦٢ من ٣٥٠٠٠٠٠ الى ٢٥٧٧٠٠٠ كما انه يغادر الريف بين ١٥٠ - ١٦٠ الف مزارع سنويا . ومن يبقى منهم يفكر اما بشراء الأراضي التي شغرت أوباستئجارها ويطلبون تطبيق حق الشفعة لهم عليها ، ولما كانوا يلاحظون ان الوسطاء الكثيرين هم الذين يتحكمون بسوق المواد الغذائية وان المرابح تتحقق من جراء تحويل المحصول الغذائي وتوزيعه بشكل أفضل مما هي عليه في انتاجه ، لذلك فانهم يكثرون من تعاونيـات البيع والشراء ويتعاملون مباشرة مع لجان المصانع وتعاونيات الاستهلاك في المدن .

ومن جهة أخرى لم يعد الناس يبحثون عن الأرض كوسيلة للزراعة وحسب بـل اصبحت في الريف ايضاً هدفاً لمضاربات عقارية من اجل توسيع الطرق او اقامة المباني، مما زاد في قيمتها وادى بالتالي الى زيادة تكاليف الانتاج الزراعي . ولهذا فان عدداً من الفلاحين الشباب أصبحوا يطالبون بتأميم الأرض التي يمكن ايجارها الى مزارع من اجل الزراعة او الى تعاونية من اجل اقامة المباني مادامت تعود للمدينة اوللمنطقة او للدولة .

اننا نشهد اذن ولادة إشتراكية زراعية تنظر الى الزراعة كمهنة منظمة على اساس تعاوني في اطار من خطة اوربية للانتاج الزراعي . ان هؤلاء المزارعين الشباب يطالبون حقاً بتدخل السلطات الأوربية العامة في تحديد الحد الأدنى من الأسعار . ولكن أهم من ذلك ، فيما يبدو لهم ، انما هو التربية المهنية والاعداد التقني والمساعدة في جعل الريف حديثة وعصرية . ان إشتراكية الأرياف هذه اذا مار بطناها بالثورة التقنية الجديدة تبدو قوة مبدعة مستقلة. والفلاحون الشباب يرون ان يصنعوا خلاصهم بأيديهم بخلق مؤسساتهم الخاصة بهم. ولا تتدخل الدولة، وهي الدولة الاوربية طبعاً ، إلا باعداد الخطوط الكبرى للتشريع والا بتهيئـة الاطار الخاص بتشجيع مبادهاتهم .

٢ ـــ تطور الصناعة والثورة التقنية :

وفيما يتعلق بالصناعة تظهر تحولات أخرى .

آ ـ تصدع الحرفيين التقليديين :

لقد تجمعت الأسر الكبرى التي حقق

تمويلها الذاتي في القرن التاسع عشر النمو المنتظم والبطيء للانتاج في شركات مساهمة تجاوز تمركزها المالي والتقني الحدود المألوفة. وفي الصناعة الحديثة لم يعد رب الحرفة متعهداً فردياً ولكنه أضحى منسقاً لأعمال تقنيين متخصصين . وأضحت الصفات التي تطلب منه مماثلة لصفات تطلب من وزير مسؤول عن ادارة فهو يعطي توجيهات عامة الى فرق مسؤولة . واخيراً فهو ينفصل شيئاً فشيئاً عن الادارة التقنية لمصنعه الذي عهد به الى معاونيه ويكرس قسماً كبيراً من وقته لمجالس الادارات الدولية او الى نشاط الجماعات فيما يتعلق بالعمل بين المهن ذاتها ، ذلك لأن القرارات الأساسية التي يتعلق بها مشروع مصنعه انما تتخذ هناك .

أما المالك النظري – واعني به المساهم – فلا يقوم في اتخاذ هذه القرارات بأي دور جدي . فهو يجهل غالباً كل شيء عن القضية ويكتفي بان ينتظر ارتفاع السهم الذي يملك نتيجة المضاربة او ان يتلقى بانتظام الربح السنوي عنه . اما الموجهون الحقيقيون للأعمال الكبرى فهم غير أولئك ، وهم ليسوا مساهمين او هم مساهمون بمبالغ ضئيلة حصلوا عليها احياناً عن طريق القرض . انهم يؤلفون ارستقراطية تستهدف الربح لا بغرض الربح ذاته وانما كدليل على حسن الادارة . وما يعنيهم انما هو التعبير عن شخصيتهم بممارسة السلطة التي ترتبط بالتقدم العام للمشروع الذي اندمجوا فيه . ولما كانت لهم مصالح عديدة متناقضة احياناً فانهم يرتفعون شيئاً فشيئاً الى مستوى المصلحة العامة .

ولا شك ان هذه النظرة انما هي نظرة خاصة ومالية الى المصلحة العامة فهم يعتادون على عقد المساومات مسترشدين بآراء مساعديهم بدلاً من فرض طاعتهم ومن الدخول في حوار مع زملائهم .

وباعتبارهم قد تخرجوا من مدارس كبرى ، يجدون أمامهم موظفين أعدوا الاعداد نفسه ، ولكنهم يعالجون المشكلات من وجهة نظر أعم آخذين بعين الاعتبار مصالح المجتمع الطويلة الأجل ، ويتحقق عندئذ نوع من التآلف بين المجموعتين .

لقد تحدثوا عن هـــذا الموضوع من التقنوقراطية ، حتى ان الكاتب الأمريكي برونهام قدم النظام التقنوقراطي المستبد كنتيجة من اكثر النتائج احتمالاً – بل واكثر من الاشتراكية – لانهيار الرأسمالية التقليدية .

ولكن هذا التطور ليس حتمياً فالتقنيون والاداريون سواء كانوا من القطاع الخاص أو القطاع العام لا يؤلفون حقـاً في الوقت الحاضر طبقة اجتماعية بل مجموعة من الزمر لها مصالحها ومشاغلها وآراؤها المتخالفة . ولئن شعروا بقيمتهم وباحتقارهم للجهلة (وبخاصة للبورجوازيين التقليديين واصحاب العقارات والأدباء) واضعين انفسهم بهذه الصورة

ضمن إطار اشتراكية سان سيمون، فان رغبتهم تزداد في تولي الخدمة العامة لمجرد ان يعطوا لوجودهم معنى . ويمكن ان نتجنب السقوط في التقنوقراطية — كما يقول ليون بلوم — اذا تم انتقاء المديرين بشكل ديموقراطي وخضعوا لرقابة المواطنين . فاذا اردنا في الحقيقة ان نتجه نحو ديمقراطية صناعية فينبغي على المواطنين ان يصبحوا جديرين بفهم مشكلات الاقتصاد الحديث ؛ ونستطيع ان نجعل التقنوقراطيين ديموقراطيين اذا توصلنا في الوقت نفسه الى جعل الديموقراطيين تقنوقراطيين .

ب — ان هذا التوجيه للأطر التقنية التي ركزت عليه الثورة الصناعية الجديدة والذي بدأ في الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي قد دخل اوربا الآن ؛ انه مرتبط بالتسارع العام للمواصلات وبالتغيرات الحاصلة في استخدام الطاقة وبالتقدم الآلي بخاصة لأن الآلات الحاسبة الالكترونية تسمح باستبعاد تدخل الانسان في كل ما له علاقة بتنفيذ الانتاج . والأمر هنا لا يتعلق بزيادة انتاجية العمل البشري بتوجيهه الى آلية اكثر تعقيداً ، وانما باستبعاده نهائياً عن تنفيذ العمل وحتى عن مراقبته . واصبحنا ننظر الى الآلة منذ الآن ، لا على اساس انتاج ينبغي ان يصنع ، وانما على أساس وظائف ينبغي ان تنفذ . اننا امام مرحلة كيفية جديدة تسمح بالتحدث عن ثورة صناعية ثانية .

ح — ولكن ما هي نتائج التطور الراهن لجميع من يؤجرون والذين ازداد دخلهم في فرانسا خلال السنوات العشر الأخيرة من ٥٢،١ الى ٦٤،٩٪ من الانتاج الوطني الصافي؟

١) هل ستخلق الثورة الصناعية الجديدة بطالة دائمة ؟

ان هذا التشاؤم لا مبرر له في اوربا خلال المرحلة الراهنة وما من شك في ان ثمة مشكلات جدية بدأت تظهر من حيث طغيان صناعات جديدة على صناعات قديمة اذ حلت مثلاً الطاقة في معظم الأحيان محل الفحم واصبح من الضروري ان نؤمن للعمال الذين اضطروا الى الانتقال دخلاً مضموناً وان نوجد لهم وظيفة جديدة ، سواء اكان ذلك في الصناعة ذاتها في منطقة اخرى او في صناعة اخرى في المنطقة نفسها وهذا أفضل مع تأمين ملاءمتهم المهنية .

ان المثال الأمريكي يوضح انه في مرحلة متقدمة من الآلية تبدأ مشكلات اكثر خطورة في الظهور ، لا لأن الوسائل التقنية الجديدة تخلق البطالة في الصناعات التي تستخدمها فهذه الصناعات ترسل الفائض عن حاجتها من العمال الى قطاعات اخرى وتنقص مدة العمل وتقدم السن المحدد لتقاعد العمال دون ان تستبدل فهذه آخرين . ان الصناعة المتقدمة تقنياً تنزع الى عدم استخدام العمال موجدة نوعاً من البطالة ليس لديها وانما في الخارج وفي المصانع المنافسة التي تقضي عليها وبخاصة

لدى الشباب الذين لا يحصلون على العمل الا بصعوبة تزداد يوماً عن يوم .

ان الصناعات الجديدة تفتقر الى اطر والى تقنين ، والى عمال يتمتعون بثقافة تقنية عامة وكافية تمكنهم من التلاؤم مع وسائل العمل المتغيرة باستمرار . وهي تسعى الى اعدادهم مهنياً والى ربطهم باجور مرتفعة اكثر وبشروط أفضل للعمل .

وفي الصناعات والمصالح الأخرى تتركز يد عاملة ضعيفة الاعداد ، بينما تظل شروط عملها ومدته في المستوى الراهن ذاته . ومع ذلك فان الأجور التي تشهد نمواً اضعف من نمو اجور القطاع الآلي ستسير مع حركة المجموع وستشهد ارتفاعاً اعلى من انتاجية قطاعها الخاص مما سيؤدي الى ارتفاع الأسعار . ويصبح اذن من المحتم ، رغم صعوبة ذلك ، العمل على تحقيق التوازن بين العرض والطلب لمختلف القطاعات اذا اردنا تجنب الأزمات الاجتماعية الخطيرة . وينبغي بشكل خاص ان نؤمن لجميع العمال الشباب اعداداً تقنياً عاماً يتجاوز تعـــاليم المهن المنقرضة والاختصاصات التي لم تعد متلائمة مع الوضع الجديـــد فيما اذا اردنا ان نكون في الوقت المناسب الطبقة العاملة الجديدة التي تتطلبها الصناعة الحديثة .

٢) نلاحظ ان العامل المختص في فرانسا ما يزال يؤلف في الوقت الحـــاضر النسبة الكبرى من العمال في مجموع الصناعة الفرنسية ، وان تكن هذه النسبة هي أقل مما هي عليه الحال في الولايات المتحدة الأميركية . بيـد ان وضع العامل الفرنسي وحالته النفسية قد تبدلا نوعاً ما ؛ فلقد عاشت الطبقة العاملة الفرنسية زمن النقابية الثورية مع الفكرة القائلة –بأن العامل بسبب من معلوماته المهنية– يستطيـع ان يستلم ادارة الصناعة . ولقد كان ذلك في عصر تسود فيه صيغة تقول ان «المعمل سيحل محل الحكومة». ووثق العامل بعدئذ بـ« التأميم » كوسيلة تبدل نظام حياته. فلقد كانت التأميمات نجاحاً تقنياً ضخماً ولكنها كانت ايضاً فشلاً اجتماعياً ؛ بمعنى ان العامل لم يشعر بتحول ما في علاقاته السيكولوجية بالمهندسين والرؤساء الذين يلقون اليه بالأوامر ، لذلك نقل امله الى الثورة الروسية وارتبط بالشيوعية . ونلاحظ اليوم أن على روسيا ايضاً ان تواجه المشكلات نفسها ، ليس فقط من حيث التنظيم الاقتصادي ، وانما من حيث العلاقات الاجتماعية ايضاً .

لقد أبانت بعض الدراسات التي اجريت حديثاً ، أن الحالة النفسية للعامل المختص هي شعوره بالارتباط وبالتبعية وعدم الاعتبار . واكثرية الطبقة العاملة تسعى الى ان تترك وضعها الذي يجعلها تابعة للآخرين لأن رمز النجاح الاجتماعي بالنسبة لها انما هو قدرتها على ترك المصنع لكي تصبح سيدته .

ان ردود الفعل الاساسية لهذه الفئة العاملة محافظة بشكل عام . ففي بلد يحيا في اوج تحوله التقني –الذي يستلزم اعداد بنى جديدة

باستمرار – يشعر العامل المختص بالحذر من اي تغيير قد يُضعف العمل. انه يخشى الصعوبات الجديدة مفضلاً توزيعاً مختصراً للعمل بين جميع عمال المصنع على ان يترك بعضهم العمل ولو اعطوا اجوراً اعلى ومساكن افضل في مكان غير المكان الذي اعتادوا ان يحيوا فيه وان يعملوا فيه . ومثل هذا الخوف من فقدان العمل يدفع بالعامل الى ان ينظر الى العامل المهاجر القادم اليه نظرته الى منافس خطر .

ذلك يقودنا الى نتيجة محزنة هي : انه اذا كانت الاوساط الريفية تؤدي الى ولادة نخبة فتية من المزارعين ذوي النزعات الاشتراكية واذا كانت الأطر تبدو لطبقة مأجورة صاعدة مجددة ومبدعة، فان الاكثرية من دول الغرب في الوقت الحاضر ايضاً الطبقة العاملة يشكلون عنصراً سلبياً ثائراً ضـد النظام العام للصناعة الكبرى، ويحلمون بالعودة الى الصناعة اليدوية الصغيرة والى التجارة الصغيرة السائدة قبل الثورة الصناعية .

وهذه الطبقة التي تنفصل عن المشكلات الحقيقية التي تطرح في الاقتصاد المعاصر لا تتمتع بالميل المبدع ولا بامكان العمل الحقيقي والجدي من اجل تحويل البنى المعاصرة . انها تمثـل قوة محافظة يهددها التقدم التقني في وجودها ذاته رغم استعمالها الصيغ الانشائية الثورية . فمن الواجب ان نساعدها – وبخاصة عنصر الشباب منها – كي تجتاز مرحلة انتقال صعبة وتتلاءم مع عالم جديد . ولكن قوة تغيير البنى الاجتماعية لن تصدر عنها وانما ستصدر بالاحرى عن المزارعين وعن الأطر الجديدة ».

٣ - نموذج المدنية :

درسنا أشكال التقدم التقني الحديث ونتائجه على النمو . بيد اننا لانستطيع ان نمنع انفسنا من طرح السؤال التالي : ولكن ماهي غاية النمو ؟

لعل ما يستدعي الانتبـاه ان الثورة الصناعية الاولى – سواء تلك التي حصلت في العالم الغربي او من بعده في اليابان ومن ثم في الاتحاد السوفياتي – قد رافقها بؤس رهيب طغى على الطبقات الكادحة رغم انها كانت تعبر عن نفسها في فلسفة عامة تثق بالحياة وتتفاءل بالتقدم. ان ثورتنا الثانية حملت معها في الغرب وفي كل مكان تحسناً ملموساً في مستويات الحياة ومع ذلك فانها تتابع السير في جو عام من التذمر ومن اليـأس في الغالب ومن فلسفة العدم ؛ وسواء أكان ذلك في الولايات المتحدة الامريكية أم في الاتحاد السوفياتي او في اوربا ، فان الأجيال الجديدة تثور وتشك في اسس المدنية ذاتها التي اقترحت لها تارة عن طريق المبالغة في صفاتها وتارة عن طريق انكار

هذه الصفات اطلاقاً . ذلك لأن هذا التقدم يتحقق بشكل اساسي في قطاعات لاتتلاءم مع المنافع التي رغب فيها الناس . فالناس يشعرون بالحاجة الى بعض المنافع والمصالح (السكن ، التربة ، الصحة ، الهدوء ، الهواء النقي ، الماء غير الملوث ، المساحات الخضراء ... الخ) .

وفي الصناعة المتقدمة يسرعون في الانتاج ويسعون بعدئذالى تصريفه باثارة الطلب بشكل كيفي على محصولات لا يشعر المستهلكون انهم بحاجة اليها . وتطمث اماكن الراحة التي ينبغي ان تكون ملاذاً لمن يقومون بمبادهات فردية تنظيماً يستهدف الربح التجاري واكتشفت دور الاسطوانات اشخاصاً لا صوت لهم ولا موهبه وحببت بهم الجيل الجديد من الفتيان الذين يأسرهم كل طريف وشاذ .

واثارت شركة الاستهلاك لدى كل فرد غريزة الاقتناء ، وقذفته نحو عالم مجهول ووضعته في موضع يتصرف فيه على هواه مما يحطم شخصية الانسان ويقضي على الغريزة المبدعة ، ويمكننا ان نتساءل ما اذا كان ذلك لا يؤدي الى ايجاد الوان خطيرة من الفوضى النفسية والاجتماعية نشهد اعراضها في الولايات المتحدة الامريكية (الانتحارات، الامراض العصبية ، استعمال المخدرات..الخ). ومهمتنا الرئيسية اليوم ان نتفق على اهداف محددة مشتركة تلائم شكلا من اشكال المدنية وان تنظم الانتاج والاستهلاك على السواء في سبيل خدمة هذه الأهداف . فلقد وصل العالم الى مرحلة يستطيع معها ان يعيد المعجزة اليونانية من جديد. وقامت مدنية هذا الشعب التي هي اساساً فكرية وعلمية وفنية على عمل العبيد ولكننا نملك الان آلات بدلاً من العبيد تسمح بان نحرر قسماً متزايداً من يدنا العاملة ومن عقلنا من اجل نشاطات تربوية ؛ ولكن لا ينبغي ان يخضع المستهلكون في سبيل ذلك الى دولة هائلة القوة تتخذ القرارات بدلا منهم، كما لا ينبغي ان تسودهم دعاوة تجارية عدوانية تدمر شخصيتهم وتعدم امكانات المحاكمة لديهم.

لقد اخضع البرابرة الرومان – الذين لم يكونوا يعرفون الا غزو العالم بقوام العسكرية وبثرواتهم بلاد اليونان – وشرعوا في افساد اولئك الذين لم يتمكنوا من اخضاعهم. وفي نهاية الامبراطورية الرومانية كان الشعار العام انما هو « القمح والعاب السيرك مجاناً للجميع » . فلا ينبغي ان يكون الشعار بالنسبة لنا هو الآلية ولا الحرية غير الملتزمة ولا المدنية الزائفة التي تقدم لنا على الصورة الأمريكية .

وفي الوقت الذي تتعرض فيه البنى الاجتماعية للارتباك عن طريق الثورة الصناعية الجديدة فان حادثتين خارجيتين هامتين هما موضع الدراسة ألاوهما يقظة العالم الثالث ووحدة اوروبا .

يقظة العالم الثالث :

إن اشد المشكلات خطورة في عصرنا هي علاقتنا مع ما يسمى بالبلدان السائرة في طريق النمو او

ببلدان « العالم الثالث » . أي بعدد من البشر يبلغ مليارا ونصف المليار نسمة وهو اكبر من نصف البشرية ، يسعى بعد أن عاش قروناً من البؤس الرهيب وبعد ان خضع للسيطرة الاستعمارية الغربية ، لمعرفة الاقتصاد الحديث. ولكن ذلك صعب جداً بالنسبة لهؤلاء السكان لأنهم ينطلقون في الواقع من مستوى ، اقتصادي وسياسي ، وغالباً ثقافي ، ادنى من المستوى الذي عرفته اوروبا عندما قامت ثورتها الصناعية . ولئن تلقوا من البلدان المصنعة معونة ما ، هي في الاصل غير كافية وغير موجهة الوجهة اللائقة ، فانهم يعانون من تبدلات اسعار موادهم الاولية ويصطدمون بسيطرة الاحتكارات الرأسمالية على السوق العالمية مما يوجد عقبات يصعب التغلب عليها في الغالب امام نموهم الاقتصادي . ان معظم بلدان العالم الثالث حصلت على استقلالها مؤخراً بعد سنوات عديدة من النضال القاسي في اغلب الاحيان ولكنه مع ذلك قصير . لقد وجدت الدولة المستقلة قبل أن تشعر الامة بوجودها. اما الحقيقة السوسيولوجية فهي عبارة عن تضامن عائلي وقبلي ، ومازال العمل الذي كان قاصراً على العبيد محتقراً . اما السلطة السياسية فتعتبر كوسيلة لخدمة نفوذ الاسرة الموسعة وقوتها عن طريق التعاطف العائلي والرشوة . وعندما ينجح فرد في الادارة او في الحياة الاقتصادية في زيادة دخله ، يجد إنه محاط بعدد من الأقرباء يعيشون في منزله ويبددون ثرواته . ولهذا فانه لايوجد حتى الآن اية مجموعة يستطيع ان يخرج منها اي صاحب مشروع خاص وقوي ومدخر ومبدع ، فالدولة وحدها بفضل نفوذها وسلطتها تستطيع ان تفتح او أن تفرض عند اللزوم بداية النمو الاقتصادي . وفي هذه الشروط يصبح من المحال ادخال قواعد الديموقراطية البرلمانية المطبقة في الغرب الى هذه البلاد . فالذين تم انتخابهم على هذه الصورة يصبحون طبقة من المنتفعين يشترون الاصوات ويدافعون عن مزايا اسرتهم . واذا كان ثمة تعدد في الاحزاب فسيصبح كل حزب ممثلاً للمصالح المحلية للقبائل. ومصالح القبائل تقود الى الفوضى والى عودة البربرية. فلكي يحصل تقدم ويتم فرض التضحيات الضرورية على الجميع ويشرع في الادخار ، يجب أن تبحث عن سلطة قوية توضع في ايدي قلة كرست نفسها للبحث عن المصلحة القومية وحدها . فقد يكون ذلك نظاماً دينياً على مثال رهبان القرون الوسطى ، وقد يأخذ شكل حزب وحيد يكون الانتساب اليه ضعيفاً ، كما يمكن ان يأخذ شكل جيش اعتاد افراده على حياة قاسية وانضباطية وتم تطويعهم من جميع القبائل والمناطق بحيث يستطيعون ان يدركوا المصلحة القومية وان يفرضوها .

وهذه البلدان تتكون بنسبة ٨٠٪ من فلاحين يمارسون زراعات تقليدية قديمة . وعندما تنشأ مدن في الشواطىء يهرع اليها قسم من السكان يعيشون من اعمال صغيرة او

من التسول او من السرقة عندما لاتكون هناك فرص العمل . وسرعان مايعود هؤلاء من جديد الى قراهم والى رحمة مجتمعهم الأصلي بعد ان وقعوا فرائس للبطالة .

لذلك فان اي تقدم اقتصادي يتطلب في الأصل تربيـــة الفلاحين لتحسين وسائلهم التقنية وايجاد تعاونيات للتخلص من سيطرة المرابي والتاجر وتحسين الصناعة الريفية والحث على ايجاد مشروعات صغيرة تنتج الآلات ووسائل الاستهلاك الضرورية للمزارعين ، كل ذلك في اطار الحلة اولاً ومن ثم في اطار المنطقة . والامر لايتعلق بداية في ايجاد مشروعات صناعية كبرى ولا في ادخال الوسائط الاوروبية في الزراعة بتجارب الزراعة المستندة الى الآلة ، سواء كانت تلك الـــتي تتعلق بالفول السوداني في تانغانيقا او الرز او القطن في النيجر ، قد أفضت إلى الفشل . ويجب ان ننطلق من وسائل الزراعة التقليدية ونحسنها شيئاً فشيئاً حتى نحقق التقدم . ولكن ذلك يفترض ان يمتلك الفلاح لنفسه محصول جهده . ولكن في عدد كبير من البلاد — وفي امريكا اللاتينية بخاصة — يقوم النظام الزراعي على نوعين من الاراضي : نوع ضيق صغير لايكفي لاعالة الاسرة ، ونوع واسع ضخم يترك اصحابه الاقطاعيون القسم الاعظم منه بوراً بحيث يمكنهم ذلك من استخدام المزارعين على شكل مستأجرين يحيون حياة قريبة من حياة العبيد . ففي هذه البلدان لابـــد من ثورة زراعيـــة تطرد بالقوة وبـــدون تعويض المالكين الاقطاعيين ، وهذه الثورة ينبغي ان تسبق بالضرورة اي نمو اقتصادي .

أما الصناعة الحديثة فيمكن ان نخلقها شيئاً فشيئاً في المناطق الساحلية على ان نستعيض عن عدم كفاية السوق الداخلية بفتح اسواق مضمونة على الصعيد الدولي . ولكن انتقاء هذه الصناعات لاينبغي ان يترك لرأسمالية أجنبية لاتعنى إلا بالحصول على الربح السريع الذي سترسله الى بلدها الاصلي . فالصناعة ينبغي ان تستهدف استخدام المواد الاولية المصدرة حالياً في امكنة استخراجها وان تستعيض عما تستورده من ادوات الاستهلاك التي ترهق ميزان المدفوعات ارهاقاً شديداً .

واذا كان لابـــد من استخدام الرأسمال الاجنبي فلا يجب ان يكون ذلك الا ضمن خطة وضعها البلد نفسه آخذاً بعين الاعتبار مصلحته في الأمد البعيد . وستكون هذه الخطة في البدء غير ملائمة لأنها لاتستند الى احصاءات . وبعد تكرار الفشل والتصحيح واعادة النظر يمكن ان تقدم الخطة الثالثة أو الرابعة قيمة حقيقية لتوجيه جديد للقوى المنتجة في البلاد .

ولكن هـــذه البلاد تصطدم في بحثها عن بداية نمو اقتصادي بعقبات اضافية لم تعرفها اوروبا في القرن الثامن عشر ، وهذه العقبات ناجمة عن التفاوت في القدرة الاقتصادية بين العالم الثالث والبلاد المصنعة سواء أكانت هذه البلاد الولايات المتحدة الامريكية أو أوروبا

او الاتحاد السوفياتي . وكما انه انشيء في اوربا وفي امريكا الشمالية في القرن التاسع عشر ضريبة تصاعدية على الدخول — حيث كانت تستخدم — لتمويل النفقات ذات الصفة الجماعية (المرافق العامة، التربية، المستشفيات) ولكي تؤمن الى الطبقات الفقيرة حداً ادنى مضموناً من الدخول — ينبغي ان ننظم الآن على الصعيد العالمي انتقال بعض ثروات البلدان الغنية الى البلدان الفقيرة . ولقد اقترح مؤتمر للتجارة والتنمية بتحريض من الوفد الفرنسي — كبداية للعمل — ان يخصص ١٪ من المحصول الوطني الخام للبلدان المصنعة لمعونة العالم الثالث. ولكن فرنسا كانت البلد الوحيد الذي احترم هذا التعهد . وينبغي ان تكون هذه المعونة ثابتة لا تتعلق بتصويت عليها من البرلمان ، كما ينبغي ان تمنح لجميع اولئك الذين يبذلون جهداً حقيقياً للتقدم بغض النظر عن الانظمة الاقتصادية او السياسية التي يطبقونها في الوقت الحاضر . وينبغي ان يراقب استخدام الاموال بواسطة منظمة دولية وان تكون اشكال المعونة موضوع عقود بين مجموعات من البلدان المانحة والبلدان المستفيدة بعد فحص ومناقشة مشتركين لخطة التنمية الاقتصادية التي وضعتها البلدان الاخرى .

واخيراً ينبغي ان نأخذ بعين الاعتبار ان المعونة ذاتها يمكن ان تكون لها نتائج سيئة . ومن اهم اشكال المعونة المجدية هو التعاون الفني الذي يسمح بتكوين تقنيين فنيين ومدربين للجيل الجديد في البلدان المتخلفة . وهذه المعونة تكون ممتازة عندما يكون اولئك الذين ينفذون المعونة جديرين حقاً بأن يخدموا البلد الذي قدموا لمساعدته وان يتلاءموا مع عقليته .

الوحدة الاوربية :

لم يعد ثمة سياسة اشتراكية ممكنة في الاطار الوطني لدى البلدان المصنعة ، ذلك لأن البلاد أضحت صغيرة بشكل يصعب عليها فيه الافادة من تقسيم العمل ومن التخصص ، وبخاصة الافادة من الاسواق الواسعة الضرورية لصناعة حديثة . ولقد جرت خطوات حاسمة متقدمة في هذا الاتجاه منذ اثني عشر عاماً . ان المجموعة الأوربية للفحم والصلب كانت تتمتع بصلاحية تنظيم اسواق هاتين الصناعتين، كان معاهدة روما توقعت انخفاضاً في الرسوم الجمركية واقامة تعرفة مشتركة بين بلدان المجموعة الستة . ونحن اليوم مستعدون في الواقع لتحقيق وحدة جمركية نهائية على الصعيد الصناعي ، كما انه بمبادرة من فرانسا أعدت نهائياً سياسة زراعية مشتركة . ولكن الولايات المتحدة الامريكية بادرت منذ ثلاث سنوات الى اجراء مفاوضات تستهدف تخفيض ٥٠٪ من التعرفات الجمركية لمختلف البلدان ، مما سيؤدي الى انحلال الوحدة الجمركية الاوربية في منطقة واسعة من التبادل الاطلسي الحر تجري فيها بحرية تامة حركة البضائع والرساميل، مما سيجعل من الصعب القيام بتخطيط وطني .

ومن الواضح انه يصعب على اشتراكي ان يقبل بتخفيض الرسوم، مالم يترافق ذلك في الوقت نفسه بتحقيق تقدم حاسم في طريق التكامل الاقتصادي التام لأوربا.

ان هذا التكامل يفترض، بالاضافة الى الوحدة الأوربية، تنسيقاً للمواصلات ولمجموع القوى المحركة وللسياسة التقدمية وللخطوط الكبرى للتخطيط وبخاصة فيما يتعلق بتنسيق الاستثمارات والسياسة التجارية الخارجية للبلدان الستة.

ولا يتحقق ذلك إلا في ظل سلطة اقتصادية تسود القوميات وتمتلك وسائل البحث والقرار والمراقبة الكفيلة باتخاذ قرار حول توجيه سياستنا المشتركة. ولن نصل الى ذلك إلا عن طريق مفاوضات طويلة بين حكومات مستقلة تؤدي الى اجراء تسويات بين المصالح الوطنية دون ان تأخذ بعين الاعتبار المصلحة الأوربية المشتركة. ان الوحدة الإقتصادية تؤدي وستؤدي حتماً، عاجلا أو آجلاً، الى وحدة سياسية عن طريق الانتخاب المباشر والإقتراع العام الاوربي للجنة الموحدة، على ان تراقبها جمعية منتخبة عن المناطق او عن البلدان من خلال انتخابات اوربية. ولكن من دواعي الاسف ان هذه الوحدة السياسية غير ممكنة في الوقت الحاضر بسبب الخلاف العميق القائم بين البلدان الستة حول بعض المسائل الاساسية.

١) ان أهم مشكلة عالمية معاصرة انما هي العون المجرد والجدي الذي يقدم الى البلدان النامية عن طريق تنظيم سوق المواد الغذائية ذات المنشــأ الاستوائي، واعطاء الافضلية للمنتوجات الصناعية التي ينتجها العالم الثالث وفرض ضريبة عالية على الدخل لتقديم حد ادنى من الموارد لصالح هــذه البلدان. ولكننا نصطدم هنا بالولايات المتحدة الامريكية التي ظلت أمينة على المبدأ الذي آمنت به منذ القرن التاسع عشر وهو المحافظة على حرية العمل، والى المعونة المستندة الى اعتبارات سياسية والى تشجيع حضارة الاستهلاك في العالم الثالث لأنها مرتبطة بالاستثمارات الخاصة الامريكية. وفي اوربا تسير كل من المانيا وهولندا على المنوال نفسه، أما البلجيكيون والايطاليون فترددون. وتبقى فرنسا وحدها تبحث عن أساليب سياسية اشتراكية في علاقاتها مع العالم الثالث.

٢) اما في امريكا اللاتينية فلا يمكن القيام بأي اصلاح في الوقت الحاضر قبل اجراء ثورة زراعية تقضي نهائياً على اقطاعية المالكين العقاريين. ولكن مصالح الشركات الامريكية مرتبطة بهذه الاقطاعية كما ان جميع محاولات الاصلاح الديموقراطية — على بساطتها — كانت تجد امامها سواء كان ذلــك في سان دومينيك او غيرها، تدخل القوات المسلحة الامريكية لكي تكرس بقاء الوضع الراهن على ماهو عليه. ان منظمة الدول الامريكية والتحالف من أجل التقدم بسبب من تفاوت القوى بين الولايات المتحدة الاميركية وأمم اميركا الجنوبية الصغيرة، قد اصبحا أداة للاستعمار الجديد الذي يقف حائلا دون أي تقدم. ومامن مخرج امام ذلك الا في وحدة

اقتصادية لمجموع بلدان أمريكا الجنوبية ، ذلك لان هذه الوحدة هي وحدها التي تستطيع ان تعطي شعوب امريكا اللاتينيـــة القوة الضرورية لمفاوضة جارتها القوية في الشمال .

٣) واخيراً فان الوضع في آسيا يضع السلم العالمي كل يوم في خطر . فالتدخل الامريكي المسلح في فيتنام ، وما يؤدي اليه من نتائج خطيرة في مختلف الميادين ، لا يمكن ان يقره اي اشتراكي . وما من مخرج لهذا المأزق الا عندما يوقف الامريكيون قصف فيتنام الشمالية ويقبلون بالتفاوض مع من يحاربونهم – اي مع الفييتكونغ – ويلتزمون باخلاء الاراضي التي يحتلونها ؛ وينبغي ان يتبع هذا التفاوض مؤتمر عام ينبثق عنه اتحاد جنوب شرق آسيا (فيتنام الشمالية وفيتنام الجنوبية ولاووس وكمبودجيا وبرمانيا وجميع من يرغبون في هذا الاتحاد) على ان تكون كل دولة في هذا الاتحاد حرة في اختيار النظام السياسي الذي يلائمها .

ولكن اذا كانت فرانسا قد عبرت عن رأيها في هذا المجال ، فان بلدان اوربا الاخرى وبريطانيا العظمى بخاصة لاتجرؤ ان تفوه بكلمة لأنها ترتبط ارتباطاً كلياً اقتصادياً وماليا بالقوى الامريكية .

ان فرانسا بعد ان رفضت فكرة تسليح المانيا عـــام ١٩٥٠ عادت فقبلت مؤخراً تسليحها في اطار الحلف الاطلسي ؛ وحلت فكرة التكامل الاطلسي بقيادة الولايات المتحدة الامريكية محـــل فكرة التكامل الاوربي . ذلك لأن الولايات المتحـــدة الأمريكيـــة ترى ان وجود القوات الامريكية في اوربا كفيل بمنع اي هجوم روسي محتمل وبردعه صاعق من اسلحتها الذرية . ولكن مما تجدر الاشارة اليه ان هنالك حادثين جديدين :

١) ان التطور الداخلي في الاتحـــاد السوفياتي من شأنه ان يبعد عن الأذهان اي هجوم روسي على اوربا . ذلك لأن الشعب الروسي بعد سنوات طويلة من التضحية ينشد اليوم رفاهاً اكثر مما عرف في الماضي ويطالب باعطاء افضلية لمواد الاستهلاك ؛ وبعد ان تمت القطيعة مع الصين اخذ يمهد لاتخاذ موقف دفاعي في اوربا . كما تسعى الدبلوماسية السوفياتية لايجاد اتفاق يتم الاعتراف فيه بالوضع القائم في المانيا الشرقية . ولا يستطيع الالمان ان يعتمدوا على ضغط القوات الامريكية لكي يفرضوا وحدتهم على الاتحاد السوفياتي . ولا يمكن الحصول على هذه الوحدة الا بشكل غير مباشر بعد تحسين العلاقات بين المجموعة الاوربية والاتحاد السوفياتي ، وبخاصة ازدياد الروابط الاقتصادية والثقافية مع مختلف دول اوربا الشرقية . ويمكن تحقيق وحدة المانيا في اطار دولة اوربية غربية موحدة تشترك اقتصادياً مع بلدان اوربا الشرقية .

٢) ان الحماية الامريكية قد تدهورت ايضا . وتجربة فيتنام توضح لنا الطريقة التي ترى فيها الولايات المتحدة الامريكية الدفاع عن بلد صديق بوضعها اليد على السلطة السياسية وبقصفها المدن وبتخريبها الزراعة وجميع القوى الحية . ووجود القوات الامريكية

في اوربا لا يؤدي بالضرورة الى استعمال الاسلحة الذرية الامريكية فقد تنشب حرب على طراز حرب فيتنام، وبعد هذه الحرب التي تدمر فيها اوربا ويقتل فيها معظم الاوربيين قد تهدد امريكا بانتقام ذري وقد تعمد الى عقد اتفاق مع الاتحاد السوفياتي لاقتسام النفوذ الذي سيفرض فرضاً على من تبقى من الاحياء في اوربا . وكلنا يعلم ان القوة الامريكية فقدت اكبر قسم من قيمتها كضمان للسلام. وفي هذه الشروط يبدو من الضروري ان يأخذ الاوربيون على عاتقهم دفاعهم التقليدي عن اراضيهم ، وان يقرروا وسائل حمايتها في المرحلة الاولى من الحرب مع بقائهم اعضاء في حلف الاطلسي ومع استنادهم دائماً كسلاح أخير الى القوة الذرية الامريكية في حالة وقوع اعتداء خارجي. ويصبح من المرغوب فيه ان نعود الى مفهوم المجموعة الدفاعية ضمن النطاق الاوربي .

ولا يمكن ان تظهر اوربا الى العالم كنوع من التحالف بين المصالح المحافظة او كعضو جديد في نادي الاغنياء . فثمة امكانية تستطيع ان تؤكد وجودها فيها بسياسة مبدعة وهي تعطي المثال في الداخل عن ديموقراطية اجتماعية مخططة تخضع الاقتصاد لحاجات الانسان وترسم سياسة سلام ومعونة للعالم الثالث، مما يؤدي الى اقامة تعاون دائم وصداقة مخلصة مع نصف الانسانية الأشد بؤساً وفاقة .

وإذا قلنا ذلك فلا يعني اننا ضد امريكا، وانما نحن ضد السياسة الراهنة لحكومة الولايات المتحدة الامريكية ، مثلما كنا ضد الحكومة الفرنسية ابان الأزمة الجزائرية . انه نقد لمفهوم المدنية الاستهلاكية التي تؤلف خطراً على الانسانية ، انه عمل ضد الامريكان اعضاء غرف التجارة ، وضد جونسون ، ولكنه مع الأمناء الحقيقيين لتقاليد هذا البلد من الشعب الامريكي .

نحو اشتراكية حديثة :

ليست الاشتراكية في نظرنا نتيجة ميكانيكية لما يطلق عليه قوانين التاريخ وانما هي اختيار يستند الى القيم المعنوية .

١ — فليست هنالك مراحل ضرورية لتطور محتوم ، وما نلاحظه انما هو عدد لايحصى من الوقائع التاريخية تلعب الأحداث العرضية فيها دوراً هاماً ؛ فالماضي لايقيدنا وانما ينقل الينا ارثاً يحدد امكانات عملنا ويقدم لنا ، في الوقت ذاته ، وسائل العمل . اننا نمر في تطور سريع يتطلب الهدم والبناء في آن واحد . وعلينا ان نؤثر ، كل حين ، في الأحداث بغية توجيهها الوجهة الملائمة .

لقد كان الوهم العلمي للحتمية الماركسية خطيئة مفيدة في بداية القرن التاسع عشر في المقياس الذي قدمت فيه الى الطبقة العاملة المضطهدة املاً في انقلاب كامل لوضعها واسطورة تعوض فيها عن شعور النقص الذي كانت تعيش فيه . ولكنها تبدو اليوم كأنها سير للبروليتاريا في طريق البورجوازية

واستسلام أمام القوى المحافظة . وان من استبدل التمييز بين ماهو عادل وما هو ظالم بالتمييز بين ماهو في اتجاه التاريخ وما هو ضد هذا الاتجاه مضطر لأن يخضع امام الواقع كما هو اوكما يبدو أنه سيكون . ولقد اثبتت الاحداث انه لكي ندافع عن الحرية لايمكن ان نعتمد الا على اولئك الذين يؤمنون بالحرية بغض النظر عن ان ايمانهم هذا يستند الى اصول كانتية أو مسيحية او وجودية ، فالمهم هو ان الانسان الواثق من انه يستطيع ان يخلق مصيره بنفسه لايخضع ابداً لما يصادفه . وكذلك الأمر بالنسبة للاشتراكية الديموقراطية التي هي اسلوب حياة يمارسه كل انسان في حياته اليومية قبل ان تكون قوة سياسية . وهذا الاسلوب هو الذي يؤدي الى اتخاذ المواقف السياسية . ولا يحتاج الاشتراكي الحقيقي الى تأملات عميقة كيما يعارض ميونيخ اوفيشي او يساند نضال الشعب الجزائري والشعب الفيتنامي ؛ فهذا الموقف يعتبر من المسلمات التي لايجادل فيها احد .

٣ — ان الديموقراطي الاشتراكي يشعر ، في قرارة نفسه ، وفي كل فترة من فترات التاريخ وازاء كل مشكلة ؛ أنه مشدود الى الأفراد الذين هم ، عزلاً اوجماعات ، ضحايا أقسى ظلم ، والذين علينا من اجل ذلك ان ندافع عنهم . فالاشتراكيون الأوائل في القرن التاسع عشر ومعظمهم من ابناء البورجوازيين تضامنوا مع العمال اليدويين . وقد ثاروا على انانية طبقتهم ، كما ان كثيراً منهم قاتلوا فعلاً الى جانب الجمهوريين الاسبان عام ١٩٣٦ . وتحت حكم فيشي كان الديموقراطي الحق هو من يجازف بنفسه من اجل انقاذ يهودي ملاحق . أما اليوم فهو يستعد لقبول التضحيات الضرورية ليقدم المعونة المجدية لبلدان العالم الثالث ، على ان هذا لايعني تأييد جميع ماقام به الشيوعيون في اسبانيا من أعمال ، ولا الالتزام بدعم الصهيونية وسياسة اسرائيل ، ولا قبول الحكم الفردي المطلق لدى هذا البلد اوذاك من البلدان المتخلفة .

ويعرف الديموقراطي ان اخلاقية كل جماعة هي على الدوام دون اخلاقية الأفراد الذين يكونونها . وفي الواقع فان اعضاء الجماعة يجدون وسيلة للتعبير من خلالها عن العواطف والمشاعر التي قد يخجلون من الافصاح عنها بشكل فردي . ان ايا كان لايجرؤ على القول « انا الأجمل وأنا الأذكى » ، ولكننا جميعاً نقول ان « فرانسا هي اكثر ثقافة » وان « الطبقة العاملة عادلة وسمحة على الدوام » .

ومن خلال الجماعة نصل بسهولة الى جهل نتائج العمل او السكوت عنه . وهكذا فان الألمان لم يعرفوا معسكرات الاعتقال النازية ، ومعظم الفرنسيين ظلوا يجهلون التعذيب المرتكب في الجزائر ، واليوم يظل الشعب الامريكي غير شاعر بما يرتكب باسمه من جرائم في الفيتنام .

٣ - لايوجد مايطلق عليه عادة اسم الكتل البشرية ، ذلك لأن هذه الكتل انما هي أداة في ايدي اولئك الذين يؤثرون فيها . والكتلة محصلة كل فرد متوسط عندما يتجرد من شخصيته ، فلا يعود يؤلف جزءاً من مجتمع يستوحي فكرة مشتركة . وليس للكتلة حركة خاصة بها فهي مؤلفة من كائنات متقلبة تخضع الى ضغط القوى الخارجية . ويعتبر جزءاً من الكتلة البشرية كل إنسان يكون موقفه سلبياً . وتفعل عندئذ الدعاية فعلها وتملىء الفراغ ، وتستعيض عن الاختيار العقلي للمواقف بضغوط تفرض من الخارج على شكل اثارة انفعالية . فليس لانسان الشارع اندفاع خلاق . وسواء أكان مطيعاً او ثائراً فهو ينتظر منقذاً من الخارج ودون ان يبذل أي جهد في التعاون المشترك وفي التنظيم ، وهو يحيا بانتظار خلاص يأتيه من أعلى تقوده اليه شخصية ملهمة او جماعة مشتركة . والديموقراطي الاشتراكي البعيد عن اللجوء الى هذه الاساليب من التنويم المغناطيسي الجماعي يسعى الى ان يفجر الجماهير بأن يتوجه مباشرة الى عقل الافراد والى شعور الافراد الذين يكونونها ...

٤ - لاتوجد ثورة ممكنة في بلد مصنّع بالمعنى الروماني للانتفاضة الشعبية ، بحيث تؤدي لا الى تغيير الحكومة وحسب وانما الى تغيير البنية الاجتماعية بكاملها . وفي الواقع لم تنجح ابداً اية ثورة في العالم الصناعي . ولقد كانت الثورة الروسية عمل مثقفين حصلوا على مساعدة الفلاحين بوعدم توزيع الاراضي عليهم . ولم تكن الطبقة العاملة عندئذ تمثل اكثر من ٨٪ من السكان المنتجين . اما استيلاء ماوتسي تونغ على السلطة في الصين فلقد كان بفعل جيش من الفلاحين هدّم مالاقوه من فساد وظلم تحت نظام حكم شان كاي شيك . والثورات الوحيدة الممكنة بل والضرورية في عصرنا هي الانتفاضات القومية التي تستهدف تهديم اقطاعية الارض التي تعيق كل نمو اقتصادي كما جرى عام ١٧٨٩ .

الاشتراكية والديموقراطية :

لئن تحدثنا دوماً عن الديموقراطية الاشتراكية فذلك لان الديموقراطية والاشتراكية لايمكن ان تنفصلا . الديموقراطية جهد مستمر نشدناه خلال جميع اطوار التاريخ للحصول على الحرية وتحقيق العدالة الاجتماعية . اما الاشتراكية فهي التعبير عن هذه القيم الديموقراطية في مجتمع صناعي تقدمي نسعى أن نوجد فيه مجتمعاً مسؤولا يتسنم ادارته على جميع المستويات ، رجال مسؤولون .

١ - اما أن الاشتراكية تسعى الى خلق مجتمع مسؤول فهذا يستلزم اول مايستلزم تخطيطاً لمجموع الاقتصاد بشكل إجمالي وبشكل مجزأ الى قطاعات كبرى . وفي البدء يترك التخطيط التوازن بين العرض والطلب حراً للسوق . ولكن الجماعة تتدخل على المدى الطويل ، من اجل الانتقاء بين الاستثمار والاستهلاك ، بين التجارة الداخلية والتجارة الخارجية ، بين ارضاء حاجات الفرد وارضاء حاجات المجتمع .

وبمعنى اوضح ، تعارض الاشتراكية مجتمع الاستهلاك الحالي حيث تؤسس المشاريع الخاصة صناعتها لتحقيق الربح وتفرض على الجمهور بواسطة الدعاية ما تريد ملتجئة الى اثارة الغرائز الدنيا لدى الانسان . ويوجد ثمة تناظر في هذا الموضوع بين النظامين الروسي والأمريكي ، ففي الحالتين نرى جهازاً خارجياً هو الحزب في الاتحاد السوفياتي ، ودار النشر في الولايات المتحدة الأمريكية ، يتحكم في الانتاج ويفرض ما يريد على المستهلكين . اما هذا الاختيار بالنسبة للاشتراكي فيجب ان يقرره المواطنون بشكل ديموقراطي ما دام الانتاج منظماً كما يلبي حاجاتهم. فالدعاية والبيع تقسيطاً ينبغي ان تراقبها الدولة وان تستخدمها لتحقيق سياستها .

وينبغي ان نعترف بان الاشتراكية تستهدف وقف ارتفاع الدخول الفردية كما تخلق الادخارات وتهيء الاستثمارات التي تسمح بتلبية حاجات الجماعة ، اما الرأسمالية الجديدة فتستطيع بسهولة اكثر رفع الدخول التي توجهها الدعاية لشراء ما تنتجه المصانع الخاصة من سلع مترفة ، الأمر الذي يزيد في مرابحها . ويتطلب التخطيط في بعض الحالات تأميم بعض المشروعات عندما يكون لها اهمية خاصة (كالصناعات الأساسية مثلاً) وعندما تؤلف احتكاراً فعلياً أو تمارس سلطة متزايدة تجعل الحريات المدنية عرضة للخطر . ولكن لا ينبغي ان يكون التملك الجماعي لوسائل الانتاج كاملاً حتى ولا في معظمه ، وما يجب ان تطبق الاشتراكية عليه انما هو السلطة قبل الملكية او الملكية عندما تقوده الى سلطة خاصة مضادة للديموقراطية . اما الخدمات الوطنية فيجب ان تدار على شكل مؤسسات مستقلة ، لها موازناتها الخاصة وسلطة اتخاذ القرارات ، على ان تظل خاضعة للقواعد العامة للخطة وفق الأشكال نفسها ووفق الدرجة نفسها التي تخضع لها المشروعات الخاصة .

٢) وينبغي ان يشرف على هذا المجتمع المسؤول وفي جميع المستويات رجال اصبحوا مسؤولين حيثما يعيشون وحيثما يعملون .

اما ان عليهم ان يكونوا مسؤولين حيثما يعيشون فهذا يستلزم احترام الحريات المحلية او اقامتها بمعنى اصح . وهذا يفترض تنظيم المناطق تنظيماً يكفل لها ادارة قضاياها الخاصة والمشاركة في وضع الخطة القومية وفي مراقبة تطبيقها . ونستطيع حول ذلك ، ان نؤيد الأصول الحالية للامركزية (نقل سلطة اتخاذ القرارات من الوزير الى المحافظ) كما نوجد بنى جديدة ، ولكن ينبغي ان تراقب هذه البنى سريعاً بشكل ديموقراطي على ان يتولى الرقابة مجلس منتخب يدخله اعضاء جدد لا اعضاء المجالس العامة التقليديون الذين لا يتلاءمون مع الظروف الجديدة. ولكن ينبغي أن يكون الانسان مسؤولاً ايضاً حيثما يعمل ، وينبغي ان يجد في نشاطه المهني المبادهة والمسؤولية اللتين حرمه منها التطور الصناعي للقرن

التاسع عشر، ومن هنا وجب علينا الاعتراف بالشعبة النقابية للمصنع وتعميم الاتفاقات الجماعية المتعلقة بالاجور والشروط الحقيقية للعمل مع الاصول الداخلية للاعتراض والمصالحة حول جميع المسائل المتعلقة بالاستخدام والفصل من العمل والانضباط والاعداد المهني . وينبغي بشكل عام ان تكون ثمة استشارة دائمة حول جميع مسائل التنظيم الداخلي للمصنع كما ينبغي على النقابات ان تشترك في أعداد الخطة ومناقشتها ومراقبة تطبيقها .

ان ذلك يستلزم على صعيد السياسة الوطنية سلطة تنفيذية ثابتة (ويفضل ان يكون رئيسا للجمهورية او رئيس وزراء منتخب بالاقتراع العام) وجمعية سياسية مكلفة عن طريق الاسئلة بمراقبة عمل الادارة بشكل علني يوما بعد يوم . ويوضع مركز الحكومة في خطر عن طريق الاستجوابات او عن طريق حجب الثقة مما يؤدي الى حل الجمعية والرجوع الى الناخبين .

ان سير الحياة السياسية ينبغي ان يخضع الى قواعد قانونية أعلى من ارادة جميع اشكال السلطة ، وينبغي ان تنظم التربية والاعلام والقضاء في مصالح عامة اجتماعية مستقلة يشرف عليها مجلس أعلى مستقل أو وزراء مختصون ليسوا اعضاء في الحكومة وانما هم مسؤولون مباشرة امام الجمعية . وتمثل هذه المصالح في الحقيقة المؤسسات الرئيسية للحياة في المجتمع ؛ وينبغي ان يؤمن سير عملها بمشاركة الجميع بغض النظر عن التحولات العرضية وتغيير السلطة السياسية .

ولهذا ، وانطلاقاً من القيم المعنوية التي يسعى الديموقراطيون لتحقيقها في جميع البنى التاريخية المتعاقبة نعرّف الاشتراكية بأنها :

« عمل الشغيلة في البلدان المصنعة اية كانت فئتهم أو جنسيتهم بغية اقامة ادارة جماعية للحياة الاقتصادية بواسطة التنظيمات المستقلة من نقابات وتعاونيات وحركات ترابية ومجموعات مناطق لكي تسرع في تحقيق التقدم التقني وتؤمن التوازن في القطاعات وتوزع الانتاج توزيعاً عادلاً وتشرك جميع العاملين في القرارات الأساسية حيثما يعيشون وحيثما يعملون مع احترام قواعد الحق الأساسي التي هي أعلى من السلطة السياسية » .

نحو حزب اشتراكي جديد :

هل نحن بحاجة الى حزب اشتراكي جديد؟ وكيف ينبغي ان تكون بنية هذا الحزب ؟

لقد نظمت السيدة سيمون ويل قبيل وفاتها ببضعة اشهر ، عندما كانت تعمل في مفوضية الداخلية في لندن، تقريراً عن مشكلة الاحزاب السياسية خلصت فيه الى انه يجب إلغاء الأحزاب. والحزب في نظرها «منظمة انشئت كيا تمارس ضغطاً جماعياً على فكر جميع الافراد الذين يؤلفونه، والايمان الوحيد لحزب سياسي انما هو نموه الخاص دون حدود» . وكل حزب هو اذن مؤسسة يطغى فيها

المجموع على الفرد طغياناً شديداً ، وقد اقترح بعضهم ان نستعيض عن الحزب باجتماعات ومجموعات للمناقشة هي ما نسميها اليوم نوادي تجتذب الافراد وتحول دون سيطرة الاهواء الجماعية . ونتيجة لذلك فان الشعب صوت على انتخاب مرشحيه بحرية استناداً الى برنامجهم الشخصي .

وقد توصل الكاتب الايطالي سيلوني الى نتائج مشابهة عندما قال انه « لايمكن التوفيق بين الكاتب وبين الرجل السياسي، فالسياسي يريد السلطة بينما يريد الأديب الحقيقة . . وانا متشائم بالنسبة لما يصدر عن المؤسسات دينية كانت او سياسية ، وكما ان العقيـدة الدينية تؤدي الى كنيسة فان المثل الاعلى للسياسي يتجسد في حزب ما يلبث ان يعتوره التشوه» . وكان سيلوني قاسيـاً في انتقاده للاحزاب العقائدية عندما قال : « ان حزباً يستند الى نظرية علمية لابد ان يثار التساؤل عن جدواه بعد بضع عشرة سنة عندما يتجاوز الزمن صيغه ؛ والاحزاب ليست منظمات للبحث العلمي وعليها أن تحترس كيلا تصبـح حراساً للمقابر . والخدمة الوحيدة التي تستطيع ان تؤديها الاحزاب الى العلم هي تأمين امكان اجراء بحوث مجردة عن الفوضى ، فالقيم الحقيقية ابقى عـلى الدهر من النظريات العمليـة » . ويجب ان نلاحظ اخيراً ان التطور الحالي ليوغوسلافيا يتضمن الاضعاف المستمر للحزب الشيوعي الوحيد . فبعد ان وطد في البداية السلطة السياسية تحول الى عصبة الشيوعيين المكلفة اساساً بعمل تربوي وبتكوين الاطر . والتدابير التحررية الجارية حالياً تؤيـد اضعاف نفوذه ايضاً . فالامر لايتعلق كما قال جيلاس وبعده ميكائيلون بالانتقال الى نظام تعدد الاحزاب وانمـا بالاحرى الانتقال الى نظام لايوجد فيه حزب على الاطلاق .

فالعمال يديرون معاملهم ادارة ذاتيـة ، وكذلك الامر بالنسبة للمواطنين في البلديات وفي الاتحادات ، اما المنتخبون فيجب ان يتم انتقاؤهم بالنظر الى شخصيتهم اكثر من انتمائهم .

ان هذه الانتقادات عن خطر الحزب هي في الاجمال صحيحة، ولكن الحزب رغم ذلك يفرض نفسه . فلاتوجد في الحقيقة مصلحة عامة يمكن ان نعرفها تعريفاً عملياً وان تكون موضوعاً يحوز على اتفاق اجماعي لجميـع العقول . والخيار الاساسي لايمكن ان ينفذ بشكل كيفي لا عن طريق افراد انيطت بهم وظيفة عليا ، ولا عن طريق مواجهة مصالح مختلف الجماعات ، مهنيـة كانت هذه المصالح او تتعلق بالمنطقة ذات العلاقة . والأمر يتعلق بخيار تم تنفيذه بالاستناد الى قيم . ولذلك ينبغي ان يكون هنالك مجموعة من الناس تعبر عن هذه القيم وتنشرها في الرأي العام بعمل تربوي مستمر وان تطلع الشعب في الانتخابات الحرة على اختياراته الأساسية . ولقد قيل : « لا يمكن ان تكون ثمة حيـاة سياسية دون حزب مثلما

لا يمكن ان تكون هنالك فكرة دون لغة » . ولكن من دواعي الأسف ان ثمة لغات كثيرة دون فكرة واحزاب كثيرة دون سياسة . ولكن وجود اداة وسيطة بين الشعب وبين الحكومة ضروري جداً للعمل الديموقراطي .

اما بالنسبة لبقية الحزب فهنالك مفهومان:

الاول هو ان ينتقي مرشحيه الى الجمعية الوطنية وتؤلف في البرلمان هيئة برلمانية تكون نواة الحزب وتفرض على اعضائه انضباطاً قاسياً .

والثاني هو ان يعتبر الحزب كجمعية مستقلة للتربية الشعبية الدائمة وللارتباط مع قوى البلد الحية ولمراقبة عمل الهيئة البرلمانية والسلطة التنفيذية عندما ينتخب مرشحه رئيساً . فينتسب عندئذ الى الحزب الأشخاص مباشرة بشكل فردي اوجماعي ونوادونقابات الخ .. ويعين المؤتمر القومي المرشح لرئاسة الجمهورية والمرشحين للجمعية التشريعية ، وبذلك يحتفظ الحزب بوجود خاص وبمهمة المناقشة والدراية دون ان يفرض على اي كان ، حتى على الهيئة البرلمانية انضباطاً الزامياً . وفي الفرضيتين تكون سكرتارية الحزب جهازاً ادارياً مؤلفاً من موظفين محترفين يخضعون للجنة الادارية اولمكتب الهيئة البرلمانية دون ان يشغل احد منهم وظيفة انتخابيــــة اوحكومية .

ان هذا الحزب سيتجه الى جميع اولئك الذين يبحثون عن ايجاد مجتمع مسؤول يقوده رجال مسؤولون ، وقد أثار فيهم الحرارة ايمانهم بالانسان وشعورهم بالقيم الانسانية وفلسفتهم في الحرية . وسيكون عمل الحزب الاول ان يبعث الحياة في المؤسسات النقابية والتعاونية والتربوية ، على الصعيد المحلي وعلى صعيد المنطقة وعلى الصعيد الوطني وعلى الصعيد الأوربي .



المخاض

مسرحية شعرية لممدوح عدوان
دراسة وتحليل: نبيلة الرزاز

مسكين أنت
مسكين مثلي
مسكين مثل جميع الناس
قدم من فوقك قد ضغطت
كي يسحق رأسك
ماكان بوسعك أن تفعل شيئاً
إلا أن تسحق أرؤسنا قدماك
كي لاتتكسّر
وقفزنا يوماً من ألم ... فرميناك
لكن الثقل ازداد وأصبح اكبر

بهذه الكلمات أنهى الشاعر ممدوح عدوان مسرحيته « المخاض » وكانت الكلمات على لسان أحد أبناء القرية « السكير » وهي تمثل المأساة الكاملة التي أراد أن ينقلها لنا الشاعر من خلال مسرّحيته ، مأساة الإقطاع في بداية الحكم الوطني في سورية ، مجتمع الإقطاع الذي يتسلط فيه المالك أو الآغا على الفلاحين . وهو الآمر الناهي في القرية ، وأما قوته فمستمدة من سلطة

أعلى منه ، كما هي مستمدة من جهـــل الفلاحين الذين أعمى بصيرتهم الفقر فعاشوا كالقطعان في بؤس شقي ، لا شعور بالحرمان أو اليأس ولا شعور بالأمل .

نولد في كل مكان
نولد في أي زمان
ومثلما يولد عجل أوحمل
تخرج أنت تجمع الأحطاب
تلقي بوليد بين أحراج الجبل
ثم تعود بالوليد والحطب
تثلمت نفوسنا .. فقد نمت بلا حنان
ولم تعد تحس بالحرمان
أو باليأس والأمل
نحن نعيش دون أسماء

بائسون ، جائعون ، خوفهم الأكبر من الجوع الذي لا يرحم ، يقتلون كالفئران ، يقتلهم إخوانهم من الدرك والشرطة الذين يعانون مايعانيه الفلاحون أنفسهم من جور الآغا الذي يبتز المـــال منهم ، ولكنه يعمل بالمقابل ليدخل أحدهم « سلك الدرك » . ومتى صار الفلاح دركياً يقبض مرتباً شهرياً كان عليه أن يرد الجميل للآغا ويأتمر بأمره ، ويلاحق الفلاحين من أهله وإخوته وأبناء عمومته ، فيتمرد بعضهم على قانونه الجائر الذي يلاحق فيه أبناء القرية ، وقد يقتل المتمرد « الدركي » ، والفلاحون هم الفحول التي تحسن النطاح :

ونحن قطعان من الفحول تحسن النطاح

ولكن هذا النطاح لا يكسب الفلاح إلا المزيد من الخوف فالهروب والفرار المستمر ، هذا النطاح ليس الا تمرداً فردياً لا يدرك صاحبه سببه ، كما لا يفكر في نتيجته ولا فيما يبغي منه ، ولكنه يظل على تمرده حتى يقبض عليه ويُعدم .

الناس تضج بشاهين
لكن كانت تسري بين الضجة أحزانُ
في كل رصاصة
قدّ يتم أطفـالاً لا ذنب لهم
هل ننهي شكوانا إذ نقتل كل الدرك
بؤساء اكثر منا
ماذا كانت خاتمته ؟

مسكوه ، وبعد قليل يعدمُ والنحسُ هو النحسُ

فشاهين في المسرحية هو المتمرد البارز في نفسه غضبة كما في نفس كل فلاح يعبر عنها بقتـــل الدرك ، والدرك أناس مساكين مغلوبون على أمرهم ، مضطرون لارضاء الآغا الذي كانت له اليد الطولى في تعيينهم ، ولو كان هذا الإرضاء على حساب اخوانه من أبنـــاء القرية الذين يشترك معهم في البؤس والشقاء .

يبدو لنا من هذا العرض أن الشاعر قد صور في مسرحيته ناحيتين هامتين في المجتمع الاقطاعي لتلك الفترة من أوائل الحكم الوطني .

الناحية الأولى : هي تلك الغضبة الهوجاء التي ينقصها الوعي ، غضبة نتجت عن شعور بالجور ، شعور بأنهم مستعبدون ليسوا أحراراً ، ولكنه شعور غامض غير واضح دفع بعضهم الى التمرد ، ودفع الآخرين الى الاستسلام الكامل .

الناحية الثانية : هي الفردية في التمرد والثورة ، هذه الفردية التي لا تثمر خيراً ولا تكون إلا وبالاً على صاحبها . إلا أن هذا التمرد الفردي ، كان بصيصاً من نور يمكن أن يزداد يوماً فيوماً فينير طريقاً طويلاً مغروساً بالأشواك صعباً وشاقاً لكنه ينتهي إلى ثورة جماعية واعية منتجة .

والأمر البارز في هذه المسرحية أن البطل فيها هو مجتمع القرية بأسره من رجال ونساء وشيوخ وأطفال ، فقد خرج الكاتب عن القاعدة التقليدية في أن يكون للمسرحية بطل فرد هو المحور الذي تدور من حوله الحوادث ولكنه مع ذلك قد جعل لبعض الأشخاص في المسرحية مكانة أبرز من مكانات سائر أبنـــاء القرية . كالـكبير الذي جعله الكاتب يعبر من خلال أحاديثه عن عن بؤس القرية والحرمان الذي يعانيه أهلوها حتى نمت نفوسهم بلا حنان « ولم تعد تحس بالحرمان أو باليأس والأمل » .

ويصور السكير ذلك التفكير الساذج القروي الذي يرى أن الشقاء كله غلطة بحق الأولياء :

شقاؤنا لسوء حظنا .. لسوء فعلنا
لأنّ واحداً من المشايخ النجاب
دعا ربه علينا فاستجاب

حياتهم معوجّة ولكنهم لايدرون كيف يقوّمونها ، فيحاولون تحطيمها برعونة وطيش ودماء وقتل . فلا تقوّم بل تبقى دنيام معوجّة . هذا النوع من التفكير السطحي يمثله السكير بقوله :

وتبقى مثلما كانت
حياة الفقر والحرمان
أتدري كيف نفعل كيْ نقوّمها ؟
نحطمها ونرتاح
وفلاح يسير الى الحقول لعله يسقي
فيقتله ليسقي الأرضَ فلاحُ

ولكن اراد الشاعر أن يجعل من السكير شخصاً اعمق احساساً بالمشكلة من سائر أبناء القرية ، ولكنه لايعلم كيف الحل ، فيهرب الى الإغراق في الشرب.

فهم يعيشون في حلقة مفرغة يشكون الظلم والجور الذي يقاسونه من الآغا للشرطي ، والشرطي لايستطيع الا أن يرضي الآغا مادام هو الذي يعينه وهو الذي يسرحه ان شاء ، ويستطيع السكير أن يدرك هذه الحلقة المفرغة كما يدرك أن الاقتصاص من الشرطي لن يثمر خيراً بل سيزيد من ثقل الذنب .

وقفوزنا من ألم فرميناك
لكن الثقل ازداد ... وأصبح أكبر

أما الشخصية الثانية التي كان لهادورها المميز في مجتمع القرية فهي شخصية شاهين ، الذي مثل التمرد الفردي "الرعين" فانتهى به هذا الى الاعدام اذ كان قد جعل من الدرك الذين يتبعونه وهو فارّ غاية "له يقتلهم واحداً بعد الآخر .

وكانت بداية تمرده ان رفض الإقرار بأمر البيك ، فلم يدفع حصته من موسمه لوقاف القرية ، فسجنه الدرك واهانوه ، ففرّ من السجن واهان الوقاف الذي استدعى عليه الدرك ، فأزعجه هؤلاء

بدورهم اذ بحثوا عنه في داره وقلبوا الدار رأساً على عقب . فخرج هارباً وجعل الدرك منذ ذلك اليوم هدفاً له. يخف من مأوى الى آخر، يختبىء ويختفي ، ولكنه يهدد الدرك باستمرار ويتركهم في ذعر دائم ورعب وحذر .

وقف أبناء القرية أول الامر من شاهين موقف اللائم فهم لا يرون في هذا التمرد الا النتائج الوخيمة على اهل القرية . ولا يحسون الا الخوف ، الخوف من السلطة ، الخوف من انتقامها ، الخوف من الجوع . فالخوف هو كل ما في حياتهم ، والجهل والسذاجة هما اللذان كانا يعمّقان جذور هذا الرعب الذي توارثوه جيلاً عن جيل فصار فيهم طبعاً مولوداً فيهم بولادتهم .

رجل : ولسوف ترون
مايلحقنا من هذا المجنون
من يدري
ياوب استرنا

ولكن مقاومة شاهين واصراره على التمرد قد فتح أعين هؤلاء البسطاء من الناس على أمر جديد . اذن هم يستطيعون أن يتحدوا السلطة وان يقفوا منها موقفاً لم يقفوه مرة من قبل . وصارت سيرة شاهين اسطورة تدور على الشفاه ، نظمت فيه الازجال ودار الحديث عنه على كل الالسن . فهو في نظر ابناء القرية البطل الذي لا يهاب . والانسان الخارق القوة ، يقال انه قد زُوِّد بتميمة تمنع عنه الشر . لا يمكن ان يصدق فرد في القرية انه عادي ككل ابناء القرية . ولكنه في حقيقته انسان مسكين عادي كسائر الناس . له ضعفه كما له قوته . له شعوره بالوحشة والعزلة ، كما له رغبته بالحياة الوادعة مع الجماعة ، لرغبته في الهروب ، كما له شؤونه للهدوء والاستقرار .

وقد وصفه الشاعر على لسان أحد رجال القرية وكان قد آواه ليلة عنده في أثناء هروبه ، ولعل هذا الوصف كان من أجمل المقاطع الشعرية في المسرحية وأرقها وأحسنها اختياراً للألفاظ

الشعرية التصويرية ذات الجرس الموسيقي المتوافق مع المعاني .

حدثني عن غربته وفواره
عن حقد يطويه لاقداره ،
عن ليل الويح وليل الرعب وليل التعب
عن ليل العزلة والتطواف كذئب مجروح
عن اشواق يحملها لابنه
ولأشجار الارض
أحسست كأني اعرفه
وددت لو اني أنصفه
قد كان كمن بلع السكين
انسان يحيا وحده
يخشى كل الناس
ويحب جميع الناس
لكني أحسست كأن به جوعاً للسحو
جوعاً للنوم بقرب الموقد
لليقظة لاخوف ولاموعد
لنداء الجيران له ومعاتبة الاخوان
ولشيء غير الهوب الدائم
* * *

أحسست كأني أرقبه يحوق أدمعه
لم يبك ولكن ابكاني معه

هذا هو شاهين على حقيقته ، ولكن ابن القرية الذي ملأت قصة شاهين حياته لايمكن ان يرى فيه الا انه :

الغضب المحمول مع الرعد
قتال الدرك
يترصدهم في كل الطرقات
ويطاردهم كالشيطان

وهكذا يزداد عدد المتمردين في القرية . ونرى من يتشبه بشاهين كالشاب حيدر . وتنطلق الثورة من النفوس بعد أن كانت كامنة ، تنطلق شيئاً فشيئاً ، يطلقها شاهين ، الذي تميزت شخصيته في المسرحية عن سائر الشخصيات ، ولكنها لايمكن ان تعتبر شخصية البطل المسرحية كلها . فأبناء القرية كلهم كمجموعة ، هم ابطال لهذه المسرحية ، التي أراد بها الكاتب ان يصور شقاء مجتمع بائس جاهل ، مغلوب على أمره ، لايرى لنفسه طريقاً واضحة

يسلكها لينقذ أفراده من هذا البؤس العميق .

والمسرحية كما يبدو مستقاة من واقع حي عاناه الناس فعلا في فترة من الزمن ، فقد ذكر الكاتب ان أحداث شاهين قد دارت في منطقة مصياف في جبال اللاذقية في بـداية الحكم الوطني في سورية . فالمسرحية اذن واقعية ، الا ان الشاعر جعل من المشهد الاول مزيجاً من مناظر مأخوذة عن الواقع وأصوات وكلمات تبعد بهذه المناظر عنه . فالمشهد على المسرح ملامح من بيوت القرية ، بعضها مضاء ، أصوات تخرج ؛ كل صوت من بيت او من جهة . فتسمع سبعة أصوات لنساء مختلفات من جهات متباينة ، كل منهن تحدث نفسها حديثاً شعرياً . هذه الاصوات بمجموعها كأنها كورس كلاسيكي تقليدي الا ان مجموع هذه الأصوات يصور لنا المأساة بكاملها . فهذا أحدها يقول:

ما الذي مد على قريتنا ظلا ملون
أي حزن مص ضوء القمر
ضوؤه صار بكاء دون صوت
وعيون الناس تخبو
لم تعد ترغب طول السهر
نحن من خمسين عاماً
ربما اكثر منها
لوعة .. خوف .. هروب

حديث حاو معبر عن حقيقة مرة عاناها حقاً أبناء القرية ، ولكنه ليس حديث امرأة قروية ساذجة . فلو جعل الكاتب الحديث كلاماً بسيطاً ساذجاً تتبادله نساء القرية فيما بينهن لكان ذلك أقرب الى الواقـع الذي أراد الشاعر تصويره ؛ واقع البؤس والشقاء . واقع الجهل والغفلة ، واقع الغيظ والألم يغتلي في نفوس الناس فلا يجدون سبيلا للتخفيف منه الا حديث الشكوى ونغمات زجلية يسكبون فيها كل أحاسيس الحزن واليأس كما يسكبون كل مشاعر الاعجاب بالمتمردين الثائرين . هذا الاعجاب الذي ينتهي الى يأس حين ينقاد المتمردون أخيراً الى السجن ، وقد سارت المسرحية بعد ذلك بحوادثها

وحركاتها سيراً طبيعياً منسجماً مع واقع الحياة في القرية ، بما فيها من يأس وأمل، من حزن وفرح ، من تمرد واستسلام . كل هذه الخصال الانسانية نجدها معروضة في المسرحية : إما عن طريق الحركات او عن طريق الحوار .

وكان هذا الحوار كلاماً موزوناً مقفى أحياناً وشعراً أحياناً اخرى . فالمسرحية كلها موزونة الحوار ، ولكن لا يمكن أن نسمي كل موزون شعراً . فهذا قول البيك :

لأنهما لم يردْ واحد منهما انتظار رفيقه
فشقَّ له رأسه بحجر
وجاؤوا إليَّ لفض النزاع
وماكان في الأمر داع لنزعج بالأمر مخفركم
فضضنا النزاع هنا

كلام موزون لا يمكن ان نسميه شعراً ، اذ ليس الشعر هو الكلام الموزون المقفى فقط ، بل هو نغمة تنسجم فيها الالفاظ مع المعاني والاوزان والقوافي . الكلمة الشعرية هي ذات الجرس الموسيقي . ليس من الضروري أن تكون موسيقى الكلمات الشعرية هادئة رقيقة . فقد تكون كذلك صاخبة ذات ضجيج ان كان الموقف والمعنى يقتضيان ذلك ، اللفظة الشعرية هي تلك التي تحمل في طياتها خيالاً مجنحاً ، هي تلك التي تبعث في النفس لوناً ما من العواطف والأحاسيس والمشاعر . وقد لا تحمل اللفظة الواحدة هذا كله ولكنها بانسجامها مع اللفظات الاخرى المجاورة لها ، وبانسجامها مع المعنى والوزن ، قد تؤديه . وقد نجد في هذه المسرحية مقاطع قد اجاد الشاعر فيها فكانت متناسقة الالفاظ والوزن والمعنى ، ومقاطع أخرى لا يمكن ان نجد فيها من آثار الشعر الا الوزن . فهي الى النثر أقرب ، فهذا مقطع موزون :

كلهم أرذال لا تسمع كلامه
كلهم عن حل امر تافه قد يعجزون
فاذا العاقل منهم كان لا يفقه من دنياه شيئاً

ما الذي سوف تلاقيه مع السكير من عقل وحكمة

وهذا مقطع شعري في المسرحية ذاتها ، شعري بألفاظه وأوزانه وقوافيه ومعانيه :

حدثني عن غربته وفراره
عن حقد يطويه لاقداره
عن ليل الريح وليل الرعب ... وليل التعب
عن ليل العزلة والتطواف كذئب مجروح
عن أشواق يحملها لابنه
ولأشجار الأرض

• • •

لكني أحسست كأن به جوعاً للسمر
جوعاً للنوم بقرب الموقد
لليقظة .. لا خوف .. ولا موعد
لنداء الجيران له ... ومعاتبة الاخوان
ولشيء غير الهرب الدائم .

فالشعر في المسرحية كان يرتفع في مستواه ويهبط . وقد تكون للكاتب في ذلك حجة اذ يريد ان يكون بتعابيره وألفاظه ناقلا دقيقاً لتعابير ابناء القرية وطريقة احاديثهم .

إلا أن أبناء القرية لم يكن حديثهم في يوم موزونـــاً . ولو جعل الكاتب مسرحيته نثراً لكان أفق الحديث عنده أرحب ، ولكان أقرب من الواقع .

وقد لاحظنا أن الشاعر تعمد استعمال الألفاظ والمفردات العامية التي كانت تدور حقاً على ألسنتهم ، كقوله :

خطوات طرشت رعباً على كل الدروب

وقوله : فعزّ الظهر فرّ رجالنا ...
وتبعزقوا في الليل كالشرر .

وقوله : لكنه معتّر أكثر مني وفقير
وقوله : كبّوا في الأرض مؤونته
وقوله : سدّي حلقك هذا شغل رجال

كما تعمد الشاعر أن يأتي بكثير من الأمثال التي درجت على ألسنة الناس فاستطاع بذلك أن ينقل لنا صورة عن نمط التفكير البسيط لديهم والحيـــاة / الساذجة . إلا أن هـــذه الأمثال كانت

أحياناً تسيء إلى الحوار الشعري، كشعر. ولو كان الكلام نثراً لكان التناسق بين الامثال وسائر الحديث أكمل.

كقوله : يا سيدي ! **من يأكل العصي ليس مثل من يعدها**

وقوله : هذي عادته

اني أعرفه

والله – **ومالك عندي أيُّ يمين** –

مولانا يصرف ثروته في درب الناس

وقوله : بسم الله علينا

قال الله ولا قالك

وقوله : **البنت ان عاشت على شرف**

تو في طابور عسكر بلا وجل

وقد نقل الينا الشاعر مجموعة من الاغاني الشعبية التي كانت تغنى في تلك البيئة التي دارت فيها احداث شاهين. وقد أحسن في ذلك إذ أننا نرى دائماً أن المجتمعات المظلومة – وبخاصة منها البسيطة والساذجة والمغلوبة على أمرها التي لاتستطيع أن ترد على نفسها جوراً أو عدواناً – تسكب شكواها وأملها وتحديها وثورتها المكبوتة كلها في غناء وأهازيج وأزجال. وهكذا نرى الزجل في المسرحية يصوّر لنا مدى اعجاب أبناء القرية بشاهين الذي استطاع بمفرده أن يزعج مجموعات من الشرطة والدرك، والذي كان يقاوم الدرك في وضح النهار، لايهاب ولايخاف. حتى لوبدا هذا الغناء غزلاً لاهياً، لابد أن يتحول في النهاية الى تحد للسلطة عن طريق ابداء الاعجاب بشاهين، حتى تضطر السلطة الى تفريق الجموع المغنية الهازجة كي لايتحول هذا التحدي في الزجل، الى تحدّ عمليّ فعليّ.

وهكذا نرى أن المسرحية استطاعت حقاً أن تنقل لنا واقعاً شقياً بائساً لم يعشه أبناء مصياف فقط في تلك الحقبة، وانما عاشه كل فلاحي قطرنا العربي السوري

كما يعيشه فلاحو كل مجتمع اقطاعي. واذا كنت قد أخذت على الشاعر أسلوبه الحواري الشعري ، فلأني عرفت في ممدوح عدوان شاعراً فتوقعت أن يكون شعره في المسرحية في مستوى سائر شعره ، أو أن تكون المسرحية نثراً حتى تكون فقط أصدق تعبيراً عن الواقع .

لقاء أخير مع الأديبة الراحلة

سميرة عزّام

الفتة الادلبي

هكذا ، والرزايا تنشب مخالبها فينا، حتى لكأن كل خلية من خلايانا جرح ينزف الدم ، عين تنضح الدمع ، كبد تشوى ، صدر يختزن الحقد والتصميم على الثأر .

هكذا في غمرة المحن المتلاحقة تموت سميرة عزام !! .. بنت فلسطين البارة ، واكبر كاتباتها ، ورائدة من رائدات القصة القصيرة في أدبنا النسوي.

تموت !!.. ونحن احوج مانكون الى قلمها الشهم ، الذي ماخط الا الحرف المشرق والكلمة المتاف ، قلمها الحر الذي ماعرف الزلفى ولا المداجاة ، منذ خط على الورق حتى ابدع الجملة الانيقة المترفة ظل مترفعاً ، أبياً ، أميناً على رسالة الادب ملتزماً هدفها الاسمى ، فما انتهك شرف كلمة ، ولاحرمة حرف .

وكما اغتيلت ارضنا العربية غدراً ،

اغتالت[1] المنون سميرة غدراً ، وهي في طريقها الى الاردن . راحت هناك لتأسو جرحاً ، لتواسي نازحاً ، لتهدهد مجنوناً أفقده عنف الصدمة صوابه ، لتوقد الحماسة في صدر صبية موتورة كاد يتسرب اليها فتور اليأس ، راحت لتتنسم أخبار الارض المستباحة ، عسى متسللا من عكاء ، وطنها الأم ، يحمل اليها خبراً تصوغه قصة بطولة ترويها الاجيال . وتتبوأ مكانتها الى جانب قصة (خبز الفداء) و (بركة سليمان) و (لأنه يحبهم) الى آخر ما أبدع قلمها من قصص رائعة في أدب النكبة .

أن أنسى . لا انسى آخر لقاءة لنا على شاطيء المتوسط ، واحدة من لقاءات كان يسرق فيها منا الزمن ولما نحك ما عندنا بعد . . تقف سميرة وترسل طرفها الى المدى البعيد ، ثم ترده الي وفي عينيها السوداوين الذكيتين ألق من ندى دمعة ، وتحدق في وجهي ثم تقول جادة :

— ذات يوم ستفاجئين بنعيي . . .

ذهلت . . ورحت انظر اليها مشدوهة ، وهي مائلة أمامي صبية تفور فيها العافية . وتتابع قولها :

انها الحقيقة ، ان قلبي أضعف من ان يحتملني . . . فانا لا أترفق به ، أحمله دائماً اكثر من مستطاعه . . ستأسفين على يا ألفة لا كصديق فحسب ، بل كرفيقة حرف لم يتح لها قصر العمر أن تعطي جيل ما أرادت .

قلت : فأل الله ولا فألك . . . ماهذا المزاح ؟؟ ألم تجدي لي عندك في هذه الأمسية الحلوة وقبل ان نفترق خيراً من هذا الحديث ؟

وتشيع على محياها ابتسامة ساخرة مشوبة بألم ثم تقول :

أعرف انني ثقيلة وقاسية احياناً ، ولكن لمن اقولها إن لم اقلها لك ؟ . . ثقي انني — لولا أمي — ما خشيت الموت

(1) يوم الاربعاء في ٩ آب — اغسطس ، توفيت الاديبة سميرة عزام بالسكتة القلبية وهي في السيارة في طريقها الى الاردن .

ابداً . تعب كلها الحياة .. وما اشتهيه هو أن يمهلني العمر حتى انشر روايتي (سيناء بلا حدود) لقد بذلت فيها جهداً كبيراً حتى رضيت عنها . ألا ترين انني قد وفقت بالعنوان ؟؟ لقد تاه اليهود في سيناء ، ولسيناء حدودها . اما نحن ابناء فلسطين فقد شردنا في انحاء العالم حيث لا حدود !... ونفترق ، وفي قلبي هلع عليها ... كأني أوجست انه آخر لقاء لنا ... وهكذا كان !! ..

طوبى لأديب يموت وهو في قمة مجده ولكل قمته ، والقمم تتفاوت علواً وصعوبة مرتقى . فهناك الذرى الشامخة ، وهناك التلال المتواضعة . كل حسب ما أودع فيه الخلاّق من طاقة .

ويا حسرة على من ينحدر من قمته ليموت على السفح .

واللوعة كل اللوعة على من يموت وهو يصعد المرتقى الصعب الى الذروة الشامخة ، يصعد والخطى ثابتة ، والنفس مليئة بالثقة وبالطموح الى الاجمل والاكمل .

هكذا ماتت سميرة ! . . . هكذا انطفأت الشعلة في عز الصبا ، وموسم العطاء . فيا للوعتنا عليها !! . . .

كم يقهرني ان فقيدتنا الغالية لم تجمع مقالاتها وكثيراً من قصصها المبعثرة في الصحف ، واحاديثها وخواطرها الاذاعية في كتب لو وجدت لكانت لبنات مشرقات في صرح ادب المرأة عندنا . وكان لديها منها مئات العشرات ذهبت هباءاً على الأثير ، وهي من الأدب الرفيع البناء .

كنت أنتظر مواعيدها على الاذاعات لأستمتع بجرس صوتها العميق الدافىء وكلماتها الحلوة ومعانيها العميقة .

لم نجن من ثمارها سوى القليل مما لديها . رواية طويلة لم تنشر بعد هي (سيناء بلا حدود) وبعض الروايات والقصص والكتب الادبية المترجمة عن الانكليزية بلغة عربية متينة رصينة ، واربع مجموعات قصصية هي (أشياء صغيرة) و (الظل الكبير) و (قصص أخرى) و (الساعة والانسان) . ومنذ باكورة نتاجها

استطاعت ان تكون لأدبها طابعاً خاصاً يميزه عن غيره ، فهي ذاتٌ ذات مستقلة منذ كانت برعماً في دنيا الادب . وهذا لا يتأتى الا لذوي المواهب الاصيلة ، وقصصها كلها ذات طابع انساني واقعي ، مغلف بغلالة شاعرية نفتقدها في اكثر الادب الواقعي . وشاعريتها هذه تنبثق عن الموقف ، لا عن الكلمة المزوقة . ولذا جاء اسلوبها بعيداً عن التكلف ينساب بسلاسة ويسر ، ويستهوي القارىء منذ المبادرة الاولى حتى آخر كلمة . وهي بارعة في خلق الاجواء مهما تعددت ألوانها ، كان في استطاعتها ان تنقل قارئها في سطور قليلة الى حيث تشاء . والحبكة في قصتها متينة متراصة لخلوها من الحشو والنوافل كما يقضي بذلك فن القصة القصيرة . ولأن اتسمت خواتيم بعض قصصها بالعنف ، وأحياناً بالقسوة فما ذاك الا لانها بنت ثورة فلسطين . في مطلع صباها اغتصب وطنها أبشع اغتصاب عرفه التاريخ ، فذاقت مرارة التشرد ، ولوعة الاغتراب . وكان لهذا كله تأثير بالغ في نفسها انعكس صوراً حية في قصصها .

يا أعز صديقة !. لكم أتمنى الا انتهي من الحديث عنك ، ولكم تمنيت والله ان تقفي مني موقفي منك اليوم . فأنت أقدر مني على وفاء كل ذي حق حقه ، وهذا ما عجزت عنه أنا ! ..

ان مصابنا بك فادح ! . ومن يملأ فراغك الكبير ؟!

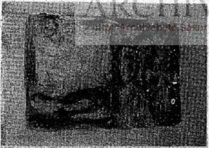
حين اكتمل نضجك ، وبدأ فيض عطائك الثر جاء الموت فاستلك منا في غدر اثيم قبل ان تحصد مواسمك الخيرة .

لئن غبت ياسميرة عن الاحداق فستظل ذكراك ماثلة في اذهاننا ، محفورة في قلوبنا نحن اصدقاؤك ، وقراؤك ، وانه لبعض من وفاء اصيل عرفناه بك .

لوحات جديدة ومعرض متجول

حول المعركة..

غازي الخالدي



الشهيدة

الياس زيات

بدون ان تتم اية دعوة علنية لاقامة معرض حول موضوع العدوان كانت الدعوة قائمة بالفعل في نفس كل فنان على حدة ليعبر من خلال احساسه الخاص بالهزة القومية تعبيراً صادقاً وحاراً يمثل رأيه وموقفه من هذه الهزة.

وفي زيارة لمراســم بعض الفنانين التقيت باعمال في طريقها الى المعرض.

الذي سينطلق من دمشق الى عواصم العالم[1]. تدور كلها حول الموضوع الوحيد الذي فرض نفسه على جميع فناني الوطن العربي في هذه المرحلة .

● نذير نبعة.. يرسم اليوم ثلاث لوحات، منها لوحة (الوطن الام) . وهي لوحة تعبيرية رمزية باسلوبه الاخير الذي يعتمد على تحطيم الشكل وبنائه على اسس جديدة من خلال رؤية خاصة به .

وقد لجأ الى الرمز في الشكل والموضوع والحركة والتعبير ، فالام هي الوطن ، والاولاد هم الدول العربية التي كانت هدف العدوان المباشر .

لم يحاول نذير ان يلون ، فاللون هو احد وسائل التعبير وليس كلها ، لذلك ركز بلون واحد فقط على هذه المأساة البشرية التي لم تأخذ طابع التخاذل .. او الرضوخ وانما تحمل معنى الاصرار والتمرد والعودة .

وحركات الاطفال من الناحية التشكيلية تؤلف مع حركة الام مربعاً متكاملا له ابعاد متساوية تقريباً ، كما ان عدم التشابه في وضع الايدي جعل التنوع ظاهرة مريحة للعين عندما ترى اللوحة لأول وهلة .

ومن ناحية اخرى .. ان هذه المجموعة من الاطفال مع امهم .. رسمهم عراة ، بمعنى أن الرمز هنا دخل الى المعنى الميتافيزيقي بالنسبة للاشكال المرتبة في الطبيعة . فالهدف في اللوحة على هذا الاساس ليس الانسان الفرد المطروحة صورته في اللوحة .. وانما الانسان العربي ، بمعناه المطلق .. الانسان المرتبط بالوطن الام .. دون أي تزييف او تغطية .

أما التعبيرات المرتسمة على الوجوه فهي تحمل مزيجاً من الالم والثورة والاستنكار .. وبالتالي الاصرار على الانتقام . وبالنسبة للوحاته الأخرى فهي تتشابه بالحركة مع اللوحة الاولى من ناحية بسط الايدي والاذرع الى ابعد مدى تشكيلي في اللوحة ، وهذه الحركة

(١) افتتح هذا المعرض في دمشق في ٣٠ آب (أغسطس) الماضي .

متأثرة بالمسرح الكلاسيكي بالذات وخاصة عطيل .

وانا ارى ان الفنان اذا لجأ الى استعارة صور ذهنية ادبية او صور واقعية حقيقية من المعركة ، يقع في ازدواجية مركبة بين شعارات الادب ولغة الفن التشكيلي ، او بين مفهوم الواقعية وبين الفكر التوكيبي . فالواقع المرئي شيء وطريقة التعبير عن هذا الواقع شيء آخر . فالفنان هو العنصر الذي يكمل او يعيد بناء الطبيعة والواقع ، أو يغيره تغيراً جذرياً من خلال المعطيات المعروفة في الفن التشكيلي .

وهذا هو الفرق بين الاعلان واللوحة . فالاعمال التي قدمت في المعرض المكشوف الذي اقيم في دمشق ابان المعركة كانت اعلامية ذات طابع توضيحي وتحمل شعارات ادبية مستوحاة من الواقع مباشرة ، اما الاعمال التي تعد اليوم في بيوت الفنانين ومراسمهم فهي تختلف عن تلك اللوحات اختلافاً كلياً خاصة وان اللوحات التصويرية تحمل معنى المأساة غير المرتبطة بزمان او مكان معين لذلك لا تحمل صفة الاعلان المرتبط بحادثة معينة . فاللوحة التصويرية تحمل معنى بدياً وتستمر قيمتها الحضارية مع الايام دون ان تفقد قيمتها الجمالية .

● وممدوح قشلان رسم لوحة عن النكبة لجأ فيها الى فكرة اللاجئين المشردين ، عالج الموضوع باسلوب تعبيري سبق ان قدمه في احدى لوحاته في معرضه الاخير ويعتمد هذا الاسلوب على التشويه المقصود في النسب التشريحية وفي البناء المعماري للأشكال .

والشيء الذي وقع به ممدوح هو الناحية المسرحية المبالغ بها لدرجة ان مجموعة الوحدات جمعت ووضعت كأنها على خشبة مسرح بالفعل ، كما ان طابع المبالغة في الحركة ايضاً اعطى اللوحة صفة ادبية خطابية اكثر من كونها لوحة تشكيلية ، اي ان

الحلول التشكيلية المطروحة في اللوحة لم تكن على مستوى الفهم العلمي للتكوين في العمل الفني .

● وناجي عبيد رسم لوحة مستوحاة من المعركة باسلوب زخرفي مبسط متأثر الى حدما بأساوب الفنانين (بول كلي) و (نعيم اسماعيل) . الا انه رغم ذلك يتفرد بشخصية خاصة بالنسبة للالوان وبالنسبة لطريقته المعروفة باستعمال الكتابة العربية ... والذي يؤخذ على لوحته هو هذا الحشد الزائد بالوحدات الزخرفية التي كان من الممكن تبسيطها والاستغناء عن بعض اجزائها . والكتابة جاءت هذه المرة منفصلة عن التكوين . الا ان روح المأساة .. والالم .. واضح من خلال الوجوه الثلاثة الموزعة في منتصف اللوحة . وشيء آخر حاول ان يركز عليه هــــو فكرة امتداد وتلاقي الخطوط بين اجزاء التكوين المختلفة ، وهذا ايضاً جاء بشكل مفتعل بعض الشيء . فالخط لا يجبر على السير نحو شكل معين ، ولكن الشكل هو الذي يفرض الخط ويوجهه بشكل عفوي .

● واما عز الدين شموط فقد لجأ الى التركيب الهندسي ورسم لوحة باسلوب زخرفي مبسط ، حاول ان يستخدم وحدات شبرية وآلية وطيور وشعارات وكتابة ، جمعها كلها في تكوين مستطيل اسماه (النازيون الجدد) .

اللوحة تعتمد بالدرجة الاولى على التعشيق بين المساحة والشكل وبين الوحدة الزخرفية والخطوط المتلاقية من جراء رسم او كتابة ، مع تخفيف لدرجات اللون بحيث تتعاكس المساحات . ان هذا الاسلوب زخرفي بحت ، والعنصر الانساني فيه منفذ باسلوب هندسي آلي يفقد معه المضمون الانساني ، كما ان حشد الوحدات الزخرفية من خلال الشعار النازي اعطى للوحة ثقلاً وأفقدها التوازن . الا ان الفكرة من حيث الاصل فكرة جيدة كانت تحتاج الى توزيع آخر للوحدات التي فيه ؛ فبعض الوحدات فيها

مرتبط ارتباطاً متيناً ، وبعضها متفكك بشكل واضح .

● **والياس زيات** الفنان الذي عرفناه تجريدياً في المرحلة الاخيرة يرسم اليوم مجموعة لوحات من وحي المعركة منها لوحة (الشهيدة) . أعطى في الصورة احساساً شاعرياً ، وباسلوب تعبيري متين ، وقسم التكوين الى قسمين اساسيين : قسم واقعي ، وقسم رومنسي . أما القسم الاول فيمثل مجموعة نائحات في اوضاع مختلفة يجمعهن الحزن العميق ، وأما القسم الثاني فتبدو الشهيدة فيه وهي تتحرك الى الامام في طريق الخلود كأنما تمهد الطريق للجيل المنتصر الذي سيأتي بعدها . والتكوين في اللوحة على هذا الاساس يعتمد على عنصرين تشكيليين أساسيين ربطتهما الفكرة واللون . وهذه العودة من الياس زيات الى الاشكال الواقعية ليست ردة في اعماله ولكنها استمراراً لتجاربه وخبراته لان الياس فنان اصيل وخبراته متصلة .

● **واسمـــاء فيومي** ايضاً الفنانة التجريدية تساهم ايضاً في معركة المصير ، وترسم باسلوبها المعروف الذي يعتمد على البقعة اللونية والمساحة المتصلة ، مجموعة وجوه بشرية ملتحمة تعبر عن صدمة النكسة واثرها الشديد على المواطن العربي . وبالطبع ان اللون هنا هو العنصر التشكيلي الهام فاللون يتحرك بين جميع اجزاء الصورة دون ان تحده خيوط معينة فهو الذي يحمل التوتر النفسي والانفعال الشخصي ، وهكذا تحاول اسماء فيومي ان تطوع التجريد وتستخدمه في مجالات قومية .

● وكذلك في مركز الفنون التشكيلية نجـــد **امين الدوخي** وقد رسم مجموعة خرائب كرمز لوحشية العدوان . قال في لوحته : «اننا سنعيد البناء» . واللوحة منفذة باسلوب انطباعي ومن خلال نظرة واقعية للطبيعة . والشيء الذي يؤخذ عليه هو الاحساس التزييني في وضع الخرائب ، ولكن ذلك لم يؤثر كثيراً على بناء اللوحة .

• **وغازي الخالدي** رسم ايضاً لوحتين الاولى اسمها (القدس) وهي عبارة عن مجموعة بيوت موضوعة على شكل صليب تتوسطها قبة الصخرة ، واللوحة الثانية واسمها (نابالم) وهي رمز لتناقض الذي تتجسم به قوى العدوان بين الحضارة وبين استعمال قنابل النابالم .

كل هذه اللوحات وغيرها تعد الآن في مراسم الفنانين في حمص وحماه وبقية المحافظات لتعرض في معرض متجول عام يحمل للمواطن العربي والعالمي صرخة الفنانين واحتجاجهم ، باعتبارهم من دعاة الحضارة الانسانية . والفن على هذا الاساس لم يعد تسجيلاً للوقائع بل اصبح صرخة ، وكلمة ، واحتجاجاً .



استغاثة اللاجئين

ممدوح قشلان

في متحف دستويفسكي

بقلم: ج. كوغان
ترجمة: سامي دهبر

عن مجلة « الثقافة والحياة » السوفيتية

قبل نيف ومائة وخمسين عاماً اي في سنة ١٨٢١، دونت في احد السجلات الكنسيّة لمدينة موسكو واقعة الولادة التالية: وضعت زوجة الطبيب العسكري ميخائيل دوستويفسكي، في شهر تشرين الاول، (اوكتوبر) في المنزل المجاور لمستشفى الفقراء، طفلا عمد تحت اسم « فيدور » ..

يقع ذلك المستشفى الذي كان يعرف آنذاك بمستشفى مريم، في شارع نوفايا بوجيدومسكايا (شارع دوستويفسكي اليوم).

هناك، وفي ركن من اتعس اركان موسكو، بالقرب من « بيوت المتواضعين » ومقبرة الفقراء، وفي بيت متواضع لأحد الاطباء، امضى كاتب المستقبل سنوات طفولته.

وفي شهر ايار سنة ١٨٣٧، غادر دوستويفسكي هذه الاماكن وذهب الى مدينة بطرسبورغ، حيث دخل المدرسة

المركزية للهندسة . ومالبث ان احيل بعد ذلك على التقاعد . فانتقل منزل اسرة دوستويفسكي الى طبيب آخر ، وظل مستخدمو المستشفى يتعاقبون سكناه سنوات طوالا .

كتب اخوه الأصغر اندريه دوستويفسكي : « كان والدنا يسكن منزلا يمكننا القول انه يتألف من غرفتين باستثناء مدخل الصفة والمطبخ . فما كنا نجتاز الدهليز حتى نلج صفة تطل نافذتها على الباحة الامامية . وقد اقيم في تلك الصفة حاجز من الدفوف لايكاد يبلغ السقف، ويعزل خلفه غرفة الاطفال . ثم تأتي الغرفة العامة المشتركة ، وهي غرفة كافية السعة ، وفيها نافذتان تطلان على الشارع ، وثلاث أخريات تطل على الباحة الأمامية . ويلي تلك الغرفة البهو ؛ وفيه نافذتان تطلان على الشارع ، وقد أقيم في أقصاه حاجز آخر من الدفوف يعزل غرفة نوم أبوينا شبه المظلمة . هـذا هو المنزل . » وقد ألحقت به فيما بعد غرفة اضافية ، فقد كان للطبيب دوستويفسكي ثمانية أولاد .

وفي الحادي عشر من شهر تشرين الثاني سنة ١٩٢٨ جُعل متحف دوستويفسكي في ذلك المنزل .

وقد احتفظ حتى بالحاجز الذي كان يفصل الصفة عن غرفة اكبر الأولاد ميخائيل وفيدور، حيث كان يبث احدهما الآخر احلامه عن « الجمال والسمو » .

وقد كتب فيدور دوستويفسكي في يومية كاتب : « كان أخي ينظم الشعر ، فكان يكتب كل يوم قصيدتين او ثلاثاً . أما أنا ، فكنت انسج في ذهني خيوط قصة تروي حياة مدينة البندقية . »

وفي تلك الغرفة شبه المظلمة ، ذات النافذة الواحدة التي تطـل على حجرة الأشياء المهملة ، كانا يقرآن بشغف شيلار ومعاصرهما بوشكين : « كنا نعرف جميع قصائده تقريباً عن ظهر قلب . »

وحُفظ في البهو حيث كانت تشترك الاسرة في المطالعة الاثاث القديم (الذي

نقل من قرية « دارو فويه » من اعمال زارا ئيسكي حيث اقام والد الاديب بعد احالته على التقاعد » . وقد وصف دوستويفسكي هـذه المطالعة في قصة محتقرون ومهانون » . وعندما كان يستذكر الكتب التي كانت أليفـه في حياة كان دوستويفسكي يلاحظ : «ان انطباعات الجميل ضرورية في فترة الطفولة ، وقد حملت معي في الحياة من هـذه المطالعات كثيراً من الانطباعات الجميلة والنامية ...»

ويحتوي المكتبة على طبعات لقصص روسية شعبية مزدانة بصور ملونـة : « كنا نملك دائماً مثل هذه الكتب » . كما تحوي اول كتاب تعلم الأطفال فيه القراءة (أربع ومئة مقدسة مقتبسة من العهدين القديم والجديد .) وكذلك كتـاب « تاريخ الدولة الروسية » لكارامازين ، وقصص آن راتشليف ووالتر سكوت « الذي قرأت جميع مؤلفاته وأنا في الثانية عشرة من عمري» ، ومؤلفات ديرجافين وجو كوفسكي ، ومآسي شكسبير والمجلة الشعبية لتلك الفترة « مكتبة المطالعة » التي كانت تنشر قصص جورج صاند وبلزاك وديكنز .

وكان دوستويفسكي يتذكر ايضاً الحفلات الموسيقية العائلية : «كانت أمي تحسن العزف على القيثار » . وقد ضمن « الاخوة كارامازوف » احدى الأغاني التي سمعها في طفولته . وعندما كان يقرأ سنـة ١٨٦١ كتاب « زواج بازامينوف » لالكسندر اوستروفسكي مع اخيه » تذكر دوستويفسكي بيت منزلهم ومن كن يترددن عليه : خالاته وجداته اللواتي كن ينتمين لأوساط التجار . « كنا نمسك خواصرنا من الضحك من ر كن موسكو الذي زرناه بعد ان أصبح نموذجياً . وقد شاهدت آلاف المرات من (تلك النسوة زوجات التجار) عندما كنت أعيش في موسكو وأنا في العاشرة من عمري تقريباً » .

ويمكن مشاهدة لوحات في المتحف

تمثل اقارب الكاتب . وقد صور دوستويفسكي أحب خالاته الى قلبه (التي قال عنها : « انها ساهمت مساهمة كبيرة في تربيتنا منذ الطفولة حتى بلوغنا سن السادسة عشر) تحت ملامح امرأة عجوز في روايته « المقامر » ، هي التي كانت تصطحب ابناء الطبيب دوستويفسكي في عربتها من بوجيدوسكا الى الساحة الحمراء . وقد كتب دوستويفسكي : « كانت زيارة الكرملين وكاتدرائيات موسكو محاطة بالنسبة لي بما يشبه الهالة » .

ولا يحتوي منزل الطبيب القديم على أشياء طفولة دوستويفسكي وحسب ، بل جُمع فيه كل ماله علاقة بذكرى هذا الكاتب الكبير ، بما في ذلك آثاره التي أهدتها أرملته السيدة دستويفسكايا ، الى مدينة موسكو سنة ١٩٠٦ .

وتسمح هذه القطع المعروضة بتتبع حياة دوستويفسكي رجلاً واديباً خطوة خطوة . فالكتب عديدة جداً : طبعات سوفيتية واجنبية لقصصه ، ودراسات عن مؤلفاته ظهرت في بلدان مختلفة . وتحتفظ في المتحف اولى اعماله الأدبية (ترجمة لقصة بلزاك «اوجيني غرانده» التي نشرت سنة ١٨٤٤ في مجلة « سجل العباقرة » ، وقصة « المساكين » التي ظهرت في « منتخبات بطرسبورغ » وقام بنشرها نيكراسوف سنة ١٨٤٦) واعداد من «حوليات الوطن» و «الرسول الروسي» المتضمنة قصصه ، ومجلات «أزمنة وعصور» التي أصدرها بالاشتراك مع أخيه ، و « يوميات كاتب » التي كان يصدرها في السبعينات ، وكتب عديدة تحمل اسطراً مكتوبة بأيدي فيدور دوستويفسكي وأصدقائه .

ويحرص كل زائر على مشاهدة مخطوطات الاديب ودفاتره الصغيرة . (كان دوستويفسكي يطلق اسم «اختراع التصاميم» على أولى مراحل عمله في كل من قصصه التالية : « الجريمة والعقاب » و «الابله» و «الممسوسون» و «المراهق» و « الإخوة كارامازوف » . فهي تشهد

على التأملات العميقة والتناقضات المأساوية عند ذلك الرجل الذي أحب الحقيقة بكل جوارحه، وذلك الفيلسوف الذي قال عنه توماس مان: «انه أعظم عالم نفسي عرفه الادب العالمي».

والى جانب المخطوطات، الصحف التي كان يطالعها الكاتب الذي كان فريسة الشوق الى الاخبار، وكان يهتم بأبرز مشاكل زمانه.

ونجيء وثائق أخرى أعوام دراسته في المدرسة المركزية الهندسة، والفترة التي أمضاها في خدمة مدرسة بطرسبرغ للهندسة؛ وتوجد بينها مذكرات القاء القبض على دوستويفسكي لاشتراكه في جمعية بتراشفسكي، ومحاضر التحقيق في تلك القضية، والحكم عليه بالإعدام، واعتقاله النهائي الذي حكم بموجبه بالسجن مع الاشغال الشاقة، وبالخدمة في معسكر تأديبي، وكذلك تقارير عن حياة دوستويفسكي في المنفى وفي سجن قلعة «اومسك»، والامر القاضي بتجنيده في الكتيبة السيبرية السابعة، المعسكرة في سيميبالاتنسك، كجندي بسيط، والامر بترقية الجندي دوستويفسكي الى رتبة حامل العلم.

كتب الى الجنرال توتلبن الذي كان قد تعرف اليه في مدرسة الهندسة بوجوه المساعدة على إحالته على التقاعد والعودة أخيراً الى مدينة بطرسبرغ بعد عشر سنوات أمضاها في المنفى:

«إن المهنة العسكرية ليست ميدان عملي.. فقد اعتبرت دائماً مهنة الكاتب أنبل المهن وانفعها. وأنا واثق تماماً بأنني لن أكون نافعاً حقاً إلا عن هذه الطريق.»

ثم تأتي وثائق أخرى تشهد على المراقبة الشديدة التي احيط بها الكاتب في هذه المدينة، وعلى عمليات تفتيش منزله اثر عودته من أسفاره الى الخارج، ووثائق أخرى تشهد على الشهرة العالمية التي كان دوستويفسكي يتمتع بها في السبعينات: فقد انتخبه المؤتمر الادبي الذي انعقد في لندن، رغم تغيبه عنه،

عضواً في لجنة الشرف للاتحاد الأدبي الدولي . ودعاه فيكتور هوغو شخصياً لحضور المؤتمر .

وتكشف صور دوستويفسكي النقاب عن جوانب متعددة من حياته ، « نهر مصائبه النـاري » وعن تأملاته . فها هو مثلاً رسم لدوستويفسكي الشاب ، وهو أول ماوصلنا من رسومه ، أنجزه بقلم الرصاص سنة ١٨٤٧ تروتفسكي ، أحد رفاقه في مدرسة الهندسة . واللوحة التي رسمها بوميرانتشيف أحد معاصري الكاتب التي تمثل « عيد الميلاد في بيت الموتى » ، هي أول رسوم قصة « ذكريات بيت الموتى » . ويظهر فيها دوستويفسكي بين المحكومين بالاشغال الشاقة في سجن « اومسك » . ثم تأتي صور فوتوغرافية لدوستويفسكي في الستين والسبعين من عمره ، ورسم بقلم ي . كرامسكوي نفذت سنة ١٨٨٠ نقلاً عن آخر صورة فوتوغرافية للكاتب بمناسبة الاحتفالات المكرسة لتدشين نصب بوشكين .

ويبطىء الزوار أمام مكتب الكاتب . وتلاحظ عليه أدواته الشخصية : النظارات وريشة خشبية بسيطة وبعض بروفات قصة « الإخوة كارامازوف » ورسائل كان قد تلقاها من قرائه . وفي المكتبة كتب قدمها لدوستويفسكي بعض أصدقائه ، وكتب أخرى ، مجموعة كلها وفق اللائحة الـتي وضعتها السيدة ا . دوستويفسكايا ، لأن مكتبة الكاتب لم تحفظ بكاملها . ويلاحظ فيها : « دون كيشوت » لسرفانتس (قرأ دوستويفسكي عدة مرات هذه الـ « اعظم كلمة للفكر البشري » عندما كان يعالج شخصيته « الرجل الايجـابي » في قصة « الأبله ») ، ومؤلفات بوشكين وغوغول وديرجافين ونيكراسوف وتولستوي وشكسبير وشيللر ، ودراسات فلسفية ولاهوتية ، ومؤلفات عن تاريخ روسيا وفرنسا والمانيا . والى جانب هذه الكتب توجد بعض صور فوتوغرافية من مجموعته نسخ عن لوحاته المفضلة للرسامين رامبراندت

وتيسيان ولودين ورافائيل ، وصور اخرى كان قد اشتراها من معرض درسدن ، وصور للمدن السويسرية والايطالية والالمانية التي عاش فيها في السبعين من عمره.

وفي حديقة المتحف ، بين اشجار الزيزفون ، يرتفع نصب تذكاري شيده النحات السوفييتي ميركوروف للكاتب الروسي العبقري .

الاشتراك بمجلة

المعرفة

يعني وصولها الى القارىء بانتظام وبسعر مخفض

بدل الاشتراك السنوي في سورية ١٠ ليرات سورية يرسل حوالة بريدية باسم محاسب مجلة المعرفة (دمشق — وزارة الثقافة والسياحة والارشاد القومي) أو يسلم اليه شخصياً .

يرسل الاشتراك من خارج سورية بموجب شيك على احد المصارف التي لها فروع بدمشق باسم محاسب المجلة .

المعرفة : مجلة الطلائع العربية

حبّ

قصّة للكاتب البلغاري
ايلين بـلين

بمناسبة مرور ٩٠ سنة على ميلاده



ايلين بلين

في الثلاثين من تموز (يوليو) الماضي انقضت تسعون سنة على ميلاد الكاتب الواقعي البلغاري الكبير «ايلين بلين» Eline Pél ne . وليس هذا الكاتب اليوم بين الاحياء ، فقد فارق شعبه الذي احبه حباً عميقاً . بيد ان صنيعه الادبي ما زال نضراً فتيـاً ، فريداً ومفعماً بالحياة ، قوي الاثر في النفوس ، فالزمن عاجز حيال سحر اقاصيصه ورواياته القصيرة الذي صور فيها ، ببراعة فنية فائقة ، جمال الارض البلغارية ، ونبل ونقاوة ابناء الشعب الذين يصنعون الخيرات المادية ، خلافا للمستثمرين والغاصبين .

ان ايلين بلين هو من ابرز ممثلي الواقعية الانتقادية في الأدب البلغاري . وليس في سيرة حياته وقائع جديرة بالتنويه . فقد نشأ في قرية صغيرة فقيرة قرب صوفيا ، وذاق منذ حداثة سنه نكد الحياة البائسة التي عاناها ألوف الكادحين في زمن الرأسمالية . وبدأ ايلين بلين يكتب مؤلفاته خلال العقد الاخير من القرن الماضي عندما كانت بلغاريا تمر في فترة بداية تراكم رؤوس الاموال . وخلال هذه المرحلة اخذت المظالم الاجتماعية تبرز بشدة ، وانهار الكثير من الآمال . فقد كانت الرأسمالية قوة غاشمة تسحق كل ما هو نقي ووضاء ورفيع ؛ وقد منيت الاماني الجميلة والمطامح الشريفة بانهيار فظيع وحل الدمار ونبذت بنظاظة ، كسقط المتاع ، المثل الوطنية النبيلة القديمة التي امتاز بها عهد النضال التحرري في بلغاريا . واخذ كثير من الكتاب ينددون تنديداً شديداً بالاحابيل الدنيئة التي يلجأ اليها الرأسماليون في بلغاريا وغيرها .

ومن الحقول والاكواخ المتداعية ، من بؤس الفلاحين المعذبين واوجاعهم ، جاء الى المدينـة الكبيرة كاتب اخذ يتكلم بلسان الشعب . وكانت كتاباته في ظاهرها خشنة خالية من التنميق والمؤثرات العصرية ، ومن التأنق اللفظي والتراكيـب الرمزية المعقدة ، ولكن ما أشد قوتهـا الفطرية ؛ وما أعمق صدقها وحيويتها وبعدها عن التكلف والاصطناع ! هل بوسع القارىء الا يصدق كاتباً كهذا ، والا يعجب بالقوة والجمال في عبارته التي تحوي حكمـة الكلام الشعبي وذ...ه ونضارته ، وتتألق كاللؤلؤة ، وتتردد فيها اصداء الرقصات الشعبية في ميادين القرى ! هذا الكاتب الجديد هو ايلين بلين . وبكلماته يتحدث الشعب . وقد انطوت نفسه على كنز من المشاهدات والانطباعات المستمدة من حياة الكادحين المألوفة . والشعب لدى هذا الكاتب هو الفلاحون الذين يحملون ، في رأيه ، امتن مقومات الروح القومية . ان كل أنة يطلقها الفلاح تتجاوب صداها في نفسه ، وكل توق في نفوس الشعب هو باعث على ترقب جديد وآمال جديدة . ويكشف ايلين بلين في الكثير من اقاصيصه مثل « في العـالم الاخر » ، « اندريشكو » ، « الحاصدون » ، وفي قصصه الطويلة مثـل « عائلة غيراك » ، و « الارض » ، عن الصورة المثلى للانسان في

نظره : ان يكون شريفاً ، شجاعاً ، محباً للعمل . وهو يرى في الفلاحين تجسيداً تاماً لروعة العمل المتضامن الذي يبدو له سعادة هادئة لاتشوبها الشوائب ، ذات علاقـات انسانية بسيطة نقية ، ومناقب اخلاقية . ويلاحظ الكاتب بألم كيـف ان الاستثمار الرأسمالي الدنيء والقوانين الامبريالية الدنيئة تقوض كل يوم ماهو جميل ووضاء .

ويبحث ايلين بلين عـن اشكال جمالية متنوعة ليعبر عن سخطه واحتجاجه على تناقضات الواقع . وقد عبر في نتاجه المؤثر ذي المحتوى العميق كقصتي « على الأتلام » و « أثنـاء الحصاد » عن آلام الشعب ايام الرأسمالية بصورة فنية فريدة ، خالية من المبالغات العاطفية او الشكوى السلبية . ولا يكتم الكاتب حبـه العميق للكادحين المعذبين . بل يرسم شخوصهم بعطف ظاهر ، ولكنه لايجعل منهم اشخاصا مثاليين ولايبالغ في استخدام الألوان المعتمة ، بل يتعاقب لديه الحزن والمرح ، وتتلاقى عنـده اطراف الصراعات التراجيدية . وايلين بلين صلب كالصخرة الصماء في دفاعـه عن الفلاحين الفقراء ، من يهاجمهم فهو عدوه . واذا لم يكن في الامكان قهر الشر ، فلا اقل من الانتقام منه . والكاتب يمجد الابطال الشعبيين الذين الذين لايحنون رؤوسهم امـام الرأسماليين الجشعين والمرابين وارباب السلطة ، ويناضلون ضد الجرائم وان يكن ذلك نضالا عفويا ، جزئيا ، غير منظم . ومن ادلة ذلك اقاصيصه « جميل » ، « جريمة » ، « الحقل المتخلف » وغيرها .

ويصور ايلين بلين كيف يكبح الجهل والايمان بالخزعبلات ، قوى الشعب ويقيدها ويجرها الى القنوط والانهيار . وكيف تسير مظالم السلطة جنباً الى جنب مـع الدجل الديني . ولكن حتى ابشع صور الواقع لاتدفع الكاتب الى التشاؤم ، ولا تفل ايمانه المطلق بقوى الشعب العاملة السليمة .

في قصته الطويلة « الارض » ، يصور الكاتب بقوة فنية كبيرة ، تحلل الرأسمالي الريفي الجديد وجشعه الدنيء في شخص اينيو الذي استحوذت عليه شهوة تكديس الثروة متمثلة في الارض وحدها ، بحيث بات يريد ان يمتلك حقولا لايلم بها البصر ، وان تكون له اجمل الاراضي واجودها ، وتعطش اينيو هذا هو قوة مدمرة تتضخم بـلا انقطاع وتبلغ ابعادا مريعة حتى تفضي آخر الامر الى جريمة فاجعة : اذ يقوم بطل القصة بمحاولة قتل اخيه ويجرحه جرحا بليغـا ويحوله الى انسان عاجز لايقوى على الحراك . وتدل تصرفات اينيو على ان بـه مرضا ، ولكن اساسها الاجتماعي واضح ، فهي تصرفات نموذجية تمـاما بالنسبة للوسط الذي يصوره .

ولأيلين بلين نتاجات كثيرة من لون آخر : نتاجات بهيجة مرحة ، يشيع فيها شعور التعلق بالحياة والفكاهة الحية . وتكمن على الدوام في اساس الاوضاع المضحكة

التي يصورها قضايا أساسية هامة من الحياة . وحتى عندما يقصد الكاتب الى التسلية فانه لاينسى أبداً شقاء الفلاحين والاستثمار . وفكاهة ايلين بلين فكاهة شعبية حقيقية ، فهي فكاهة هادفة ، حكيمة ذات مضمون .

لقد آمن هذا الكاتب ايماناً عميقاً بمستقبل الشعب . وشاء حظـه ان يعيش ليرى الحرية الشعبية ويجند قواه لبنـاء الحرية الجـديدة . وفي آخر سنوات حيـاته كتب نتاجات ملهمة عن عمل الشغيلة الذين تحرروا من الاستغلال .

ان كل ماكتبه ايلين بلين هو ارث عظيم للشعب البلغاري . وهذه الكتابات بما فيها من اتجاه انساني وتفاؤل وعدم تهادن مع الاستثمار والرأسمالية والامبريالية هي مساهمة قيمة في حضارة كل البشرية التقدمية الـتي تقارع قوى الظلام والرجعية .

اعفى القس لوقا ، هذا المساء ، فلاحيه من العمل باكراً ، ولم يسمح لهم كما في الأمسيـات الأخرى ، برقص الخورو والمرح .

وشيعت ابنته الحسناء « ايفكا » صديقاتها الى الباب الخارجي . وكانت تمزح معهن وتضحك في عتمة المساء . ولكنها رجعت كالخائفة ، وشرعت تساعد أمهـا في تنظيف البيت ، وهي مرتبكة كمن اقترف ذنباً .

لقد أثارت فعلة ابيها هذه خاطرا سيئاً في نفسها . وارتعدت حين عنّ لها انه يعرف كل شيء .

خلال النهار كله في الحقل كانت تحس نظراته ، الفاحصة الصـارمة الباردة ، تلاحقها .

وقالت لنفسها :

— لقد حدس الامر . ياالهي ، لماذا لم احتفظ ؟..

واحست بدوار النشوة وهي تستعيد الذكريات الغالية الحلوة التي ما برحت غضة ، ذكرت الأغـاني والمزاح ، والكلمات التي لم تنبس بها الشفاه ، والنظرات الخفية التي كانت تتبادلها مع « دوبريان » أجيرهم .

انها تحبه . آه لكم تحبه !

لقد ظلت النهار كله تحلم بهذه الأمسية تحلم بأن يلعبا معا في ظلمة المساء القريرة ويغنيا ويضحكا . وان تنطلق الى رقصة الحورو مع دوبريان ، وان يهمسا لبعضهما في السر ، دون أن يراهما او يسمعهما احد .

ولكن ....

ان اباها رجل غني ، معروف ، له مكانته . انه قاس وصارم ، وهي تعلم ذلك . وما كان ليصرف الفلاحين في هذا الوقت المبكر لولا ان في الأمر شيئاً . اما دوبريان فلم يلتزم الصمت ، بل قال لها وهو ينصرف على عجل :

— ايفكا .. هل ادركت لماذا فعل ابوك ذلك ؟

لقد أحس بخططنا وسيحطمها ... سيفرق بيننا !

— كلا يا دوبريان .. انه ليس على ما يرام ...

هكذا اجابته محاولة ان تطرد عنها هذه الفكرة .

فابتسم بحنق قائلا : أنا ادري .. واتجه نحو مخزن الغلال .

واذ وجد نفسه وحيداً تنهد بحنق .. فقد شق عليه الأمر كما شق عليها . وقال وقد استبد به السخط :

— آه ، ايها القس ، ايها القس ، لو كنت تعرف كل شيء ! واستلقى على ظهره بقوة فوق كومة من العشب الأخضر ، وتاه بصره في السماء المسائية العظيمة المترامية الاطراف ، التي يشد اطرافها حزام المجرة الوضاء المرصع بالنجوم . وبالتدريج تطهرت نفس دوبريان من الموجدة والسخط وصفت وامتلأت بالسلام والمحبة . فتحت هذه النجوم الالهية المرتعشة اقسمت له « ايفكا » على الحب الأبدي .

— وماذا عن ابيها ؟.. فليتميز من الغيظ ما شاء !

وجلس دوبريان على العشب وراح ينفخ في شبابته بالهام ، وارتعشت انغام عجيبة في الهدأة العميقة لتلك الليلة الصيفية

الساكنة . ارتفعت الانغام بادىء الامر هادئة ، مرحة ، ثم توقفت لحظة ، واعقبتها اغنية حزينة مفعمة بلوعة لا حدود لها ، اغنية تعبر عن المسرات الروحية الهادئة في القرى وسط الكدح المضني الذي يفوق الطاقة . وارتعشت الانغام المتداخلة ، وراحت تعلو وتهبط ، مترامية في سكينة الليل كالبكاء المرير . وكانت تنساب احياناً هادئة ، ثم تعلو وتنصب كوابل من الدموع . وفي النهاية تحولت الانغام الى أنين ، وكأنها تسأل المغفرة عن ذنوب لم تقترف ، وتضرع الى السماء بقنوط طالبة الغوث .

كان القس لوقا قد ظل بعد العشاء في الحديقة الباردة . ولبث ينصت الى الشبابة دون تأثر ، ويفكر في دوبريان مغتاظاً . لقد تعرض شرفه لاهانة بالغة ... كيف تحب ابنته الوحيدة المدللة « ايفكا » اجيرا ينام في الاسطبل مع جياده ؟! ...

وعندما فتح باب المنزل قليلاً ، ورأى في ضوء النار المتوهجة قامة « ايفكا » الرشيقة وهي تتقدم متوجسة خائفة ، هب من مكانه وقد لسعته نار الغضب ، واتجه نحوها بحذر ، وقد صر على اسنانه .

وقال لنفسه :

— سأضربها ضرباً مبرحاً ، ليعود عقلها الى رأسها !

بيد ان ايفكا اغلقت الباب وتوارت. اتجه القس لوقا الى الاسطبل . وكانت قامته المديدة ، تبدو في ضوء القمر سوداء كالشبح ، وهي تتسلل بخفة وحذر . وعلى السور الابيض كان ظــله المعتم الهائل يتبعه متلصصاً .

شعر دوبريان بقدومه فكف عن العزف . وعندما اقترب القس لوقا اخفى الشبابة ووقف احتراماً .

وقال القس بصوت خفيض صارم ، وهو يتوقف :

— دوبريان ، لقد كنت مطيعاً في عملك ، ولكن ...

لم يدر الكاهن ماذا يقول . كان يرتعد من الغضب . ولكنه تمالك نفسه وراح يبحث عن كلمات لينة ، لاتسيء

الى شعور دوبريان الذي لم يكن يعرف ماذا سيقول له القس، فلبث ينتظر بصمت.

واستطرد القس يقول وقد لانت عريكته :

— انني ممتن لعملك . ولكنني ارى اموراً . . .

فهم دوبريان فغض طرفه . واحس بنار الخجل تلهب جبينه .

— ان ما تفعله هو عار . . وخير لك ان تنصرف ولا تعود الى هنا بعد اليوم . . ولا تتوهم ان من الممكن ان يحدث شيء . . هل فهمت ؟

اعتصم دوبريان بالصمت .

— هذا كل ما في الأمر .

قال القس ذلك واتجه بخطوات متزنة نحو البيت .

سار دوبريان مترنحاً مذهولاً في باحة المنزل ، وفتح البوابة وغاب في الشارع المقفر ونفسه مفعمة بالموجدة والاهانة .

ودخل القس لوقا المنزل مقطباً ، شأنه طيلة ذلك المساء . كانت ايفكا وامها تعملان قرب النار . فتفرست الام في عينيه متسائلة . وقالت برقة :

— اين ابطأت ايها القس ؟ لقد تأخر الوقت .

قعد القس لوقا على كرسي قرب النار التي كان اللهب يتراقص فوقها ، ولم ينبس بحرف .

وعادت زوجه تقول بحنان :

— هيا نم ، لقد لوحتك الشمس طوال النهار .

فأجاب القس :

— لا يواتيني النوم .

ثم أضاف بعد قليل :

— لقد طردت دوبريان . .

كانت ايفكا عاكفة على وعاء الماء تؤدي عملا ما ، فانتصبت مصعوقة وتطلعت الى ابيها . واستمرت الام تتفرس في زوجها ، وقد استولت عليها الدهشة . وخيم الصمت على المنزل . وظلت ألسنة النيران تتراقص في الموقد ببهجة ، وضوؤها المرح يرتعش على الجدران البيض والصحون والاشياء في المنزل . وكانت القطة تنام في الزاوية بكل

وحني القس لوقا رأسه متفكراً ومضى ينقر بعصبية حبات مسبحته الواردة من القدس . كان وجهه جامداً لا يفصح عن شيء ، وضوء النار يتراقص فوقه وينيره على نحو غريب . وبعد صمت طويـــل مرهق قال ، دون ان يتحرك ، وكأنه يحدث نفسه :

ـ كان لابد ان اطرده .

وزفر باستياء .

وتساءلت الام : أي ، ولماذا فعلت ذلك ؟

فقال القس متزعجاً ، دون ان يتطلع الى ابنته : لتقل لك ايفكا !

قالت الام راغبة في تسوية المسألة : يارجل ، لاتقل ذلك !

فكرر القس : ستقول لك ايفكا .

وضعت ايفكا صحنا كان في يـدها واستدارت ، ورفعت يديها الى عينيها وانخرطت في بكاء خافت . وضاعف ذلك غضب ابيها فصرخ بها :

ـ تبكين ، ها ؟ ادري لماذا تبكين .. اخرجي من البيت !

فقالت الام : مهلا ، لاتعنف الطفلة ، يارجل !

ـ لتغرب عن وجهي ، لا اريد ان اراها . سأضربها حتى الموت !

ـ يا ، ماهذا ؟ هل جننت ايها القس ؟

ـ اسكتي ! انت ايضا عوجاء !

غادرت ايفكا المنزل . وراحت الأم تقرع القس ، فزجرها ثم خرج عبر الباب الصغير الى الحديقة ، وبعد ان اشعل لنفسه بعصبية لفافة تبـغ ، اخذ يتمشى جيئة وذهابا ، يلاحقه ظله المعتم الكبير .

كانت القرية قد هجعت منذ وقت طويـــل في احضان تلك الليلة الباردة الرائعة من ليالي تمـوز . وكان القمر المكتمل ، البهيج يعوم في السماء . ولم تكن تسمع نأمة من أية مـكان ، سوى الطاحونة المائية التي كان هديرها الخافت يتناهى من بعيد . وكانت الا كـــواخ ، القروية الواطئة المنزوية باستكانة بين بساتين الفاكهة ، غارقة في اغفاءة عذبة ،

وهي تضم بين جوانحها فلاحين مجهدين حاق بهم البؤس . وعاليا فوق المشهد القروي المعتم كان ضياء القمر يغمر صليب الكنيسة ، هذه التعويذة التي تمد الفلاحين بالأمل وتأسو قلوبهم المعذبة .

وعلى مقربة من الكنيسة كان صف من أشجار الجوز الشامخة ينتصب وكأنه صف من رهبان سود عمالقة .

راح القس لوقا يذرع الحديقة بعصبية وهو يفكر .

وبغتة شقت هدأة الليل صرخة نسائية مريعة ، لعلعت بقنوط وبشاعة وانقضت رهيبة مشؤومة وكأنها هوت من قبة السماء ، واعقبتها صرخة ثانية وثالثة . وأخذت الكلاب التي ايقظها الصراخ ترسل هريرها الموحش ، واقشعر الليل .

تسمر القس في مكانه مصعوقا . وعلى حين غرة هرعت اليه زوجه مذعورة ، فاقدة الرشد ، شبيهة بالمجنونة ، وتشبثت بمسوحه . ثم ارتمت على الارض بقنوط وصرخت من جديد .

ومرة اخرى ترامى فوق القرية صدى صرختها بشعا ، مشؤوما ، فاقد الصواب .

ارتعد القس وأنهضها مرتاعا وهو يقول : انهضي يا امرأة ، ماذا هناك ؟

وظلت هي تشد مسوحه بفزع وقد انعقد لسانها .

وسأل القس لوقا طائش اللب ، وقد حدس الامر البشع الرهيب : ايفكا ؟ اين ايفكا ؟

جذبته امرأته من مسوحه نحو البيت وهي لا تقوى على الكلام ، وقد انحنت الى الارض وهي تعول وتولول .

وفي الظل تحت السلم كانت ايفكا ترقد دامية وقد فارقتها الحياة .. وارتمت الام فوق جثتها ..

راح الناس يتراكضون في جميع طرقات القرية مذعورين والكرى لم يفارق جفونهم بعد ، وملأوا فناء منزل كانت ايفكا ترقد ميتة . فقد انغمدت سكينا مرهفة في قلبها ، ويدها الهامدة ماتزال تقبض على السكين . وكان القمر

يسبغ نوره الناعم على وجهها الحلو الشاحب واهدابها الكثيفة السوداء القس . وتعالى صدى الصراخ والنحيب المطبقة ، وعلى القميص الأبيض الذي يحجب صدرها الناهد انتشرت بقع حمر كالقرنفل . واحاطت صاحبات ايفكا الشابات بصديقتهن الميتة واخذن ينتحبن بلوعة . واغمي على الأم .

اما القس لوقا الذي تجمع حوله الناس ، وكان اطولهم قامة ، فقد لبث هناك يحدق بذهول ويلوح بيديه عاجزاً ذاهب الصواب .

كان الناس يتقاطرون مشدوهين وهم يتساءلون : ما الذي حدا بهذه الفتاة اليافعة الطيبة ان تغمد سكينا في قلبها . ورسم رجل مسن على صدره علامة الصليب وقال : اننا متقدمون في السن ... لا نستطيع ان نفهم القلوب الشابة .

نداء من المثقفين العرب

يدعو إلى إقامة وحدة اتحادية عربية

في مثل هذه الظروف التي أصيب فيها الشعب العربي بنكبة فادحة ، يشعر جميع المخلصين من أبناء هذه الأمة بضرورة التفتيش عن طريق يتوفر فيه أمل الخروج من الوضع الحاضر ، ومتابعة السير في طريق تحقق الأهداف القومية والاجتماعية . لقد أظهرت هذه النكبة من جديد العداء التاريخي بين معسكر الاستعمار بقيادة الولايات المتحدة ، وبين آمال الشعب العربي في التحرر والوحدة والاستقلال ، كما أظهرت مواضع الضعف في المجتمع العربي وأظهرت بالتالي الضرورة الماسة لمعالجة ذلك بصورة جذرية .

صحيح ان اوضاع البلاد العربية كانت تدل منذ الغزو الصهيوني الاستعماري لفلسطين في ١٩٤٨ على ضرورة اعادة النظر بالوضع العربي ، الا ان النكبة الحالية قد وفرت ادلة مادية ملموسة على ذلك لم يعد من الممكن اطلاقا تجاهلها ، واوصلت الأمة الى وضع الخطر الحقيقي الأكيد .

وقد اوصلت هذه النكبة بلادنا وشعبنا الى وضع الدفاع عن الكيان وسلامة الوطن ؛ الأمر الذي يجعل بصورة طبيعية مسألة الدفاع عن الامـــة في المكان الأول من كل شيء آخر . لذلك فالمحنة الحاضرة محنة قومية تمس كل المواطنين وتواجه مجموع الشعب والوطن العربي .

وبناء على هذا الوضع الجديد الخطير نرى ان الأمل الوحيد المتوفر امام بلادنا لمواجهته هو السير العملي في طريق الوحدة العربية . لقد استطاعت الحركة الثورية العربية ان تصل للمواقع السلطة في بعض الاقطار العربية ؛ الأمر الذي يجعل مسألة الوحدة بين هذه الاقطار أمراً ممكناً؛ خاصة بعد ان أصبحت هـــذه الاقطار بالذات تواجه خطر الصهيونية والاستعمار وجهاً لوجه وبصورة ملموسة . ان جميع الظروف الحاضرة تحتم الخروج من وضع التجزئة لوضع الوحدة كطريق أساسي لتكوين القوة المـــادية والمعنوية لمواجهة الخطر والدفاع عن وجود الامة العربية .

اننا الموقعين على هـــذا البيان ،شعوراً منا بجسامة الخطر المحدق ببلادنا ووجودها، ولفداحة الاهانة التي لحقت بأمتنا وحضارتها وشرفها ، وللخطر الحقيقي الذي يواجه جميع خطوات التقدم الاجتماعي والاقتصادي التي قامت بهـــا بلادنا، نرى ان نقطة البداية في مواجهة النكبة هي في تحقيق خطوة جديدة الى الامام في سبيل الوحدة . ونؤكد بأن تلك الخطوة الوحدوية لايمكن ان تنجح الا اذا بنيت على اساس متحرر من نفوذ الاستعمار المباشر او غير المباشر ولايمكن ان تخدم اهداف الشعب الا اذا التزمت بثبات بسياسة مقاومة ذلك النفوذ في المنطقة وفي العالم .

كما أن هذه الخطوة لايمكن اعتبارها بديلا عن النصر وانما بداية الطريق

الى النصر الذي لايمكن ان يتم الا باستمرار المعركة التي ستسهم بدورها في توسيع هذه الخطوة عمقا وشمولا . لذلك :

— ندعو جميع القوى التقدمية وجميع المؤمنين بالوحدة من ابناء شعبنا الى ضرورة التعاون ووحدة العمل وايجاد الحلول لجميع العقبات التي تقف في وجه ذلك ، وازالة الآثار السلبية التي خلقتها الظروف الماضية .

— وندعو الحكومات العربية المعنية الى انشاء وحدة اتحادية بين الاقطار العربية المهيأة لذلك كالعراق وسورية والجمهورية العربية المتحدة والجزائر واليمن لتكوين دولة تقدمية عصرية تصلح لان تكون نواة لوحدة العرب الشاملة، وقادرة على التصدي لخطر الصهيونية والاستعمار وعلى تحقيق آمال جماهير الشعب في التقدم الاجتماعي .

— كما ندعو المثقفين وقادة الرأي العام وطلائع الشعب في كافة المجالات الى العمل لتعبئة الرأي العام من أجل تحقيقها بكافة الوسائل الممكنة ، كما ندعو المواطنين العرب الى تأييد هذه الدعوة واعلان ذلك على الرأي العام .

التواقيع

كلية الحقوق :

الدكتور كمال غالي

» محمد عزيز شكري

» جاك حكيم

كلية الاداب :

الدكتور بديع الكسم

» غسان رفاعي

الدكتور محمد خير فارس

» عبد الكريم رافق

» مفيد رائف العابد

» عبد الرحمن حميدة

» احمد بدر

» عبد الكريم الاشتر

» أسعد عربي درقاوي

» احمد طربين

كلية العلوم :

الدكتور عبدالله واثق شهيد — وزير التعليم العالي
» هاني بطيخ
» حسن قصراوي
» ابراهيم حداد
» عيسى مسوح
» صلاح احمد
» محمد ابو حرب
» مصطفى جو ليلي
» مصطفى حداد
» انيس كنجو

كلية التربية :

الدكتور جودت الركابي (العميد)

كلية الفنون الجميلة :

الدكتور عبد الرؤوف الكسم
فاتح المدرس
لؤي كيالي

المعهد العالي للتخطيط :

الدكتور عدنان شومان (العميد)
» سعدون حمادي

كلية الهندسة :

الدكتور عبدالرزاق قدورة (العميد)
» نور الدين الرفاعي
المهندس وليد خرطيل
» سعد الله مسوح
» محمد كرامة بدورة
» اسعد تقلا (وزير النفط)

كلية التجارة :

الدكتور حمدي السقا (العميد)
» عدنان نجار
» هيثم هاشم
» ناظم حيدر
» محمد العمادي
» سعيد النابلسي
» محمد الاطرش
» حيدر غيبة
فخري اللحام
الدكتور حسان مريود

كلية الزراعة :

الدكتور محمد ابريق
خالد فارس (امين سر جامعة دمشق)

الاقتصاديون :

الدكتور عبدالله قسام
» احمد رجائي
» رياض الأبرش
» هشام متولي
» عبد الشافي العلمي
» طارق الاتاسي
» هشام الخطيب
» كرم توما
اللواء المتقاعد غسان حداد
الدكتور نعيم الشكار
» عبد الوهاب العقاد
» مفيد حلمي
» طه بالي
» محمد جر كين مرعندي
هشام الاخرس

الفنانون :

سعيد مخلوف (نحات)
سليم كلاس (ممثل)
غسان جبري (مخرج)
علاء الدين كوكش (مخرج)
دريد لحام (ممثل ومخرج)

فيصل الياسري (مخرج)
علي عقلة عرسان (مخرج مسرحي)
الدكتور عفيف بهنسي (رسام ومدير الفنون الجميلة بوزارة الثقافة)
غازي الخالدي (رئيس مركز الفنون التطبيقية بوزارة الثقافة ورسام)
فائز نهري (نحات)
خزيمة علواني (رسام)
خالد معاذ (فنان)
وديع رحمة (نحات)
جورج رحمة (مهندس ديكور)
دمي ارزومنيان (مهندس ديكور)
عبد السلام قطرميز (نحات)
عدنان الجبلة (نحات)
نذير نبعة (رسام)
جورج جبلي (كلية الفنون الجميلة)
جورج بوغوص (» » »)
اسعد فضة (مخرج وممثل)
كامل المقدسي (مدير المسارح بوزارة الثقافة)
الدكتور رفيق الصبان (مخرج)
هاني الروماني (مخرج وممثل)
فوزي الرواس
خضر الشعار (ممثل)

الكتاب والادباء :

اديب لحمي (رئيس تحرير مجلة المعرفة)
محمد عزة دروزة (كاتب)
نجاة قصاب حسن (كاتب)
علي الجندي (شاعر)
محيي الدين صبحي (كاتب)
زكريا تامر (كاتب)
الياس فاضل (كاتب)
هاني الراهب (كاتب)
عبد الله الحوراني (كاتب)
خالد ابو خالد (شاعر)
حيدر حيدر (كاتب)
يوسف ناصر (كاتب)
موريس قندلفت (كاتب)
جهاد دروزة (كاتب)
سعد الله ونوس (كاتب)

الصحفيون :

الدكتور ناجي الدراوشة (رئيس تحرير جريدة البعث)
نصر حسن شمالي (رئيس تحرير مجلة الطليعة)

جان ألكسان
علي كنعان
احمد شكري
محمد سعيد منصور
ضياء عبد الرزاق حسن
حسين راجي جركس
معين بسيسو
محمد علي الاشقر
محمود كامل
فيصل حوراني
ممدوح عدوان
وليد مارديني (كاتب اذاعي)

منذر قولي (امين العاصمة ـ دمشق)
الدكتور عبد الوهاب خياطة (امين عام وزارة التخطيط)
احمد مدنية (امين عام وزارة الاعلام)
مصطفى النابلسي (امين عام وزارة الداخلة)
احمد الزعبي (مدير عام مؤسسة الاصلاح الزراعي)
سهيل الغزي (مدير عام الخطوط الحديدية)

الدكتور هشام العاص (وزارة الصناعة)

المهندس محمود نجار (امين عام مساعد وزارة الاشغال)

المهندس هاني النابلسي (المؤسسة العامة لتنفيذ المشاريع)

وزارة التربية :

سليمان الخش (وزير التربية — كاتب)

محمود الايوبي (امين عام)

احمد الخطيب (نقيب المعلمين)

عاصم البيطار

خيري النشواتي (امين عام مساعد)

عدنان بغجاتي ـ مدير التربية بدمشق

احمد القادري ـ مدير البحوث

حسان سالم

عادل حماضة

فالح فلوح

ياسر المالح

موفق الشرح

اسماعيل عكلة

وزارة الثقافة والسياحة والارشاد القومي :

محمد زهير العقاد (وزير الثقافة)

الدكتور يوسف شقرا (الامين العام)

عبد الهادي هاشم

الدكتور خالد الصوفي

علي محسن زيفا

هشام حداد

ذكية الصوفي

عدنان دهني

نادر شنيكر

حنا ابو جمرة

حمزة الوافي

ناظم كروما

وزارة الاقتصاد والتجارة الخارجية :

الدكتور احمد مراد (وزير الاقتصاد)

محمد سامح سباعي

عبد الكريم السمان

هشام عمر باشا

يحيى عرودكي

ماجد الصفدي
عبد المنعم زنابيلي
كمال خالدي (مؤسسة سد الفرات)

وزارة الزراعة والاصلاح الزراعي

الدكتور هشام فرعون
الدكتور عبد الحنان حاوة
فائز الفرا
محمد عدنان صبري
محمد معتصم
محمد هلال سعودي
حسن العطار
الياس نصر

هاني الكيلاني (منظمة الأغذية)
القاضي بشير الاحمر
القاضي احمد عبد الكريم عمران

المصرف المركزي :

الدكتور عدنان الفرا (الحاكم)
ابراهيم بيطار
هنري شامي
احمد عدنان شاويش
رفعت العقاد
عبد الله ابيض
ابراهيم ابراهيم
بشير بيرقدار
فهد عزيز
اميل جهشان
هنري شادربان

عماد الحراكي
فؤاد الزين
جميل سعادة
حسن فاعوري

في المكتبة العربية

- الحركة النقابية في العالم
- من التخلف الى التطور الاشتراكي في القطاع الزراعي
- يقظة القوميات الأوربية . . القومية والوطنية
- أوراق مسافر
- الشرق الأحمر
- عصر المنصور الاندلسي
- حكايات حبة الرمل
- فواكه رجعية
- أغان صيفية
- أغنية المهد
- محاضرات الموسم الثقافي ١٩٦٥ ـ ١٩٦٦

تقديم : ظافر عبد الواحد

الحركة النقابية في العالم

- تأليف : جورج لوفران
- ترجمة : مهاة فرح الخوري
- مراجعة : أنطون حمصي
- نشر : وزارة الثقافة - دمشق ١٩٦٧

إن تدفق الجماهير الى الحياة العامة الذي يسود التاريخ الحديث ، لايحصل دائماً بالطرق ذاتها . ففي القرن التاسع عشر تأسست الديموقراطية السياسية بواسطة الاقتراع العام ، وكان آنئذ النظام البرلماني تعبيراً طبيعياً عن هذه الديموقراطية . وفي القرن العشرين اتخذت الحركة النقابية العمالية لنفسها صفة الأداة الضرورية للديموقراطية الاجتماعية .

ويحاول هذا الكتاب رسم صورة سريعة وكاملة للحركة النقابية في العالم منذ نشوئها بشكلها الحديث في أوائل القرن الثامن عشر الى أيامنا ، وفي أهم أقطار العالم . وهو يركز على أمرين : الأول ، تطور الحركة العمالية تحت تأثير الأفكار الاشتراكية ، فبعد أن كانت محافظة أصبحت ثورية ومن ثم قوة سياسية تسهم مباشرة في الحكم . والثاني ، هو التفاعل بين الحركة النقابية (التي أصبحت قوة دائمة بذاتها) وبين الأنظمة السياسية والأحداث العالمية الكبرى (الحروب ، الثورات ، الخ ..)

والواقع أن قيمة الكتاب بالدرجة الأولى وثائقية ، فهو سجل كامل لأهم الأحداث والتنظيمات والاتحادات والقوانين والتشريعات التي أعطت الحركة النقابية شكلها الحديث ، مع ذكر بعض الإحصاءات الأساسية والتواريخ الهامة .

وهو موضوعي الى الحد الذي يمكن للعالم معه أن يكون موضوعياً في مثل هذا المجال .

من التخلف الى التطور الاشتراكي في القطاع الزراعي

– تأليف : د . صلاح وزان
– نشر : وزارة الثقافة – دمشق ١٩٦٧

يدرس المؤلف معضلات التخلف الزراعي ويقترح الحلول اللازمة لها ، ويعتقد أن من الممكن تحرير الزراعة وتفجيرها في مجالي النمو والكفاية .

فهو يرى أن التنظيم الاقتصادي لوحدات الإنتاج الزراعي يبقى مشوهاً مالم يقترن بتغيير ثوري عميق على الصعيد الفني والثقافي والايديولوجي . فإحدى المشاكل الأساسية التي تعرقل التطور وتعرضه للتوقف والخلل ، المشكلة الناجمة عن انعدام التوازن والتنسيق بين تطور البنى الاقتصادية وتطور البنى الفكرية . ولا بد من التصدي للفلاح المنتج في قلب الوحدات الانتاجية الزراعية ومن مساعدته على اعادة تكوين نفسه ، اذ أن ذلك هو الذي يمنح تلك المؤسسات الانتاجية والاجتماعية مضمونها الفعال وقدرتها الذاتية على الحياة والتطور .

وتحقيقاً لذلك ، يقترح المؤلف وضع خطة شاملة ودائمة للتثقيف والتعليم والتوعية . ويؤكد أن انقاذ أبناء الريف من آفة الأمية ، هو التمهيد الضروري لأية ثورة اقتصادية وثقافية .

تاريخ الحركات القومية

الجزء الأول
يقظة القوميات الأوروبية
القومية والوطنية

– تأليف وتعريب : د. نور الدين حاطوم
– نشر : دار الفكر الحديث – لبنان ١٩٦٧

في الوقت الذي يطرح فيه موضوع الوحدة العربية كحماية للجنس العربي ، ينصرف د . نور الدين حاطوم رئيس قسم التاريخ في جامعة دمشق الى انجاز مؤلف عن تاريخ الحركات القومية ،

أوراق مسافر

ـ تأليف : أمين نخلة

ـ نشر : دار مكتبة الحياة ـ بيروت ١٩٦٧

تعالوا نقلب يوميات الاديب العربي الكبير أمين نخلة التي كتبها اثناء رحلة قام بها في الخليج العربي . انه لا يصور المشاهد السياحية بقدر مايـدرس طباع القوم الذين لقيهم هناك فيسجل انطباعاته بأسلوبه الشعري . فتراه حائراً بين القوم الذين نزل بينهم والطبيعة التي خلفها في لبنان .

ليس أدب اليوميات أو الرحلات جديداً ، ولكننا نجد الكاتب اللبناني المبدع ينتهز فرصة زيارته للخليج ليستمر معنا في حديثه وآرائه من خلال مشاهداته .

فهو عندما يشاهد بدوية عند بيوت بيض وسط بساتين خضر ، يسألها : لمن هذه البيوت أباخية ؟

فتجيب : هي لأهلها ولنا !

وتوضح : إنها لهم في السكن والاقامة ، وهي لنا في النظر إليها ، والتلذذ برؤيتها . .

وهل الملك غير ذلك ؟

فيعجب من بدوية لم تعن نفسها بمطالعة مطولات الفيلسوف نيتشه على مفاهيم السعادة في العيش . . .

ويحس في آخـر الرحلة بأن بلده للسكن والتوطن والتوسد الهنيء في الرقدة الأخيرة ، وان بلدان الناس إنما هي للتجوال فيها وتلذيذ العين بأشيائها ليس غير !

كل ذلك يقدمه أديب العروبة امين نخلة بأسلوب فريد ، فهو يعالج شؤون العصر بأسلوب يذكرنا بالجاحظ وابن المقفع دون أن يكون تقليداً لأسلوبهما بل تطويراً له .

الشرق الأحمر

– تأليف : سلامة عبيد

– مطبعة الانشاء – دمشق ١٩٦٧

جمع الكاتب السوري سلامة عبيد في هذا الكتاب انطباعاته عن الصين الشعبية خلال زيارته لها عام ١٩٦٦ .

وقال تحت عنوان (بدء الثورة الثقافية) :

« في هذا الحديث أؤكد ما أشرت اليه في مقال سابق بشأن زيارة الصين ، أو بالأحرى بعضها ، في رحلة متحركة ، لاتسمح باكتشاف الأعماق ، ولكنها مع ذلك تستطيع أن ترسم الظواهر والأجواء التي تغيشها البلاد والشعارات المطروحة في هذه المرحلة الدقيقة .

إن الصين تبدو مصبوغة باللون الأحمر

فالعلم احمر

وشارة الطلائع حمراء

والحرس أحمر

ومسرحيات الفانوس الأحمر

والحرس الأحمر فوق بحيرة هونغ هو

وفصيلة النساء الحمراء

والشرق أحمر

ومن ثم يتردد على كل الشفاه تعبير : الراية الحمراء لأفكار الرئيس ماو تؤكد أنه :

ينبغي جعل الفن والأدب جزءاً يدخل في تركيب الآلة الثورية الكاملة (الجهاز الثوري الكامل) ، ينبغي جعلها سلاحاً قوياً :

لتوحيد الشعب وتربيته

لمهاجمة العدو وتحطيمه . »

ويبين الكتاب كيف دعي المؤلف لزيارة الصين ، ويلخص ماجرى في مؤتمر الكتاب الافريقيين والآسيويين ،ويقدم لمحة جغرافية عن الصين . ثم يصف الشعب المستنفر وحياته اليومية في الريف والبيت والمدرسة والمعمل والمسرح وأوقات الراحة . ويشرح دور المرأة والعادات

والتقاليد وكيف يعتبر العمل شرفاً وواجباً . وبعد أن يتحدث عن الضيافة الصينية يروي بعض الطرائف وكيف تدور زهرة عباد الشمس Tournesol مع الشمس . الى ان يصل المؤلف الى موضوع بدء الثورة الثقافية والتنظيم الشعبي ووضع الصين العالمي ، ويحمل الينا بعض الدروس من الصين .

عصر المنصور الأندلسي

ـ تأليف : د. خالد الصوفي

ـ نشر : دار الكاتب العربي ـ بيروت ١٩٦٧

هذا الكتاب حلقة من بحوث في (تاريخ العرب في إسبانيا) يقوم بها د. خالد الصوفي ، صدر أولها في كتابي (جمهورية بني جهور) و (نهاية الخلافة الأموية في الأندلس) . أما كتاب عصر المنصور الأندلسي فانه يضعنا أمام اسباب نهاية هذه الخلافة ، وهو حب الوصول الى السلطة الذي يلهي عن بناء الدولة الى اصطناع التكتلات وتصفية الخصوم .

فالمنصور الأندلسي محمد بن أبي عامر الذي ولد سنة ٣٢٨ هـ (٩٤٠ م) ، لا تذكر التواريخ عن طفولته شيئاً يذكر رغم الشهرة التي اكتسبها فيما بعد ، ولكن المؤرخين يذكرون أن الآمال الكبار كانت تساوره منذ حداثته . فقد طلب من أصدقائه مرة أن يتمنوا ما يريدون إذا حكم الأندلس ، فهزئوا به ثم مضوا معه في المسامرة وتمنى كل منهم ولاية إلا أحدهم إذ قال : « إذا أفضى اليك الأمر فأمر أن يطاف بي في قرطبة كلها على حمار ووجهي الى الذنب وأنا مطلي بالعسل ليجتمع علي الذباب والنحل » . وقد نفذ لكل أمنيته عندما حكم الأندلس .

وقد بدأ بوظيفة في محكمة قرطبة ، ثم رشح لوكالة أملاك الأمير عبد الرحمن ابن الحكم ، ثم عهـدت اليه أم الأمير بادارة السكة أي سك النقود . وبدأ

يكسب الأنصار بأموال السكة . ثم أوكلت اليه وظيفة قاضي قضاة المغرب وأوصي قبل كل شيء بمراقبة أعمال القائد العام للجيوش الأموية وخاصة من الناحية المالية . ثم أصدر الخليفة أوامره إلى القواد والمدنيين ليستشيروا ابن ابي عامر في كل صغيرة أو كبيرة .

ثم بدأ ابن ابي عامر في التكتلات تمهيداً للتصفيات . فقد رضي أن يقتل المغيرة أخا الخليفة المتوفى ، ارضاء للحاجب المصحفي ، وهكذا أصبح وزيراً . ورأى محمد بن أبي عامر أن هنالك عدة فئات يجب عليه أن يتغلب عليها دون أن يحارب في جبهتين ، فتحالف مع المصحفي للقضاء على نفوذ الصقالبة ، ثم تحالف مع قائد الثغر الأعلى للقضاء على نفوذ المصحفي ، وأخيراً تحالف مع البرابرة ضد قائد الثغر الاعلى وتسمى باسم المنصور وأمر أن يدعى له على المنابر عقب الدعاء للخليفة . وفي قمة مجده قام ابنه ضده .

حكايات حبة الرمل

- تأليف : محمد كامل صالح
- منشورات : وزارة الثقافة — دمشق ١٩٦٧
- طبع وتوزيع : مكتبة اطلس - دمشق

عمد المؤلف الى تاريخنا العربي فاختار منه بعض الحوادث ، كساها ثوب الاسطورة دون ان يبتعد بها عن الواقع ، وانطق بها حبة رمل في الصحراء ، لترويها بأسلوب جديد في الرواية ، بعد أن اتبع المؤلف الاسلوب الجديد في الدراسة والتاريخ ، فقرب هذا الكتاب من الملحمة ، وان لم يخرج فيه عن صحة الوقائع ، بثياب قشيبة ، توضح جوانب الماضي بكثير من الضوء أحياناً ، والظل أحياناً اخرى ، وتنير الى حدما صورة المجتمع العربي منذ زمن بعيد . ولئن لم يخرج هذا الكتاب عن طابع السرد ، الا أن المؤلف عالج فيه الموضوع بأسلوب شيق ، معالجة فنية دقيقة ، فاستخدم

العجينة لخلق تمثال طريف وبديع ، واستخدم الالوان ليقدم للقارىء صوراً يجد فيها كثيراً من المتعة والتشويق .

يقول المؤلف :

«ان صحراءنا ، منذ ان بدأ سكانها يدرجون نحو المجد .. ومنذ أن اشرقت السماء صافية بنجومها وكواكبها على تلك الدنيا .. وهي تثرثر للأجيال بأقاصيص ابطال عمروها .. ابطال كانوا التعبير الصحيح .. الصادق .. لانهم التي جعلت من الرمال القاحلة الجرداء ينبوعاً لاسمى الحضارات . »

فواكه رجعية

ـ شعر : الياس حبيب فرحات
ـ نشر : وزارة الثقافة ـ دمشق ١٩٦٧

في ريفنا السوري يقال للفاكهة (بكيرة) اذا بكرت في النضج و(رجعية) اذا تأخرت . وقد أعطانا الشاعر المهجري الياس فرحات في ريعان شبابه قصائده القومية التي بكر في انضاجها . وترك تجارب الشباب العاطفية تنمو على مهل ، حتى أينعت وحان قطافها ، فكانت هذه (الفواكه الرجعية) من دنياه الخاصة ، دنيا الجمال والحب ، دنيا الشباب والمرح .

وسيان عندنا أن يكون هذا الشعر من وحي الخيال ، أم من تجارب الواقع ، فالقارىء بعد مطالعة الديوان ان يقدر الصدق عند شاعر يقول :

لاتظني بي الظنون اذا كنت
اسمي ليلى ولبنى ودعدا
أنا من يعرض الزجاج ويخفي
الماس ، ان اللصوص كالرمل عدا
أنت قصدي دون الأنام ولكني
أسمي سواك في الشعر عمدا
أنت قصدي وكل أسماء حواء
ثياب لاسم حبيب مفدى

أغانٍ صيفية

- شعر : د . أحمد سليمان الأحمد
- نشر : وزارة الثقافة ـ دمشق ١٩٦٧

٦٥ قصيدة من الشعر الملتزم للعروض ومن الشعر الحديث ، للشاعر التقدمي د . أحمد سليمان الأحمد ، الذي عرفناه شاعراً سهلت عليه بحور الخليل حتى ملها الى الشعر الحديث .

وفي هذا الكتاب أغان في الحب انشدها في فترة تصل ما بين عام ١٩٤٤ وعام ١٩٦٤ ، وهي صيف عمره .

ولئن ذهب الخط البياني في هذه القصائد صاعداً او متعرجا ، فتظل فيها لازمة تزدان باللفظة العربية المشرقة المختارة والاسلوب الرائق كماء النبع ، الى جانب خيال مجنح وصورة جديدة وافكار انسانية وارتفاع بالحب الى أفقه وجنته ، وتعبير لعله الطموح بل لعله التجسيد لاقتران الشكل والمحتوى في اوج زهوتها .

وهو يقول في قصيدة (أغان صيفية) التي تحمل المجموعة اسمها :

اذكر .. من عام بدأت هذه القصيدة
كتبت أحرفاً جديدة
محوت أشياء . ومزقت القصاصة الوحيدة
غرستها مع الجذور وعليها تورق كالشجر
سقيتها بأدمع القمر
واليوم جئت أقطف الثمر

أغنية المهد

- تأليف : غريغوريو مارتينيز سييرا
- ترجمة : محمد جلال الخطيب
- نشر : وزارة الثقافة ـ دمشق ١٩٦٧

لن يكون هدفي تلخيص هذه المسرحية ، لأن هذا سيكون على حساب فنية التأليف وجمال الترجمة . فهي حديث صادق يدور بين مجموعة من النساء اختلفت نشأتهن وتباينت طباعهن وتفاوتت اعمارهن ، يجمعهن دير الراهبات

الدومينيكان . فالرئيسة مثل للانسان الذي يحب الجميع ويميل الى تفهم الآخرين والاعتذار عن اخطائهم مالم تصل الى الكبائر . والمعاونة مثل للانسان المتزمت القاسي خشن الطباع الذي لايأبه بكل العواطف النبيلة ولايقيم وزناً للنوازع البشرية الطبيعية لدى بني الانسان . والأخت جوانا مثل للمرأة التي خلقت لتكون أماً ، والتي شاء لها القدر — رغم انظمة الدير القاسية وأسواره العالية — أن تغدق عواطف الامومة المكبوتة بين ضلوعها وتسكب حنان المرأة الخالص على طفلة لقيطة أغلقت في وجهها ابواب الدير فدخلته من كوة التموين .

والصبية تيوزا لقيطة الأمس مثال للانسان الذي يعشق الحياة في غير زلل ، ويتفتح للنور والهواء بدون شطط ، ويملأ الجو بهجة وحبوراً دون ان يؤذي الآخرين او يزعج المحيطين به .

و (أغنية المهد) — بكلمة بسيطة — ملحمة عواطف ومشاعر غنية بالحركة والاثارة ، ونسيج ناعم شفاف ، لحمته الطبيعة البشرية وسداه الايمان والتبتل .

والمؤلف (غريغور يومارتينيزسييرا) كاتب روائي ومسرحي يحتل مكانة بارزة بين كتاب الادب الإسباني الحديث .

ولقد ذاعت شهرته في الأوساط الادبية الغربية ككاتب مسرحي ذي طابع خاص . فمسرحياته يميزها ذلك التصور الدقيق لأعمق مشاعر الأنثى طفلة غريرة أم امرأة ناضجة ، أماً تضج في حناياها عواطف الامومة ، أم راهبة تقاوم أعنف نوازع الطبيعة . ولعل (أغنية المهد) التي كتبها سييرا عام ١٩١١ أصدق مثل على ذلك اللون . ولعل هذا اللون هو الذي شجع على ترجمة مسرحياته الى مختلف اللغات الحية وبالتالي الى تقديمها على أشهر المسارح في العالم .

محاضرات الموسم الثقافي

١٩٦٥–١٩٦٦

نشر : وزارة الثقافة – دمشق ١٩٦٧

يضم هذا الكتاب نصوص ١٥ محاضرة هي نخبة ما القي في ذلك الموسم ، وهي:

الاستعمار واغتصاب لواء الاسكندرون للدكتور يوسف شقرا

كيف نواجه الدعاية الصهيونية في العالم – لحسام الخطيب

المواطن العربي في طريق التحرر للدكتور أسعد درقاوي

العرب يغيرون مجرى العالم في تاريخ الانسانية – للدكتور المرحوم يوسف العش

حاضر البلاد النامية ومستقبلها – للدكتور كمال غالي

كبرى المشكلات الدولية – للدكتور حسن صعب .

الإدارة الديموقراطية والتسيير الذاتي للدكتور عدنان شومان

اشتراكية الفن – للدكتور عفيف بهنسي

الثقافة القومية – للدكتور كمال يوسف الحاج

التعاون العربي في مجالات التربية والثقافة – لعبد الحميد دركل

الجامعة واسهامها في التطور – للدكتور محمد بشير مكي .

حق التربية والتعليم في العالم الراهن للدكتور الياس فرح

الحياة الادبية والفكرية المعاصرة في المغرب العربي – للدكتور نقولا زيادة .

لغات العالم بم تختلف وبم تأتلف – القاسم أحمد

حديث ورحلة – لعمر يحيى

تحدث . الدكتور يوسف شقرا عن الموقع الجغرافي للواء اسكندرون وسكانه وميزاته ، واهميته الاستراتيجية، وكيف نشأت قضيته ، والمساومة على القضية أثناء إعداد معاهدة ١٩٣٦ ، وأثر إقرار النظام الاساسي للواء اسكندرون في الشعب العربي ، والانتخابات الصورية التي تمت بعد انسحاب اللجنة الدولية .

وتحدث الكاتب الفلسطيني حسام الخطيب عن أسباب نجاح الدعاية الصهيونية فقال :

« اما الاسباب المباشرة فأهمها في رأينا :

خلو الساحة من أية منافسة مضادة ، فالصوت العربي الذي يتهم ويحتج خافت حتى لا يكاد يسمع في اكثر الأحيان ، وهكذا يكون الصهيونيون في أوروبا وامريكا في مركز ممتاز ، إذ يقولون مايشاؤون ويظهرون الحقائق التي تناسبهم ويخفون الوقائع التي تدينهم ويفسرون الاحداث ويزيفون الوقائع ويلصقون التهم حسبما يشتهون ، انهم في مأمن من التكذيب والاعتراض ، لأن العرب لم يعدوا العدة حتى الآن لإمداد العالم بالحقائق .

— ان الحقيقة في الغرب يملكها ويصنعها أصحاب الصحف وشبكات الاذاعة والتلفزيون ، ومعظم هؤلاء واقعون تحت النفوذ الصهيوني المالي او السياسي ، وهم يغذون الجماهير غذاء متفقاً دائماً مع وجهة النظر الصهيونية .

— بناء الدعاية اليهودية على الخبرة والمعرفة والتخطيط ، بحيث تخاطب كل بلد بما يناسب تركيب سكانه العقلي والنفسي .

• العرب والتكنولوجيا

• نظرات حول النكسة

تقديم وتلخيص : هشام الدجاني

كثر الحديث في الآونة الأخيرة عن التكنولوجيا والتفوق التكنولوجي للعدو . وأسهبت الصحف والمجلات في الحديث عن دور التكنولوجيا في الحرب الأخيرة وأثرها في كسب المعركة . وقد قدمت مجلة دراسات عربية [1] دراسة شاملة للدكتور صادق جلال العظم حول هذا الموضوع بعنوان : « العلم الحديث والنكسة الخطيرة » . ونقدم هنا تلخيصاً وافياً لهذه الدراسة المهمة .

عند الحديث عن المستوى العلمي والتكنولوجي في المجتمع العربي ومقارنته بغيره من المستويات والمجتمعات لا نقصد مجرد توفر الخبراء والآلات والمعدات الحربية وغير الحربية ، وتوفر بعض الصناعات الخفيفة والمتوسطة . فكل هذه الأشياء موجودة في الوطن العربي ، أو يمكن شراؤها أو استيرادها . غير أن مجرد وجودها لا يعني بالضرورة ان المجتمع العربي قد حسن مستواه العلمي والتكنولوجي . إن مجرد الحصول على ٢٠٠ طائرة ميغ مثلاً أمر ضروري حين نكتشف ان العدو حصل على ٢٠٠

(١) مجلة دراسات عربية - عدد (١٠) آب - ١٩٦٧ - بيروت

طائرة ميراج . ولكن هذا العمل في حد ذاته لا يشكل الرد الكافي والحاسم على الطاقات المتوفرة في يد العدو . والواقع ان الرد المطلوب يشمل بالاضافة إلى المعدات والآلات والطائرات والخبرا منوعية معينة من العقلية ، ومن ردود الفعل الجسدية التي غرستها الثورة الصناعية في الانسان الحديث ، وثبتها الانقلاب العلمي فيه بحيث اصبحت جزءاً من طبيعته وعفويته .

ولتوضيح هذه الناحية نقول إن الآلة المعقدة تفرض على جسم الانسان إيقاعهـا الخاص ، وتتطلب منه تدريب جسده وردود فعله حتى تصبح منسجمة مع حركة سيرها . وإن لم يفعل الانسان ذلك تعرض للضرر لأن أي تلكؤ في حركته ، مهما يكن طفيفاً ، قد يؤدي به الى فقدان عضو من أعضائه ، وأي خطأ أو انحراف عن خط سير الآلة قد يعرض حياته أو مصالحه للخطر . وهـذا التكيف مع الآلة ليس بالأمر السهل ، فهو يتطلب مواهب معينة وتدريباً طويلاً قـد يستغرق سنوات . وكلما كانت الآلة أكثر تعقيداً زادت الحاجة الى التدريب الطويل والدراسة المعقدة .

مثال ذلك أن الخبراء يقدرون بأن الفاصل الزمني بين ادراك سائق السيارة العادية للخطر الماثل أمامه وبين رد فعله الفوري لتفادي الخطر يتراوح بين جزء من ٥ من الثانية الى جزء من ١٠ منها . وهذه المقدرة على الرد السريع مهارة مكتسبة في مجملها نتيجة للمراس والتمرين . أما الطيار الذي يقود طائرة نفاثة حربية فعليه في كثير من الأحيان أن يقلص هذا الفاصل الزمني بين ادراكه للخطر ورد فعله المناسب الى حدود جزء من ١٠٠ من الثانية مثلاً . وهذا مستوى من المهارة العقلية والجسمية لا يتسنى تحقيقه الا لنخبة ممتازة من الأفراد ؛ ممتازة في مواهبها الفطرية وتدريبها العملي والتقني . وهنا باستطاعتنا أن نتصور الصعوبات التي سيلاقيها الفرد المعني بتحقيق هذا النوع من المهـارات الرفيعة اذا كان قد نشأ في مجتمع ريفي مثلاً لا تتوفر فيه سوى الأدوات البدائية ، ولم تتح له فرصة التفاعل مع الآلات المعقدة الا في فترة متأخرة نسبياً من حياته .

والآن ماهو موقف العرب بالنسبة للآلة ، وعلى أي درجة من درجات سلم العصر الآلي يقفون ؟

مضى على إتصال الأمة العربية بمقومات الحضارة الحديثة من علم وتكنيك فترة طويلة يرجعها بعضهم الى حملة نابليون على مصر . ومنذ ذلك الوقت تقريباً لم تنقطع الدول العربية عن ارسال البعثات العلمية الى البلاد الاوربية للاستفادة من مقومات الحضارة الحديثة وادخالها في المجتمع العربي . بيد ان التفاعل بين هـذه المقومات وبين المجتمع قد اقتصر في معظم الاحوال على الانتفاع بالتطبيقات العملية الناتجة عن الابحاث العلمية والتقنية ، دون الوصول الى الجذور او حق

التكيف الأصيل مع مايفرضه العلم من افكار وقيم جديدة على المجتمع والفرد . ان ماحدث في الوطن العربي ، على حد وصف الكاتب ، هو اننا افسحنا مجالاً في حياتنا للثلاجة والتلفزيون والمبغ والرادار.. الخ. وبقيت العقلية التي تستخدم هذه المنجزات المستوردة هي العقلية التقليدية التي تنتمي الى اطوار البداوة والزراعة.. اي الى اطوار سابقة على مرحلة الثورة الصناعية والانقلاب العلمي .

يقول الدكتور العظم في مقاله : « وهذه ظاهرة غريبة وجديرة بالاهتام لأن امماً متخلفة أخرى غير الامة العربية سلكت طريقاً اخرى في فترة قصيرة فلم تكتف بالاتصال بمقومات الحضارة الحديثة ، وتعدت بسرعة كبيرة مرحلة الانتفاع بثمار العلم واستيراد تطبيقاته العملية واستخدامها بصورة صحلة ، لتدخل بذلك نهضة صناعية وعلمية وتكنولوجية غيرت نسيج مجتمعها التقليدي تغييراً جذرياً .. ».(١)

بيد ان الكاتب لم يوضح لنا الطريق الذي يجب ان تسلكه الأمة العربية كي تنهض عملياً وتقنياً . ولم يشرح لنا ابداً كيف تعدت تلك الامم المتخلفة « بسرعة كبيرة » مرحلة الانتفاع بثمار العلم لتدخل بذلك نهضة صناعية وعلمية غيرت نسيج مجتمعها الخ .. من المعروف أن طريق كل نهضة هو طريق الفكر وليس طريق العلم . فبدون قاعدة فكرية ، وبعبارة اوضح بدون عقيدة فكرية شاملة، لايمكن لأمة من الامم انتنهض. فالثورة التقنية تحتاج الى ثورة اجتماعية تسبقها وتؤدي طبيعياً اليها . لقد نهض العرب في تاريخهم وبلغوا درجة عالية من التقدم عن طريق الاسلام . ذلك ان الاسلام جاء بعقيدة جديدة ومفاهيم جديدة . جاء ثورة اجتماعية شاملة ادت بالتالي الى نهضة كاملة . وفي عصور النهضة استطاعت العقيدة الرأسمالية ان تنهض بشعوب الغرب بعد ان حلت محل الكنيسة في الحياة . وكان الفكر الغربي الشامل حول الكون والانسان والحياة هو طريق النهضة الصناعية والتقنية . وفي العصر الحديث جاءت نهضة الاتحاد السوفيتي الجبارة ونهضة الصين لتؤكد من جديد دور الثورة الاجتماعية اساساً للنهضة العلمية والتقنية. لم ينهض الاتحاد السوفيتي او الصين عن طريق استخدام العلم واساليب التكنيك . بل نهضا عن طريق مبدأ فكري كامل هو المبدأ الاشتراكي ، وعن طريق نظرة شاملة — فلسفة — حول الكون والانسان والحياة وهي النظرة الماركسية .

اذن فطريق النهضة ليس طريق العلم وحده . اذ لابد للعلم والصناعة من قاعدة فكرية اساسية يقومان على اساسها .

نعود الآن الى متابعة المقال ، والى دور

---

(١) صفحة ٣٨ من المجلة .

التكنولوجيا في الحرب الاخيرة لتقوم هذا الدور ونوضح اثره في كسب المعركة .

يرى كاتب المقال ان المعركة الاخيرة اظهرت ان العقلية العربيـــة مازالت تتأثر بمفهوم للحرب يعـــود الى ايام الفروسية والمبارزة والمواجهة المباشرة . وما زالت متأثرة بمفاهيم الكر والفر والمفاهيم القبلية لمعنى الشجاعة والحمية والغدر والدناءة ..الخ. لقد كانت معركة قوامها انقضاض الطائرات بسرعة ومهارة خارقتين . وكان قوامها مدرعات ضخمة تسير وفق خطط مرسومة في غرفة العمليات الحربية . وفي هذا النوع من الحروب لا تلعب الشجاعة والبسالة بمعانيها التقليدية الا دوراً محدوداً وصغيراً . اما معركة الغلبة فيها تتوقف الى حد كبير على مقدرة الانسان القابع خلف آلة المدرعة ، وعلى سرعته ومرونته ليتمكن من تسديد الضربة القاضية الى المدرعة المشابهة لمدرعته قبل ان تلحق به الدمار .

لقد بالغ الكاتب حقاً في ابراز الدور العلمي والتكنيكي للحرب ، واهمل الى حد كبير دور معنويات المحارب . فمازالت الشجاعة والصبر والايمان بالقضية دورها الكبير جداً في الحروب الحديثة .

ويتابع الكاتب فيقول ، ان هناك من يرون بأن « الهجوم المفاجىء » كان له الدور الأكبر في كسب العدو للمعركة . فاذا سلمنا بهذه الحقيقة من حيث النتيجة ، فلماذا سمح العرب بـــهذا الهجوم المفاجىء ؟ ألم يكن القادة العرب يعلنون دوماً أن جهودهم موجهة الى الهدف الأكبر وهو معركة التحرير؟ كيف يجوز لنا أن نفاجأ بالنسبة لمعركة نحن كنا نريدها ، ونستعد لها ، ونعلم علم اليقين أن أمريكا ستدعم العدو بكل طاقاتهـــا حتى ولو اقتضى ذلك تدخلها العسكري المباشر ؟ لقد أكد لنا قادة العرب أنهم أخذوا كل هذه الاعتبارات في حسابهم . بل ان الثقة بلغت بأحد القواد العسكريين أن يؤكد للجماهير بأن القضاء على اسرائيل لن يتحمل أكثر من من أربعة أيام على أعظم حد . أضف الى ذلك أن أجهزتنا الاعلامية غرست الفكرة في رؤوس المواطنين ، وزعمت أن حرب تحرير فلسطين ليست الا « مشواراً » بسيطاً الى تل أبيب يقوم العرب بعده بدفن العدو في البحر ... هذا كل ماتعنيه الحرب .

أجل لم نقدر المعركة حق قدرها ، ولم نتصورها على حقيقتهـــا . لم نقدر دور التكنولوجيا في الحرب الحديثة . ان عدالة قضيتنا ، وايماننا بهذه العدالة - إن صح - لايكفيان وحدهما لإكسابنا الحرب . ان كسب حرب حديثة بكل وسائلها وطرق تنفيذها يحتاج الى نهضة علمية وتكنولوجية او الى مرحلة معينة من النهضة على الأقل.

فلننظر مثلاً ماذا أعد العدو في السنوات الفائتة في حقل العلم والأبحاث العلميـــة

المتلفة وماذا أعددنا نحن . أول ما أسس اليهود في فلسطين كان الجامعة العبرية . وبعد أن قامت دولة اسرائيل ازدهر معهد وايزمان للابحاث العلمية الذي يضم نخبة ممتازة من العلماء في حقول الفيزياء النووية والذرة والكيمياء والرياضيات .. الخ .

وماذا نجد في عالمنا العربي ؟ نجد انعدام المؤسسات العلمية المنتجة ، والمعاهد الفنية التقنية المزدهرة ، وضعف جامعاتنا الوطنية من حيث المشاركة الفعلية في البحث العلمي وتطبيقاته في جميع المجالات الستراتيجية . نجد دولة عربية واحدة فقط هي الجمهورية العربية المتحدة قد التزمت بخطة منتظمة في الانفاق على البحث العلمي . الوطن العربي بكل ثرواته لايحوي معهداً واحداً يمنح شهادة علمية عالمية في علم الالكترون رغم أن معظم الأجهزة الحربية الحديثة تعتمد على علم الالكترونات . واتقان استخدام هذه الاجهزة لايتم عن طريق الدورات التدريبية وحده إذ لابد من ثقافة علمية أساسية وتدريب تقني أولي يفترض بالمعاهد الفنية والجامعات أن تقدمه لطلابها .

ولا شك أن قادة الامة العربية مدعوون اليوم قبل الغد ، وخصوصاً بعد أن أطلعتنا النكسة على واقعنا ونبهتنا من غفوتنا ، الى انشاء معاهد للدراسات والأبحاث العلمية الستراتيجية والعلمية ، والى اعادة النظر بصورة شاملة سريعة في برامج العلوم الطبيعية والرياضيات . ويفترض في هذه المعاهد أن تجمع شمل هذا العدد الكبير من العلماء العرب العاملين اليوم في مختلف الجامعات والمعاهد العلمية في اوروبا والولايات المتحدة . والامة العربية ليست عاجزة عن تمويل وانشاء عدد من المعاهد العلمية ذات مستوى رفيع تجمع فيها شتات علمائنا الذين نزحوا الى خارج الوطن العربي ، أو لم يعودوا اليه بعد انتهائهم من الدراسة بسبب الأوضاع السيئة السائدة في جامعاتنا من الناحيـــة العلمية والادارية .

ان المشكلة الأساسية التي تواجه الامة العربية اليوم من أجل مواجهة كافة التحديات هي التغلب على التخلف بجميع وجوهه ومظاهره . وقد جاءت النكسة الاخيرة لتذكرنا بعنف وقسوة

بهذا التخلف. والسبيل الوحيد لتجاوز هذا التخلف والتخلص منه هو تلمس الطريق الصحيح لنهضة هذه الأمة.

* * *

نظرات حول النكسة:

دراسة صادقة قوية نشرت في مطلع هذا الشهر في مجلة الكاتب (١) المصرية بعنوان «أهداف ثابتة ووسائل متغيرة» كتبها الدكتور جمال حمدان. وهي من الدراسات الجيدة التي قدمت حول النكسة وآثارها، وحول الوسائل الواجب اتباعها لمقاومة العدو والتفوق عليه رغم ماتضمنته من صيغ عاطفية وأحياناً حماسية.

أول ماركز عليه الدكتور حمدان في مقالته هو فكرة تواطؤ أمريكا وبريطانيا مع اسرائيل. بل إن هذا التركيز هو محور البحث عنده، ونراه جليا في كل فقرة من فقرات البحث. فهو في مقدمة مقاله يقول: «وأول حقيقة موضوعية في الموقف الراهن هو اننا اصبنا بهزيمة عسكرية جاءت نكسة حزينة بعد آمال شاحقة عريضة عشناها سنين طويلة ... ونحن وإن هزمنا لصالح اسرائيل، فاننا لم نهزم على ايديها، وانما بيد التآمر الامبريالي الأمريكي – البريطاني».

وفي فقرة أخرى يقول: «ومن الناحية الاستراتيجية كان المفروض اننا نتقدم إلى معركة مع اسلحة أمريكية في أيد اسرائيلية، ولكن الذي حدث اننا واجهنا اسلحة امريكية في ايد امريكية واسرائيلية معاً»(٢).

ولعل الجانب العسكري هو أهم ماركز عليه الكاتب في دراسته. فلنلخص ماكتب حول هذا الجانب الهام من جوانب المعركة، بعد أن الجانب العلمي – التقني منها.

يمكن أن نلخص خطة العدو في المعركة الأخيرة في خطوتين: غارة جوية تعتمد أساساً على الشمول المطلق والمباغتة الكاملة، على غرار غارة «بيرل هاربر» التي افتتحت بها اليابان نشاطها في الحرب العالمية الثانية، **غايتها تجريدنا من سلاحنا الجوي في ضربة واحدة لتخرجه من المعركة قبل أن تبدأ. وعندها تبدأ الخطوة الثانية وهي الانقضاض على قواتنا البرية المتقدمة في سيناء بعد أن أصبحت مكشوفة بلا غطاء جوي، ومن ثم يتم تدميرها خلال أيام مركزة معدودة في مصيدة مغلقة حبيسة.**

والملاحظ في كل من الخطوتين تقليدهما الواضح لنموذج وإستراتيجية القوى الفاشية

---

(١) مجلة الكاتب – العدد ٧٧ آب – ١٩٦٧ – القاهرة

(٢) المرجع السابق ص ٨ و ٩

المحورية سواء اليابان او المانيا إثناء الحرب العالمية الثانية ، كذلك فان مجموع العمليتين يؤلف استراتيجية الحرب الخاطفة التي ابتدعتها واتبعتها النازية الهتلرية اساساً .

وسواء نجح هذا الغدر لقصور في المخيلة والتوقع التخطيطي ، او لتقصير في الاستعداد واليقظة ، فان نجاحه مع الاسف حسم المعركة قبل ان تبدأ حقيقة . ويتفق معظم المعلقين على ان رد فعل قواتنا ازاء تطور الموقف في سيناء كان جديراً بأن يحدث لاي جيش آخر .

هذا هو الوضع العسكري في سيناء التي كانت مسرحاً لاكبر العمليات والتي حسمت نتيجتها المعارك على سائر الجبهات الاخرى .

فما هي الدروس التي استقاها العرب من هذه التجربة المريرة ؟ وماهو الحل السليم لكل ما ترتب على هذه النكسة من آثار ؟ من أهم الدروس التي استقاها العرب انهم أدركوا ان المعركة معركتهم وحدهم ، وان الاعتماد على النفس اساس المعركة بداهة . وهذا لايعني بالطبع عدم التعاون مع الدول الصديقة التي وقفت الى جانبنا وابدت استعدادها للمساعدة .

ومما استفدنا أيضاً من هذه التجربة المريرة اننا عرفنا العدو من الصديق وكشفنا حقيقة التواطؤ والانحياز من قبل قوى الغرب نحو اسرائيل .

ومن الدروس التي استقيناها من هذه التجربة أيضاً ان اكتشفنا بعنف وقسوة تفوق العدو التقني والعلمي وتخلفنا في هذا المضمار . تفوقه في التكنيك والتدريب وحسن استخدام السلاح وتقصيرنا نحن في هذا المجال .

إنها دروس دفعنا ثمنها غالياً . دفعنا ثمنها خسائر معنوية ومادية . ولعل الخسائر المادية تهون في سبيل الشرف والفداء ، ولكن الخسائر المعنوية .. في الروح وفي الهيبة ، وفي سمعتنا الدولية . هذه خسائر لايعوضها الا نصر عسكري مضاد اعظم وزناً من نصر اسرائيل .

والآن ماهو الحل السليم لمواجهة تحدي اسرائيل ومسح آثار النكبة العسكرية والسياسية ؟

هل يمكن أن تكون الاسلحة الاقتصادية بديلاً عن الاسلحة الدبلوماسية بعد ان فشلت هذه الأخيرة ؟ الجواب : لا ! ذلك أن العقوبات الاقتصادية قد تضايق الغرب ، وقد تحرجه ، ولكنها لاتجبره على الركوع او على محاولة الضغط على اسرائيل . خصوصاً وان العقوبات الاقتصادية لم تطبق كاملة . فمن الناحية الفعلية قطع البترول عن الدول المتآمرة واوقفت القناة . اما المقاطعة التجارية فجزئية وغير فعالة ، واما سحب الارصدة فما زال مطلباً أو مجرد حديث .

الضغط الاقتصادي مفيد وهو يصيب اقتصاديات دول العدوان بالاضطراب لكنه لايحسم المعركة مع اسرائيل نهائياً لصالحنا .

نصل من هذا جميعاً الى ان المعركة السياسية بشكليها الديبلوماسي والاقتصادي ليس من المحتمل ان تعيد لنا ارضنا المفقودة ، ولاهي قادرة تماماً على ازالة آثار العدوان .

ويكون الاختيار أمام العرب : اما جولة ثانية واما الرضوخ لشروط العدو . ولايمكن لأي عربي ان يسمح بمجرد التفكير في الاستسلام وقبول شروط العدو . ومع هذا يجب ان نعرف جميعاً ان الاعتراف باسرائيل لايعني نهاية الكارثة وانما يعني بدايتها . إن حصول اسرائيل على الصلح لايعني بداية التغلغل الاقتصادي في المنطقة في المنطقة فحسب ، بل هو نقطة انطلاق نحو التوسع الاقليمي بالاسلوب العسكري المباشر . سيكون بداية الطريق الى اسرائيل الكبرى من النيل الى الفرات . وستتابع موجات الهجرة العربية الى الصحراء بمثل ماتتقاطر موجات الهجرة اليهودية من وراء البحار الى داخل الوطن العربي . الاعتراف باسرائيل انتحار بطيء للعرب وحكم بالاعدام عليهم . فلن تأتي سنة ٢٠٠٠ إلا وخمس العرب تقريباً من اللاجئين في صحراء العرب وليبيا .

الحل الوحيد إذن هو معركة جديدة . فنحن بحاجة الى نصر عسكري لأكثر من سبب . فلا يمحو عار الهزيمة العسكرية إلا نصر عسكري . ولن تدمر الاسطورة المفتعلة حول اسرائيل ولن نستعيد روحنا المعنوية وكرامتنا القومية إلا بنصر في ميدان القتال .

ليست هناك حرب تقرر مصيرها وتحسم في معركة واحدة . وكم من حرب بدأت بهزيمة وانتهت بنصر . والحربان العالميتان الماضيتان هما أقرب مثال . وجولات صلاح الدين مع الصليبيين بدأت بهزيمة لنا ثم انتهت بنصر حاسم .

وعدونا ليس بغافل ، فهو بدوره يستعد لمواجهة جديدة ، وهو يستعيد تسليحه منذ وقف اطلاق النار . فقد سافر اريل شارون قائد القوات الاسرائيلية في سيناء في اواخر حزيران الى كل من اوستراليا والهند للتعاقد معها على شراء قطع غيار وقذائف

للطائرات أوراغان وميستر ، وقطع غيار لدبابات AMX — 13 الفرنسية الصنع من فرنسا لحساب اسرائيل بعد أن منعت فرنسا شحن الأسلحة الى اسرائيل إثر العدوان . كذلك سعت اسرائيل كي تزودها الولايات المتحدة بالسلاح وهذا ما أعلنت عنه وكالات الأنباء .

فنحن في الواقع — شئنا أو لم نشأ — في هدنة مسلحة أو في سباق تسلح، نعيش الهدوء الذي يسبق العاصفة . ولم يعد السؤال جولة ثانية أم لا ، ولكن كيف نستعد لهذه الجولة ونكسبها . وهنا تقفز دروس النكسة الى الصدارة ، وتأتي تجربة الجولة الأولى كمسودة للمستقبل . **وما يجب أن نتعلمه من هذه الدروس :**

أولاً : الاستعداد العسكري الى درجة ما فوق التسليح كما وكيفا . فقد تلقينا صدمة رهيبة مفاجئة حين اكتشفنا في العدو ترسانة مسلحة تتعدى كل آفاق تقديراتنا الرسمية . لهذا فنحن بحاجة الى صيغة تسليح تدور حول الحد الاقصى من السلاح كماً وكيفاً . أما من ناحية الكم فيجب أن نعادل قوة العدو مع قوة التدخل الخارجي ، وفي الكيف ينبغي أن نهتم كثيراً بالتكنولوجيا العسكرية في أرقى واحدث صورها .

ثانياً : الحذر المطلق من غارة غادرة مفاجئة . لقد خسرنا المعركة بسبب غارة. واذا بدا من المستبعد أن يكرر العدو تكتيك بيرل هاربر مرتين . فان مجرد هذا التوقع قد يشجعه على العكس . ونحن ما كنا لنخسر الحرب لولا تلك الغارة . لقد كان المفهوم أن طيارينا لا يبارحون طائراتهم لحظة واحدة في الأربع والعشرين ساعة . ولكنها كانت غلطة عمر استغلتها المخابرات لتكلفنا معركة الحياة . ومن الكفر أن يلدغ المؤمن من جحر مرتين .

ثالثاً : السرية الكاملة ، ففي الجولة الأولى أعلنا عن نوايانا ، وجلسنا ننتظر غيرنا حتى يبدأ العدوان . واذا كان لذلك بعض مبرراته في السياق القديم فقد اختلف الوضع جذرياً الآن . فلا بد أن نترك عدونا في الظلام المطلق .

رابعاً : زمام الهجوم يجب أن يكون في أيدينا . لقد أجمع المراقبون على أننا لو كنا سبقنا بالهجوم لتغير وجه المعركة ... وإذا كنا قد امتنعنا عن الضربة الأولى في الجولة الماضية لاعتبارات سياسية، فلم يعد لأحد - صديقاً أو عدواً - حق أدبي بعد الذي حدث ، واصبح من حقنا سياسياً وأخلاقياً أن نبدأ بالهجوم .

خامساً : المباغتة . والمباغتة الجوية هي الشرط والشكل الوحيد للهجوم . فقد جاءت

المعركة الماضية كلها خاطفة صاعقة . إن ما ندعو إليه هو أن نعكس على العدو نفس الخطة التي طبقها علينا ؛ فان ما بقينا ندعو إليه سنين طوالاً طبقه العدو علينا . إن معركتنا مع اسرائيل ستظل أبداً حرباً جوية بالدرجة الأولى تليها الحرب البرية ، حرب تدمر كل سلاحه الجوي ، وحرب جوية تضرب مراكز القوة في الارض المحتلة والسليبة ، وحرب برية بعد ذلك. وهنا تبدأ إستراتيجية النفس الطويل .

سادساً : الصمود المطلق حتى النصر أو الموت. سيبدأ العدو الجولة القادمة من موضع المنتصر . وهو سيستغل هذا الوضع من أجل الحرب النفسية . بيد أننا إذا عرفنا حقيقة النصر الذي كسبه ، وعرفنا طبيعته ، أدركنا أن عدونا لا يخشى شيئاً قدر المواجهة السافرة معنا . ولا يقل جيش العصابات الا جيش انتحاري . وفي وجه حرب الغدر لا رد الا الحرب الفدائية .

وبعد ، ليس امامنا الا الكفاح القاسي والصراع الرهيب. امامنا كثير من التضحيات ، فالعدو الذي نواجهه اخطبوط تغذيه قوى عالمية ضارية. وعلى الأمة العربية ، وهي على مفترق الطرق ، ان تصب جماع قوتها في وعاء واحد ، وان تتوقع دائماً المصاب والآلام ، ولكنها لاينبغي لحظة ان تفقد الثقة بالنفس والأمل بالنصر الاخير .

● بمناسبة افتتاح معرض دمشق الدولي الرابع عشر، رصد ريع حفلات بعض الفرق العالمية على مسرح المعرض للمجهود الحربي، كما نظمت وزارة الثقافة مهرجاناً سينمائياً رصد ريعه للمجهود الحربي، وأقام الفنانون التشكيليون مقهى في مدينة المعرض سيقوم الفنانون المسرحيون بتقديم المشروبات فيه ويرصد ريعه للمجهود الحربي أيضاً.

● النموذج الجصي لتمثال (الثوري العربي) في ساحة يوسف العظمة بدمشق وضع على مشرحة النقد.

تتلخص الانتقادات الموجهة إليه في الأمور التالية:

١ — يجب تصحيح القاعدة

٢ — يجب تعديل بعض الأمور في النحت البارز لقاعدة التمثال.

٣ — يجب تقصير الثوب الذي يرتديه الثوري.

٤ — رأس الثوري صغير وغير متناسب مع الجسم.

٥ ــ هناك بطء في حركة اليد التي تمسك المشعل ، مع أنها يجب أن تكون أعنف من حركة اليد الأخرى التي نجد فيها الانفعال .

كانت اللجنة التحضيرية لرابطة الفنانين التشكيليين في سورية ، قد دعت الفنانين والنقاد إلى ندوة علنية لمناقشة هذا التمثال قبل صبه بالبرونز .

● وافقت البلاد العربية على اعتبار يوم ٨ أيلول (سبتمبر) يوماً دولياً لمحو الأمية ، بناء على توصية صادرة عن منظمة اليونسكو . وجرت في مختلف البلاد العربية ، بهذه المناسبة ، تظاهرات قومية وشعبية وبيانات وحملات ترمي الى محو الأمية وحث المواطنين الأميين على ضرورة الانتساب الى صفوف تعليم الكبار .

● أصدرت دار الجمهورية في بغداد في الحلقة الرابعة من سلسلة (القصة والمسرحية) مجموعة قصص (رماد الليل) للكاتب العراقي عامر رشيد السامرائي . يسود المجموعة قلق عنيف ، وتمتاز بجمال الأسلوب . وكان قد صدر في هذه السلسلة (الظامئون) للكاتب العراقي عبد الرزاق المطلبي و (عمان لن تموت) للكاتب العراقي عبد الوهاب النعيمي و (من مناهل الحياة) للأديب المهجري الياس قنصل .

● عدد أغسطس (آب) ١٩٦٧ من مجلة (الوعي) عدد خاص بالعيد العشرين لاستقلال باكستان . وهي مجلة أدبية ثقافية تصدر عن مطبوعات باكستان ــ كراتشي وتطبع في بيروت .

● أصدرت مجلة (البيدر) الشهرية عدداً خاصاً بالمؤرخ اللبناني المرحوم عيسى اسكندر المعلوف ، بمناسبة مرور ٩٨ عاماً على ولادته وإحدى عشرة سنة على وفاته .

● في عدد سبتمبر ــ ديسمبر (أيلول كانون الأول ١٩٦٦) من مجلة (البحث العلمي) التي يصدرها المركز الجامعي للبحث العلمي في الرباط ، مقال (الطريق الى الإشعاع الالكتروني والالكترولتات) للاستاذ مهدي المبارك .

● اقيم في مدينة حمص حفل تأبين للأديب المهجري نظير زيتون ؛ ألقيت فيه كلمات لميخائيل نعيمة وعبد المعين الملوحي وسعد صائب والبدوي الملثم ومطران السريان الارثوذكس ببغداد ومحافظ حمص ووديع فلسطين وعبد الله يوركي حلاق ونهاد شبوع وممدوح سكاف وعدنان الداعوق وآل الفقيد ، تحدثت عن أدب نظير زيتون وآثاره .

كما ألقيت قصائد لزكي المحاسني وشكر الله الجر وحنا الطباع ومحيي الدين الدرويش وعبد الرحيم الحمصي وراتب أتاسي ، اشادت بمكانة الفقيد الأدبية .

●

الامبريالية وحق الشعوب

بقلم أديب اللجمي

« أعتقد أني بينت في الصفحات السابقة ، بأن انشاء دولة اسرائيل فوق أرض فلسطين ، هو نتيجة لتسلسل يندرج تماماً في اطار **حركة التوسع الكبرى الأوروبية — الأمريكية خلال القرنين التاسع عشر والعشرين** والتي تستهدف السيطرة اقتصادياً وسياسياً على الشعوب الأخرى ... انه بالبداهة تسلسل استعماري يتمتع بصفات خاصة [1] . »

---

(١) من بحث للكاتب الفرنسي اليهودي مكسيم رودنسون ، بعنوان « هل اسرائيل واقع استعماري » ص ٨٣ ، من مجلة الأزمنة الحديثة .

Maxime Rodinson - Israel, fait Colonial ? In : Les Temps Modernes № 253 Bis 1967 p. 83

وقد قدمت « المعرفة » خلاصة وافية لهذا البحث في مكان آخر من هذا العدد .

فالواقع الاستعماري أسبق من واقع الصهيونية واسرائيل معاً . والواقع الاستعماري لم يستهدف « وضع اليد » على البلاد العربية وحدها ، بل شملت سيطرته أكثر شعوب القارات . ان الدول الاستعمارية كانت وما تزال تدير هاحفنة صغيرة من المتسلطين ، تتحكم في مقدرات حوالي ثلثي سكان العالم ، وتستغل لنفسها خيرات وثروات أكثر من ثلاثة أرباع سكان العالم .

فاذا سلمنا بأن الواقع الاستعماري لم يسهم في تكوين الحركة الصهيونية ، كما يدعي بعض محامي الاستعمار ، فان قيام اسرائيل واستمرار بقائها منذ عشرين سنة فوق أرض فلسطين لم يكونا ممكنين بدون هذا الواقع الاستعماري . وحول هذه النقطة بالذات تنتفي كل مكابرة ، ويصدق قول رودنسون « ان اسرائيل واقع استعماري » . ولكن كونها كذلك لاينفي تمتع الحركة الصهيونية العالمية — التي تفرعت عنها اسرائيل — بوجود واقعي ، هو من الناحية النظرية ، مستقل عن الوجود الاستعماري ، ومن الناحية الفعلية ، متكامل معه، ومرتبط به لأكثر من غرض ولأكثر من سبب .

واذا كانت أكثر شعوب العالم الثالث ، ماتزال تواجه الاستعمار الجديد والأمبريالية العالمية في مختلف أشكالها الاقتصادية والعسكرية ، وقد اندفعا بشراسة الوحش الجائع يتصان أرزاق هذه الشعوب وثرواتها وجهودها ، فان الشعب العربي ، اضافة الى مواجهته للامبريالية والاستعمار الجديد ، يواجه الصهيونية وقد تجسدت في اغتصاب فعلي للأرض العربية . إنه يواجه أمبريالية مشفوعة بصهيونية ، التقت أهدافها في اضعاف الأمة العربية ، والسعي لإبقائها ممزقة مجزأة ، وتبديد طاقتها التحررية بعد ان اتسعت وانتشرت في جميع أجزاء الوطن العربي ، وأصبحت قوة فعليـة تهدد بالتقويض الكامل مصالح هذه الأمبريالية التي تجلت بعد الحرب العالمية الثانية بظاهرتين هامتين :

اولاً – استقطاب الولايات المتحدة الأمريكية لها ، اذ أصبحت هذه هي المركز الذي يجذب اليه جميع الدول الرأسمالية والاستعمارية ، ويشكل منها قوة موحدة تقف في وجه حركات التحرر العالمية . بل يمكن القول ان الولايات المتحدة قد غدت وحدها تقريباً سيدة العالم الرأسمالي الغربي ، تمارس عليه وصاية يزداد ثقلها سنة اثر سنة .

ثانياً – استيلائها على حوالي ثلثي ثروات العالم من الموادالأوليةوالثروات الطبيعية واستثمارها لحسابها وابقاء البلاد المالكة لها – بلاد العالم الثالث بصورة خاصة – في حال رهيبة من التخلف المادي والمعنوي .

* * *

يعرّف لينين الأمبريالية بقوله[1] : « ان الأمبريالية مرحلة تاريخية خاصة من مراحل الرأسمالية ، تتميز بثلاث خصائص : ١ – انهـا رأسمالية احتكارية ٢ – انها رأسمالية طفيلية مفسدة ، ٣ – انها رأسمالية في حالة احتضار. فاستبدال المنافسة الحرة بالاحتكارهو العلاقة الاقتصادية الأساسية، بل هو جوهر الأمبريالية . ويتجلى الاحتكار بخمسة أشكال رئيسية : ١ – مجموعات الشركات الكبرى (الكارتل) ونقابات أرباب العمل ، والتروست . لقد بلغ تمركز الانتاج درجة من الشدة ولد معها هذه المجموعات الاحتكارية من الرأسماليين ، ٢ – الوضع الاحتكاري للمصارف الكبيرة : ان حوالي ثلاثة الى خمسة مصارف ضخمة ، هي التي تدير كل الحياة الاقتصادية في أمريكا وألمانيا ، ٣ – استيلاء التروستات والطغمة المالية على مصادر المواد الأولية (علماً بأن رأس المال النقدي هو ذاته رأس المـــال الصناعي الاحتكاري ، وهو مندمج مع رأس المال المصرفي) ،

(١) المرجع – لينين : الأمبريالية وانقسام الاشتراكية – منشورات موسكو بالفرنسية ١٩٦٦ .

٤ - إن قسمة العالم اقتصادياً بين المجموعات الاقتصادية الدولية قد بدأ . ان هذه المجموعات الدولية التي تسيطر على السوق العالمية بأسرها ، وتتوزعها فيما بينها بشكل ودي - اذا لم تعمل الحرب على اعادة توزيعها - يبلغ الآن عددها أكثر من مائة . فتصدير الرساميل ، وهو ظاهرة خاصة جداً ، بخلاف تصدير البضائع ابان فترة الرأسمالية غير الاحتكارية ، يرتبط ارتباطاً وثيقاً باقتسام العالم اقتصادياً وسياسياً ، ٥ - ان اقتسام مناطق العالم (اي المستعمرات) قد انتهى » .

فالأمبريالية تتميز بالنتيجة عن الاستعمار التقليدي بصفات عديدة ، قد يكون أهمها تجمع القوى الاحتكارية والاستغلالية ، وفرض سلطانها على شعوب العالم بمختلف الوسائل ، بما فيها الوسائل العسكرية « التأديبية » - كما يجري الآن في فيتنام ، وفي بعض البلاد العربية وبلاد أخرى من العالم - . وضخامة التسلط في الأمبريالية هي اكبر من ضخامته في الاستعمار ، لأن للأمبريالية صفة الشمول والهيمنة لا على مقدرات شعب واحد من الشعوب المغلوبة على امرها فحسب بل على مقدرات جميع الشعوب . ولكي تحافظ الامبريالية على هذه « الامتيازات » لا بد لها أن تخنق كل ما من شأنه أن يجعل الشعوب تتمرد على سلطانها . من هنا كانت الامبريالية لا مجرد سالبة لثروات العالم وحدها ، بل سالبة لحقوق الشعوب في أن تمارس تطورها ووجودهـــا الانساني بشكل طبيعي ، بحيث تتمكن بجهودها ، وبالتعاون العالمي النزيه ، من أن تتقدم وتحقق أهدافها في العدالة الاجتماعية والرخاء والتقدم التقني والعلمي ، والتخفيف من أساليب العمل المرهقة وسواها من ظاهرات الحياة الانسانية المتحضرة .

فكفاح الشعوب ضد الامبريالية يستهدف فعلاً تحرير ثروات هـــذه الشعوب من احتكارات الامبريالية وطغيانها ، ولكنه يستهدف أولاً وقبل كل

شيء ، تحرر هذه الشعوب ذاتها من منطق الامبريالية القائم على تجريدها من حقوقها ، بل من أبسط حقوقها في الحياة الحرة . ولئن تجلى الصراع قبل الحرب العالمية الثانية على شكل صراع بين قوى استعمارية متفرقة وشعوب مستعمرة متفرقة ، فان الصراع مع الامبريالية يتخذ مظهراً وحدوياً ، الامبريالية كلها في طرف ، وشعوب العالم الثالث كلها في طرف آخر .

* * *

ليس صحيحاً طبعاً، ولم يعد أحد يصدق أصلا ، ماتزعمه الولايات المتحدة من انها تخوض حرباً ضد شعب فيتنام ، باسم الدفاع عن حرية هذا الشعب . ان لاهتمام الولايات المتحدة بفيتنام أساساً اقتصادياً. ففيتنام جزء من مجموعة واسعة تضم بلاد جنوبي شرق آسيا ، وتزخر بالمواد الأولية التي تحتاج اليها الدول الامبريالية ، ويجب ألا تبلغ هذه الدول مستوى من التطور والنضج يسمح لها بأن تفيد لنفسها من مواردها وخيراتها ، بل يجب ان تظل هذه البلاد على حالها السابق من التبعية، باشكال خارجية مختلفة طبعاً ، من حيث بقاء الاستغلال فوق رأسها ، وقبولها طوعاً أو كرهاً به . المهم ان يبقى سائداً نظام السيد والمسود .

ان المدافع والقنابل التي تنطلق وتنفجر فوق اجساد الأطفال والكبار من أبناء فيتنام ، انما تدافع عن مصالح محدودة ، مصالح الرخاء الامريكي والغربي، انها مصالح الهيمنة على ثروات الشعوب . فقنابل الدفاع عن النظام الاستعماري الجديد ، لاتدوّي فوق رؤوس أبناء الشعب الفيتنامي وحسب بل تدوي في كل مكان من الأرض ، ينشد فيه الناس الحرية والعمل الكريم والتطور الانساني الصاعد ، واستكمال الوجود القومي ، كما هي الحال في البلاد العربية ، وفي بلاد عديدة منتشرة فوق سطح الأرض .

ولم يعد ثمة من يجهل ان الولايات المتحدة تنفق سنوياً على تدمير فيتنام — بحجة الدفاع عن العالم الحر — أكثر من خمسة وعشرين مليار دولار، أي حوالي ثلث حاجة بلاد العالم الثالث من الأموال التي يجب أن تخصص للتنمية وزيادة الدخل القومي، ورفع مستوى حياة الفي مليون نسمة. ولم يعد ثمة من يجهل أن ماتقدمه الامبريالية الامريكية والغربية من عون الى البلاد المتخلفة، انما يستهدف اول مايستهدف تشغيل الفائض من الرساميل الأمبريالية خارج مناطقها، ثم زيادة تطويق البلاد لإبقائها « تابعة » بشكل أو بآخر، ثم استرداد هذه « المعونة » اضعافاً مضاعفة الى القوة الأمبريالية « المُعينة ».

من بيانات وتقارير هيئة الأمم المتحدة يتضح أن مبلغ ٤٣٠٠ مليون دولار، وهي المعونة العامة التي قدمتها البلاد المتطورة الى بلاد العالم الثالث سنة ١٩٦٠، تمثل اسهاماً من كل مواطن من البلاد الرأسمالية يقل عن ٧ دولارات (منها دولاران وا كثر واجبة التسديد). ومثل هذا المبلغ لايزيد الانتاج الخام لمجموع البلاد التي أفادت منه، بأكثر من ١،٥٪، وهو لايقدم للمواطن الواحد من سكانها اكثر من ٣ دولارات في السنة (منها دولار يجب تسديده). وقد زادت هذه المعونة في السنوات التي تلت، فأصبحت في حدود ٦ مليارات دولار، ولكنها ظلت من حيث النتيجة عقيمة الفائدة بالنسبة للدول التي أفادت منها، كبيرة الفائد بالنسبة للدول التي تقدمها[1].

ان وراء المعونة التي تقدمها الامبريالية الى بلاد العالم الثالث، اغراضاً لاتمت بأية صلة الى اعتبارات انسانية، او تضامنية.

ان هذه المعونة مفتاح لدخول الاستثمارات الامبريالية الى البلد المعان، لنهب ثرواته وخيراته، وابقائه في وضع جديد من التبعية للامبريالية، فبين سنة ١٩٥٠ —

(١) اقتبسنا هذه الأرقام من كتاب: « نهب العالم الثالث » للكاتب الفرنسي بيير جاليه — وقد ترجمته وزارة الثقافة، وسيصدر بالعربية خلال أيام.

١٩٦٠ اخرجت الولايات المتحدة ٢٠ مليار دولار الى الخارج على شكل استثمارات خاصة ، حققت لها ارباحاً تقدر بـ ٢٥ مليار دولار ، مع بقاء رساميل الاستثمار على حالها .

وبين ١٩٥٠ ـ ١٩٥٥ وظفت الولايات المتحدة في امريكا اللاتينية ، ٢ مليار دولار ، فحصلت بواسطتها على ٣و٥ مليار دولار من الارباح . وفي سنة ١٩٥٩ وحدها حصلت الولايات المتحدة على ارباح من امريكا اللاتينية تقدر بـ ٧٧٥ مليون دولار ، وظّفت منها ٢٠٠ مليون في امريكا اللاتينية والباقي، وهي ٥٧٥ مليون دولار أعادتها الى الولايات المتحدة .

كذلك الحال في بلاد الشرق الاوسط . ان الاستثمارات الامبريالية في البلاد العربية تتجه بصفة خاصة الى استغلال البترول العربي ، وتسويقه الى الغرب . ان الارباح التي تحققها شركات الاستثمار من هذه العملية تتجاوز ٢٥٠٠ مليون دولار سنوياً . اما حصص البلاد العربية من عائدات انتاج البترول فيذهب اكثرها الى مشاريع التنمية وتدعيم الكيان القومي الذي يتيح للوطن العربي ان يخرج فعلا من نطاق السيطرة الامبريالية، بل يذهب الى شراء سلع استهلاكية من البلاد المستثمرة ذاتها .

واذا حدث ان طالب العرب باعادة النظر في العائدات التي يتلقونها من استخراج النفط او مروره في اراضيهم ، ذهبت الامبريالية تحيك المؤامرات عليهم ، وتسلط قوى الدعاية ضدهم . فاذا فشلت في استعمال أدوات « التخويف والترويع » ، لجأت الى تحريض اسرائيل لتقوم بالعدوان المسلح في الوقت المناسب .

ولكن نهب الامبريالية لخيرات الشعوب بوصفه هدفاً كبيراً ، يتطلب

في الوقت ذاته « نهب » حقوق الشعوب ايضاً . والنهب هنا لايتخذ طابع السرقة مثلما يحدث في استخراج المواد الاولية وسلبها . انه يتجلى بمصادرة حق الشعب في أن يتمتع بحقوقه العامة في السيادة والنمو وحرية التفكير والتعبير . فكل انظمة الحكم الفاشية والبوليسية والرجعية السائدة في بلاد العالم الثالث تشجعها الامبريالية بشكل او بآخر ، لتخنق بواسطتها ارادة التحرر والنمو التي تنطلق من داخل تلك الشعوب. ان الامبريالية لم تعد بحاجة الى اساطيلها وجيوشها لاحتلال البلاد التي لم تعتلج فيها حركات التحرر . في الماضي كان ذلك هو القاعدة ، اما الآن فأفضل وسيلة لقمع الحرية والتحرر في بلد من بلدان العالم الثالث ، هي التشجيع على مصادرة حريات ابنائه ، ودعم اقامة حكم بوليسي أو رجعي فيه ، واثارة البلدان المجاورة عليه ، وادخاله في دوامة من الصراعات الداخلية والخارجية التي تزيده تمزقاً ، وتذهب بطاقته التحررية هباء .

ان المواجهة التي يتحدى بها العالم الثالث في صراعه مع الامبريالية لايمكن ان تقف عند انصاف الحلول . ومن المستحيل ، كما تشير الى ذلك مختلف القرائن ان يكون ثمة امكان لتعايش سلمي بين الامبريالية من ناحية ، ونزعة التحرر والتقدم لدى شعوب العالم الثالث ، من ناحية أخرى . فاما ان ترحل الامبريالية لينهض العالم الثالث ، واما ان تستمر الامبريالية قوية ، فيستمر العالم الثالث مغلوباً على امره ازاءها .

ان شراسة الأمبريالية في مصادرة حقوق الشعوب تصل الى حد مصادرة حقوق سكانها أنفسهم . يقول الكاتب الزنجي الأمريكي جيمس بالدوين في وصف حال مواطنيه (١) :

(١) المصدر - مجلة فيغارو الأدبية - Le Figaro Littéraire № - 1111 - août 1967 - p. 7.

« ان نيوجرسي ولاية عرقية . فالزنوج مكدسون في حي بائس منها ، أجر البيوت مرتفع ، الماء مفقود من البيت ، المدارس غير موجودة . جمع الأوساخ يتم مرة كل أسبوع . في نيوجرسي تسعون بالمئة من الزنوج هم بلا عمل . ومتى بدأ موسم الحرّ وأخذ يحيّم فوق حيهم أصبحت الحياة فيه لا تطاق . فكيف نمنع المحروم من السرقة واليائس من القتل ؟

اننا نحن الزنوج الأمريكيين ، نعيش في بلد لم يعد لنا فيه أمل . اننا أناس لا مستقبل لهم . لقد أصبح الزنجي الأمريكي يعرف بأنه مخدوع ، مدمّر لأن أي زنجي يعرف بأنه مهدّد في حياته ووجوده ، محاط بالأعداء الذين يأبون أن يتركوا له أي أمل . ان الأمريكيين البيض يكرهوننا ، والبطالة تزداد كل سنة بين أبنائنا . ان عددنا يبلغ ٢٤ مليوناً في الولايات المتحدة ، أي اننا نشكل عشر السكان ، ولكننا لا نتمتع بواحد من مائة من مجموع الدخل القومي ، اننا نعتبر يداً عاملة رخيصة . »

وقد جاء في تقرير رسمي أعدته وزارة العمل الأمريكية ونشر سنة ١٩٦٥ ما يلي : ٢١٪ من الأسر الزنجية تعيش بدون أب ٣٥٪ من الأطفال الزنوج هم غير شرعيين ، ثلث الشباب الزنوج فقط الذين يبلغ عمرهم ١٨ سنة ، يعرفون آباءهم وامهاتهم .

وفي تقديرنا ان نجاح الحرية في العالم الثـــالث مرهون اولا بنمو وعي شعوبه ونضالها في سبيل الحرية والتقدم . كما انه مرهون ثانياً بتضامن هذه الشعوب تضامناً شبه عضوي ، تستطيع معه ان تقف كتلة واحدة في وجه الامبريالية واطماعها التي لا تحدّ . ان اعتماد شعوب العالم الثالث على تأييد المعسكر الاشتراكي لها في كفاحها التحرري طبيعي ومشروع ، ولكن اعتمادها على تضامنهـــا وقوة

ايمانها بحريتها الخاصة ، واجب وضرورة بآن واحد ، ذلك ان مواجهة الامبريالية ليست بالأمر الهيّن ؛ ولكن التخلي عن هذه المواجهة خيانة قومية ، واستمرار أبدي في التبعية . وليس امام شعوب العالم الثالث لتستخلص حريتها وحقها في الحياة والافادة من مواردها وجهود ابنائها ، الا ان تناضل ، جبهة واحدة ، وقوة مشتركة ، للاجهاز على الامبريالية . ان هذه القوة الطاغية تدرك اليوم التسارع الكبير لحركة الشعوب المتعطشة الى الحرية والتقدم . وهي تدرك بالوقت ذاته ، الأخطار الهائلة التي يتعرض اليها مصيرها من جراء مايسمى لقاء وتضامن الحركات التحررية لدى شعوب العالم الثالث . لذا فان جهداً جديداً أخذت تبذله الأمبريالية العالمية في هذه السنوات الأخيرة ، للتمزيق وحدة العمل التحرري لدى تلك الشعوب . اذ في هذا التمزيق استمرار للوجود الأمبريالي من ناحية ، واستحالة استكمال التحرر الوطني والقومي من ناحية ثانية . ومما لاشك فيه مطلقا أن كل انقسام في المعسكر الاشتراكي ، وكل استمرار للفرقة والتجزئة بين اقطار العالم الثالث ، هو كسب غير مباشر للأمبريالية ، وخسارة مباشرة لمعركة التحرر لدى شعوب العالم الثالث .ولو لم يكن للوحدة العربية الا فضيلة المواجهة العربية الواحدة للخطر الذي يتهدد أمتنا ، لكان ذلك كافياً لأن تقوم هذه الوحدة ، اليوم قبل غد .

